

أفكار خارج القفص

عبد الرحمن أبو ذكري

أفكار خارج القفص

هذا الكتاب ليس للمتعة الذهنيّة المجرّدة، وليس الغرض منه نيل رضا القارئ وموافقته وتصفيقه واستحسانه؛ بل الغرض منه تعليمه التفكّر، ومساعدته على تكوين ملكة للنظر والنقد والحكم. كل ذلك بطريقة غير مباشرة. فحين يُعاين القارئ المتفحّص منهج النظر ذاته وهو يُفكك الفكر السياسي ثم يُقرأ به الأدب ثم تناقش به بعض مسائل العقيدة والفلسفة ثم يتشكّل به دُعاء يستلهم سير الأنبياء؛ فإنه سيُدرك -ولو بشكل غير واعٍ- وحدة المعارف الإنسانيّة، ومن ثم أهميّة وحدة منهج النظر والرؤية الكونيّة الحاكمة والمهيمنة على التناول. وسيُدرك أيضًا أن الفصل المصطنع بين العلوم والمعارف الإنسانية مُجرّد فصل مدرسي إجرائي لا قيمة له، ولا يتم تكريسه إلا لتوثين حقل من المعارف أو الافتراضات التي بُنيت عليها بعض النظريّات "العلميّة".

عبد الرحمن أبو ذكري

أديب ومفكر ومترجم وناشر مصري. وُلِد بالقاهرة، وتخرّج في كلية الآداب بجامعتها. نشر عدة مقالات وأوراقًا بحثية في موضوعاتٍ متنوعة؛ تصُب جميعًا في استعادة مركزية الوحي الإلهي وتجديد الاجتهاد في الفكر والحركة الإسلاميين. مُهتمّ بالنقد الأدبي. ويمكن اعتباره امتدادًا لمدرسة «تجديد الدرس الكلامي الإسلامي» التي دشنها سيّد قطب، ورسّخها علي عزت بيغوفيتش، وأثراها عبد الوهاب المسيري. له عدة كتب وترجمات في طريقها للطبع، منها: «طير بلا أجنحة»، و«في أصول التصوّر الإسلامي».


ISBN 978-977-5015-09-9
9 789775 015099 >





لوحة الغلاف للمصمم الأمريكي:
فيليب وبستر

الخطوط للفنان المصري:
عبدالغني شعير

أفكار خارج القفص

عبد الرحمن أبو ذكري

أفكار خارج القفص



الطبعة الأولى

٢٠١٤م/١٤٣٦هـ

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٤/٧٩٤٩


ISBN 978-977-5015-09-9

لوحة الغلاف للمصمم الأمريكي:

فيليب وبستر

الخطوط للفنان المصري:

عبدالغني شعير



ص ب ٥٦١١ – كود ١١٧٧١

هليوبوليس غرب – القاهرة – مصر

البريد الإلكتروني: info@dartanweer.com

dartanweereg

www.dartanweer.com

بسم الله الرحمن الرحيم

"ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله
وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين"

صدق الله العظيم

(فصلت : ٣٣)

الإهداء

إلى أيام الشدَّة والإدبار قبل أيام الرخاء والإقبال؛

إلى أيام ألم وعناء عشتها وسأعيشها وحيدًا، كما ولدت وحيدًا وسأموت وحيدا؛

إلى أيامي ... إلى تاريخي، وما سيصير تاريخي؛

إلى أثقال الوعي التاريخي المبرح.

قد أحببت هذه الحياة التي وهبتني يا رب؛

وأحببت هذا التاريخ باختلاط الحابل فيه بالنابل؛

أحببته بكل الألم الذي عانيته في تفتق الوعي وفي مكابدته، وفي إنهاك الحركة داخل التاريخ.

أحببته لأنه مشيئتك التي ارتضيت؛ لأعرج لك بها ... سبحانك.

أحببته وإن تاقت نفسي لسكون لم تأذن لي به.

سبحانك ما عبدتك حقَّ عبادتك؛ فهبني الرضا بك وعنك، وانظر إليّ بعين اللطف والعفو.

إهداء خاص جدًا

إلى التي هداني الله بها لخير ما جبله في نفسي؛

إليك يا هُدى روحي ووجعها.

خطبة الكتاب (*)

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، نحمدُه على عظيم نعمائه، وجميل بلائه، ونَستكفيهِ نوائبَ الزمان، ونوازلَ الحَدَثان، ونرغب إليه في التوفيق والعصمة، ونبرأ إليه من الحول والقوَّة ونسأله يقينًا يملأ الصدر، ويعمُر القلبَ، ويستولي على النفس، حتى يَكُفَّها إذا نَزَغَت، ويردَّها إذا تطلَّعت، وثقة بأنه عز وجل الوَزَرُ، والكالئُ والراعي والحافظُ، وأن الخيرَ والشرَّ بيدِهِ، وأن النعم كُلها من عنده، وأن لا سلطان لأحد مع سلطانه، نوجِّه رغباتنا إليه، ونُخلِص نياتنا في التوكُّل عليه، وأن يجعلنا ممن همُّه الصدقُ، وبُغيَتُهُ الحقُّ، وغرضُه الصوابُ، وما تُصحِّحه العقول وتقبَله الألبابُ، ونعوذ به من أن ندَّعيَ العلمَ بشيءٍ لا نعلمُه، وأن نُسديَ قولًا لا نُلحِمُه، وأن نكون ممن يَغُرُّهُ الكاذب من الثناء، وينخدعُ للمتجوِّز في الإطراء، وأن يكون سبيلُنا سبيل من يُعجبه أن يُجادل بالباطل، ويُموِّه على السامع، ولا يُبالي إذا رَاجَ عنه القولُ أن يكون قد خلَّط فيه، ولم يُسدد في معانيه، ونستأنف الرغبة إليه عزَّ وجل في الصلاة على خير خلقه، والمصطفى من بريَّته، محمدٍ سيِّد المرسلين، وعلى أصحابه الخلفاء الراشدين، وعلى آله الأخيار من بعدهم أجمعين.

(*) خُطبة كتاب «دلائل الإعجاز»، للإمام العلامة عبدالقاهر الجُرجاني.

مدخل

لم أتردد طويلًا في نشر هذا الكتاب، برغم قالبه وشكله غير المألوفين، وبرغم أني حين شرعت في ملء الشذور والقصاصات التي تكوَّن منها، لم أكن أفعل ذلك بنيَّة جمعها ونشرها كما هي؛ بل كنت أدوِّن تأمُّلاتي، والأفكار التي تطرأ لي، وملخصات تعليقاتي على بعض الكتب والشخصيَّات، وملاحظاتي على أهم القضايا اليوميَّة، وذلك حتى لا أنساها؛ ولأعيد استخدامها فيما أكتب.

لذا، فهذا الكتاب ليس أول ما كتبت، وإن كان أول ما يُنشر باسمي بين دفتين اثنين. ورُبَّما لكُلِّ هذا لا يُمكن تحديد تاريخ كتابة هذا الكتاب ولا حتى بعضه على وجه القطع، فقد كتبت بعضه على هاتفي الجوال، وبعضه على الحاسوب، وبعضه الآخر على قصاصاتٍ متناثرةٍ، وبعضه على صفحتي على الفيسبوك، وبعضه في كراساتٍ خصصتها لهذا الغرض. لكن يمكن القول أن هذا الكتاب بعض عُصارة عشرة أعوام (٢٠٠٣-٢٠١٣م) على وجه التقريب.

وهو بعض العُصارة لأني لم أنشُر كل الأفكار والملاحظات التي تمخَّضت عنها السنوات العشر، ولا ربعها ولا حتى عُشرِها، برغم أني قد سعيت لذلك -عبثًا- فترةً من الزمن! فقد كنت أتوهَّم إمكان التوقُّف لفترةٍ عن كتابة شيءٍ جديد؛ حتى أُنقِّح كل ما كُتب وأنشره. ثم اكتشفت بعد برهةٍ وجيزةٍ أن هذا الوهم الطوباويَّ غير ممكنٍ إلا بتوقُّف أنفاسي ومفارقتي للحياة نفسها! وحتى حال مفارقتي للحياة، فسوف أُخلِّف -مثل غيري- رُكامًا غير منشورٍ. إنها سُنَّة الحياة التي لا نستطيع

إيقاف تدفُّق نهرها، ولا نعرف حتَّى موعدًا لتوقُّف هذا التدفُّق. فلا كمال لحيٍّ ولا حتَّى لفعله التاريخيِّ. **فاعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، ولآخرتك كأنك تموت غدًا.**[1]

السبب الثاني لكوني لم أنشر كل ما تمخَّضت عنه السنوات العشر هو أني آثرت استخدام البعض الآخر في كُتبي وأبحاثي التالية؛ رُبَّما لأن نُضج تلك الأفكار قد بلغ به الدَّرجة لتشكيل أنساقٍ مُستقلَّةٍ. لكن هذا لا يشترط بالضرورة كون المقولات التي يحويها هذا الكتاب لم تُستخدم من قبلُ ولا من بعدُ. بل لا أغالي إن قلت إن أكثرها من الأفكار التي اتخذت لها مواطن في أنساقٍ مستقلَّةٍ، وإن كنت قد لمست فيها قوَّةً بذاتها، فطرحتها للقارئ في صورتها شبه الأوليَّة؛ علَّه يُفيد منها في بناء مقدرته المنهجيَّة: التفكيكيَّة والبنائيَّة.

استحال أيضًا نشر كل عُصارة حياتي القصيرة خلال هذه السنوات لسببٍ لا يقلُّ أهميَّةً عن سابقيه، وهو أن منها أفكارًا راجعتها فطوَّرتها أو تخلَّيت عنها، ومنها ما هو في مراحل التشكُّل المختلفة: بذورٌ أو جذورٌ أو ثمارٌ نصف ناضجةٍ.

لكن هذا لا يعني أن كل الأفكار التي يضُمُّها الكتاب تمثِّل الصورة الأخيرة لفكري، فناهيك عن تعارُض ذلك مع الصيرورة الإنسانية المفتوحة، فهو عارٍ عن الصحّة. إن الأفكار والتأملات التي يُدوِّنها امرؤٌ طوال عشر سنوات تعكس مسيرة تطور رؤيته بأكثر مما تعكس موقفه «النهائي» من القضايا التي تتناولها، وإن كان هذا لا يمنع من أن كثيرًا من هذه الأفكار تمثِّل رأيًا أو موقفًا أو وجدانًا لم يتغيَّر تغيُّرًا يُذكر خلال عقد من الزمان. وحين نقَّحت بعض هذه الأفكار وجمعتها بين دفتي كتابٍ، فإن ذلك كان يعني تحقُّقها بالحد الأدنى من التعبير عن فكري وتطوُّره. وكما أسلفت؛ فبعضها يُمثِّلني اليوم، وبعضها كان يُمثلني بالأمس ولا زلت أعتقد في صحّته، وبعضها يُمثلني منذ عامٍ ولا زلت أعتقد بصحَّة الشطر الأكبر منه، وبعضها

---

(١) رواه ابن قتيبة فى غريب الحديث، ١/ ٤٦/ ٢؛ حدثنى السجستانى حدثنا الأصمعى عن حماد بن سلمة عن عبيد الله بن الصفراء عن عبدالله بن عمرو أنه قال «الرواية»؛ فذكره موقوفًا عليه إلا أنه قال: «احرث لدنياك... إلخ».

يعكس شعوري منذ خمسة أعوام ولا زلت أجد صدقه مُعبِّرًا عني بشكلٍ أو بآخر. خلاصة الأمر؛ أن هذه الأفكار تُمثِّلني حتى لو غيَّرت موقفي من بعضها، فهي تُمثِّل الرحلة التي تغيَّر فيها موقفي من بعض القضايا، وصولًا إلى مواقفي «النهائيَّة»؛ إن كان ثمت! إنها تعكس ذاتي التاريخانيَّة، بمكامن قوَّتها ونقاط ضعفها، بما أحبُّهُ فيها وما أسعى لإخفائه منها.

وبما أن الأفكار التي أفصحتُ عنها في هذا الكتاب ليست مُرَتبَّةً حسب تسلسُل كتابتها ولا مؤرَّخةً وفقًا لزمان كتابتها، لذا؛ فأفضل طريقة هي قراءتها على التوازي وعلى التوالي في آنٍ. على التوازي لتحقيق قدرٍ من التكامُل بين الأفكار ومن ثم الإفادة منها منهجيًّا، وعلى التوالي لإدراك الطبيعة الإنسانيَّة المركَّبة ومقدرتها الفطريَّة على الانتقال بين الموضوعات المختلفة والمتنوِّعة ما استوى منهجها في النظر.

وقد يشعر القاريء في بعض المواطن بالتناقُض بين فكرتين أو أكثر، ويظن أنهما لا تُعبران عن نفس النسق. لكن هذا التناقُض الظاهري سببه التنوُّع الموجود في الواقع أولًا، وهو تنوُّعٌ لا ينفي الوحدة الكامنة، وأن المقولات تُجسِّد جزءًا من صيرورةٍ فكريّةٍ إنسانيّةٍ ثانيًا. فإذا أمعن النظر، فسوف لن يعود لذلك التناقُض وجود إلا في حدود اللاوعي الإنساني، وسوف يكتشف -مثلًا- أن بعض المقولات أقل نُضجًا من غيرها على مستوى كفاءة التعبير عن النسق، وأن هذه المقولات قد نضجت في مطارحات وملاحظات ومواضع أخرى من الكتاب؛ حتى ليبدو النسق بعد القراءة المتأنية مُطردًا في شكل تطوُّرٍ تاريخيٍّ أكثر منه مُحمَّلًا بالتناقُضات.

سيجد القارئ أيضًا آياتٍ أو أحاديث أو أبيات شعرٍ أو مقتطفاتٍ لم أعلق عليها، وتركتها كما هي. ذلك أني وجدتها مدعاةً لتأمُّلٍ عميقٍ في ذاتها، ووجدت أن تأمل القارئ الذكي سيستنطقها كما استنطقتها، فتركتها كتدريبٍ عمليٍّ لجهده التأويلي والذي سيُحدد النسق العام للكتاب ملامح اتفاقنا واختلافنا في النتيجة التي وصل إليها.

لقد استلهمت تجربة أستاذنا علي عزت بيغوفيتش في كتابه الذي تُرجم تحت عنوان هروبي إلى الحريّة «بالإنكليزيَّة نوتس فرُم بريزُن Notes From Prison»، والذي شرعت بإعادة ترجمته منذ بضع سنوات، وحالت ظروفٌ دون إتمامه[1]. استلهمتها في الشكل وفي المضمون معًا؛ فالكتاب عبارة عن أفكارٍ عُرضت في أقل مساحةٍ ممكنةٍ، فجاءت كثيفةً إلى درجةٍ قد تستلزم أحيانًا إعادة القراءة عدَّة مرَّاتٍ لسبر غور الفكرة. صحيحٌ أن هناك كتاباتٍ أخرى قد تكون أسهمت في رسم هذا الشكل وترسيخ طريقة بناء المضمون، بغير وعيٍ، ومنها كتب الأدب العربي القديم وعلى رأسها «العقد الفريد» ومؤلفات الجاحظ - خصوصًا كتاب «البيان والتبيين» الذي صحبته طويلًا - أو كتابات نيتشه وعلى رأسها كتابه: ما وراء الخير والشر، أو كراسات السجن لغرامشي؛ إلا أن أثر أيّها - لو صح- فهو كامنٌ في اللاوعي. أما الأثر المقصود والشكل المنشود، فقد كان كتاب علي عزت بيغوفيتش المذكور.

في هذه الفقرات عرفت الفارق بين أنواع الكتابة: الكتابة كجذبةٍ صوفيَّةٍ، والكتابة للارتزاق، والكتابة كحرفةٍ يدويَّةٍ أشبه بالحفر على النحاس أو الخشب، والكتابة كهوايةٍ. ووجدت أن الكتابة تُمثِّل إلزامًا شخصيًّا للمجذوب؛ إنها سبيله الوحيد لاكتشاف الذات والوجود. إن شغفه بها أشبه بشغف المدمن بالخمر التي يُعاقرها، شغفٌ لا ينبُع من العقل؛ بل من الظمأ ... الظمأ الغامض إلى الكشف. لكن الفارق بين جذبة السكِّير وجذبة الكاتب أن الأول يُريد الذوبان في قنينته، بينما يُريد الثاني التجسُّد بين الصفحات. إن كلًّا من السكِّير والكاتب يعرفان بشكلٍ واعٍ أن ثمة تبعاتٍ لفعلهما، لكن التوهُّج الذي يصدُر عنه الفعل في لاوعيهما هو التبعة وهو المآل. إنه لا يستطيع التوقُّف أمام النتائج والمآلات المترتبة على هذا التوهُّج. إنهُ تحقُّقٌ من حيثُ هو حالةٌ نماذجيَّةٌ؛ إنه معنًى بذاته. معنًى تتصاغر أمامه كل المعاني الأرضيَّة وكل الأغراض والمصالح الدنيويَّة. إنه أشبه ما يكون بالقنوت.

(١) عسى أن أتمكن من إتمامه قريبًا. فالكتاب تجربةٌ ثريَّةٌ للمترجم قبل أن يكون كذلك للقارئ. إنه يحتاج لمكابدةٍ حقيقيَّةٍ حتى تخرج الترجمة معبِّرة عن روح المؤلف وتركيبيَّة رؤيته وثقافته الهائلة، وبعيدة عن الالتصاق الرياضي الميِّت والسخيف بحرفيَّة الألفاظ؛ كما فعل من ترجموه من قبل.

إن هذا الكاتب حين يُوَلِّد مقولاته الخاصَّة، فإن هذه المقولات ليست هدف الكتابة الأصليّ؛ إنها هدفٌ تابعٌ يترتب على فعل الكتابة. إنه يكتُب أصلًا ليشحذ بصره وبصيرته، أو ليُدافع عن ضميره كما يقول أحمد مطر. إن الكتابة في هذه الحال أحد صور التحقُّق الذاتي بالإيمان، ونتيجتها النهائيَّة هي صورة الدعوة التي تتحرَّك ذاتيًّا بتزكية الداعي لنفسه. تتحرَّك به كدعوةٍ حيَّة على الأرض. وأظن أني جمعت بين الكتابة كجذبةٍ وكحرفة يدويَّةٍ. فإني أُعنَى كثيرًا باختيار اللفظ عنايتي ببلورة المعنى؛ وأتتبع مدلولات الألفاظ المحوريَّة وتطوُّر استخداماتها في العربية وما يقابلها في بعض اللغات الأخرى. باختصارٍ؛ فإن الكتابة عندي جمعٌ بين العمل الفني والعمل الفلسفي. وأنا في ذلك أُشكل نسقي اللغوي ومعجمي الخاص بشكلٍ تدريجي؛ يتجلى أشد ما يتجلى في المقالات الطويلة، وفصول كتبي التي لما تنتهي بعدُ. إنه نسقٌ يجمع بين التكثيف الذي أفدته من كتابة القصة القصيرة، وبين فن الفسيفساء اللغويّة ذي الطابع الشعري، والذي يُشكل مشهدًا فلسفيًّا/ فنيًّا كاملًا من أجزاءٍ لغويّةٍ بالغة الصغر؛ أجزاءٍ تتكوثر بطريقةٍ مخصوصةٍ لتُشكِّل نسقي الخاص؛ لذا، فاللغة في كتاباتي لا تنفصل عن الموضوعات التي أتناولها بها في الغالب الأعم، فهي ليست مجرد قوالب مصمتة بل تكوينٌ فنِّيٌ حيٌّ أكابده مُكابدتي للأفكار. وفي هذا قد أشبه أوائل مُتكلمي المسلمين؛ الذين كانت الآلة الكلامية عندهم آلةً لغويَّةً صرفةً، مثلها في ذلك مثل الآلة الأصوليَّة المبكِّرة.

لذا، فإن هذا الكتاب ليس للمتعة الذهنيَّة المجرَّدة، وليس الغرض منه نيل رضا القارئ وموافقته وتصفيقه واستحسانه؛ بل الغرض منه تعليمه التفكُّر، ومساعدته على تكوين ملكة للنظر والنقد والحكم. كل ذلك بطريقةٍ غير مباشرةٍ. فحين يُعاين القارئ المتفحِّص منهج النظر ذاته وهو يُفكك الفكر السياسي ثم يُقرأ به الأدب ثم تناقش به بعض مسائل العقيدة والفلسفة ثم يتشكَّل به دعاء يستلهم سير الأنبياء؛ فإنه سيُدرك -ولو بشكلٍ غير واعٍ- وحدة المعارف الإنسانيَّة، ومن ثم أهميَّة وحدة منهج النظر والرؤية الكونيَّة الحاكمة والمهيمنة على التناول. وسيُدرك

أيضًا أن الفصل المصطنع بين العلوم والمعارف الإنسانية مُجرّد فصلٍ مدرسيٍّ إجرائيٍّ لا قيمة له، ولا يتم تكريسه إلا لتوثين حقل من المعارف أو الافتراضات التي بُنيت عليها بعض النظريّات «العلميّة».

وقد يجد القارئ، رغم ذلك؛ بعض التشجيع في محدوديَّة مساحة تناول كل موضوع/ فكرة، ويعتبر ذلك موافِقًا لنمط حياته المتَسارِع. لكن حذار من توهُّم إمكان التعامُل مع الكتاب بمنطق اقتطاف مصطلح من هنا وفكرة من هناك، فإن الكتاب على كثرة الأفكار التي يتناولها يعكس وحدةً نسقيَّة مُنسجمةً إلى حدٍّ كبير.

إن هذه الأفكار كالأحجار؛ قد تصلح لبناتٍ للبناء فقط، وقد تصلح كمعاول للهدم فقط، وقد تصلح لهدمٍ يعقُبه بناءٌ. ومن ثم كان قطف مقولةٍ واحدةٍ بغير إدراكٍ عميقٍ للنسق، مُسببًا لتشوش الرؤية وداعيًا للبلبلة؛ خصوصًا إذا ما سعى القاطف للوك المقولات كديباجاتٍ جاهزةٍ يصُب فيها رؤى مغايرةً. إن نصيحتي بقراءة الكتاب على التوازي تُراعي هذا البُعد، فالأفكار تُفسِّر وتُضيء بعضها بعضًا. وربَّما عثر القارئ بمناقشةٍ لمسألةٍ عقديّةٍ أو واقعةٍ تاريخيَّةٍ تُفسّرها ملاحظةٌ على روايةٍ أو واقعةٍ مُعيّنةٍ. إن القارئ الذي سينخدع في السهولة الظاهريَّة للكتاب، وقصر بعض مقولاته، لن يقع في فخ تسطيح الفهم والأدلجة فحسب، بل ستغيب عنه كُليًّا مستوياتٌ أعمق من المعنى لا يُمكن إدراكها إلا بالقراءة المتأنية، والمتكررة. إن هذا الكتاب يهدف لتنشيط العقل وشحذ الوجدان والإسهام بقسطٍ صغيرٍ في استعادة الإنسان. فاقرأه واهضمه، ثم وافقه أو انبذه، المهم أن تعيشه أولًا. ساعتها يكون قد حقق ما أُخرج لأجله.

أخيرًا وليس آخرًا؛ فهذا ليس كتابًا فلسفيًّا ولا كتابًا عن الفلسفة، لكنه كتاب عن الحياة في ظلال الوحي كفلسفةٍ ومنهجٍ مطردٍ. وسيجد القارئ بين طيات الكتاب رفضًا واضحًا قاطعًا للمذاهب والأنساق المعرفية والعقديّة والفقهية والفلسفية والكلامية المنغلقة، كما سيجد شغفًا واضحًا بآل بيت النبيّ عليه الصلاة والسلام. شغفًا وعشقًا وولاءً أكره أن أتوارى بهم بعد إذ أخرجني الله بهم من ضيق

الأفهام إلى رحابة الإسلام. شغفًا وعشقًا وولاءً لمكانهم من رسول الله ﷺ قبل أن يكون لصلة دمٍ ونسبٍ شرفني المولى سبحانه بها.

وفي النهاية أحب أن أشكر أخوين إلى قلبي قريبين؛ أخوين ساهمت حواراتي معهما مُجتمعين ومنفردين في إثراء مادَّة هذا الكتاب وتطوير كثير من أفكاري بشكلٍ لا يُمكنني إنكاره، ولا الوفاء به. الأخ المهندس أيمن عبدالرحيم، والأخ الدكتور محمد صفار: أخوين ومُعلمين وصديقين مُخْلصين من أهل العلم والنظر. كما أتوجه بجزيل شكري للأخت الكريمة؛ الباحثة الجزائرية النابهة: عومرية سلطاني؛ لقرائتها مسودة هذا الكتاب، ولعمق ملاحظاتها القيِّمة والشديدة النفع التي أبدتها على المحتوى، فهي القاريء الذي به أتعرف عليَّ. والشكر موصول لكل من قرأ مسودة هذا الكتاب وزودني بتعقيبٍ، ومنهم أخوي أحمد سالم (أبو فهر السلفي) من مصر وأسامة غاوجي من الأردن. وما كان من خيرٍ فيما سطرت فهو من الله، وما كان من شر فمن نفسي؛ فأسأل الله أن ينفع بالخير ويأجُرني به وأن يُعمي خلقه عن الشر ويعصمهم منه ويغفره لي. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

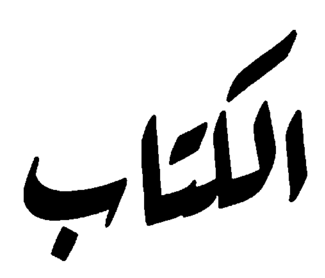
عبدالرحمن محمد أبوذكري

مصر الجديدة، القاهرة،

فجر الخميس الخامس والعشرين من شهر شعبان ١٤٣٤ من هجرة المصطفى،

الموافق الرابع من يوليو ٢٠١٣ بالتقويم الغريغوري،

صبيحة الانقلاب العسكري على محمد مرسي وعزله.


الكتاب

١- كرَّم الله بني آدم، وفضَّلهم بالمعرفة على كثير ممن خلق. فالمعرفة أساس الاختيار، والاختيار الحُرُّ هو عين تحقق إنسانيَّتك. وتحقُّق الذات الإنسانيَّة هو مُنتهى التكليف الربَّاني وغايته. وليس للمعرفة طريقٌ سوى الألم.

٢- إذا جعلت السعادة هدفًا مُجرَّدًا، فستشقى دهرك، ولست ببالغه. لكنَّ السعادة ذاتها ستسعى إليك إذا حققت هدفًا وجوديًا، وتحققت إنسانيًا.

٣- قال بعضُ السلف إن الزُهد هو: خلوُّ القلب مما خلت منه اليد. وقال آخرون: هو ألا يغلب الحرامُ صبرك، ولا يغلب الحلالُ شُكرك. أما عبد ربِّه الفقير، فيقول إنه: خلو قلبك من الدنيا، مع امتلاكك لها في يدك؛ فإنما يكون الزُّهد فيما قدرت عليه، مع يقينك بما في يد الله ﷻ عمّا مكّن منه يدك، تصديقًا لقوله ﷻ: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[1].

٤- يكمُن الكمال البشري في إدراكنا للنقص كمكوِّنٍ أساسيٍّ في التركيبة الإنسانيَّة، وتعويض هذا النقص بالحضور الوجداني الدائم للمعيَّة الإلهيَّة؛ تحقيقًا للتعايُش مع هذا النقص البنيوي. وقد كان إدراك بعض السلف لهذه الحقيقة جليًا في قول مُعاوية بن أبي سفيان: لا تُدرَك نعمةٌ إلا بفوات نِعَم. إن الإنسان منقوصٌ لا يكتمل بذاته، ولا بُدّ من انضوائه تحت كمال الموجود بذاته حتى يتحقق التعايُش.

٥- قال لي ربِّي: يا عبدي، أرزُقُكَ من وراء حجابٍ، ولو شئتُ لأمطرتُ عليك الذهب والفضَّة. لكنّك حبيسُ دار الحُجُب، وأنا أسوق لك رزقي بين يدي الأسباب. فإن أيقنت بحكمتي؛ أرضيتُكَ بِقسمَتي، ثم رزقتُك ما لا خطر على قلب بشرٍ، وما أنقص ذلك من مُلكي شيئًا.

٦- إن الزعم بأن طموحات الإنسان وأحلامه أكبر من قدراته إنما هو وهمٌ. فغالبًا ما يكون الطموح أعظم من جرأة صاحبه، وأكبر من إرادة الفعل لديه.

---

(١) سورة النحل؛ الآية ٩٦ .

٧- يشقى الإنسان في ابتغاء القوَّة الماديَّة المفرطة، فإن أدرَكَتهُ؛ كانت نفسُهُ أولى ضحاياها.

٨- من أرقّ، وأروع، وأقوى ما نظم أبو القاسم الشابيّ:

سأعيشُ رغم الداء، والأعداءِ　　كالنسر فوق القمَّة الشمَّاءِ
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئًا　　بالسُّحب، والأمطارِ، والأنواءِ
لا أرمقُ الظلّ الكئيب، ولا أرى　　ما في قرار الهُوَّةِ السوداءِ
وأسيرُ في دُنيا المشاعِر حالمًا　　غَرِدًا، وتلك سعادةُ الشعراءِ
أُصغي لموسيقى الحياةِ، ووَحيها　　وأذيب روح الكون في إنشائي
وأصيخُ للصوت الإلهيّ الذي　　يُحيي بقلبي ميِّتَ الأصداءِ

ولو أن بعض الألفاظ توحي بالسذاجة الرومانتيكيّة، إلا أن إصراره على التجاوز والتحقُّق لا يُمكن أن يمُرَّ بغير أن يلمس شيئًا في داخلك. إنهُ يُخاطِبُ الإنسان في أي زمانٍ ومكانٍ.

٩- إن الحقائق الكُبرى لا تُدرَك، بل تُتَذوَّق. والذين ينكرون وجود الروح الإنسانيّ لا يُمكنهم تذوُّق تجليَّاتها الإبداعيَّة الحقيقيَّة. إنهم أصحاب ذائقةٍ سقيمةٍ، وفطرةٍ مطموس عليها. لقد التصقوا بالطين. بل اتَّحدوا به، ولم يعودوا قادرين على تجاوزه. وهذا هو الموت الحقيقيُّ.

١٠- كان العلّامة السنهوري رحمه الله مُحقًّا حين قرر أن الألم والشهوة هما الفارق بين البشر والملائكة. فتوظيفهما، واحتمال تبعاتهما، وتنظيم آثارهما؛ هو ذروة تحقُّق الذات الإنسانيّة. وبذا فُضِّلَ آدم عليه السلام وذُريّته على الملائكة الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

١١- قديمًا قيل: ما استحقَّ أن يُولَد من عاش لنفسه فقط. لكن هناك فارقًا ضخمًا بين أن تعيش لنفسك، ولو على حساب الآخرين (وهي الأنانيَّة المحضة)،

---

(١) سورة التحريم؛ الآية ٦.

وأن تعيش بنفسك (فتُحققها إنسانيًا). فالأولى فرديَّةٌ محضةٌ تتمركز فيها حول ذاتك (إلهك الوثني)، والثانية تُلبِّي مطلبيّ الوجود الإنساني، فالإنسان كائنٌ اجتماعيٌّ، لكنه بنفس الوقت فردٌ مُتميزٌ خاصٌّ، وليس في ذلك إلا التكامُل المُعجِز.

١٢- يزعُم السطحيون أن القوَّة الحقيقية هي تضخُّم قُدرات الجسد الماديَّة، والنفعيُّون يزعُمون أنها امتلاك كنوز المال. ولكن على النقيض من ذلك كُلِّه تكمن القوّة المُطلقة. إنها طاقة الأرواح التي استحوذت عليها فكرةٌ ساميةٌ، ولاكها هدفٌ نبيل؛ فأولداها جبالًا من إيمانٍ راسخٍ، مُستظلٍّ بإصرارٍ واعٍ مُتبَصِّرٍ.

١٣- سأل الوليد بن عبدالملك أباهُ يومًا: يا أبت، ما السياسة؟ فيرُدُّ الطاغوت الداهية عبدالملك قائلًا: هي هيبة الخاصة مع صدق مودَّتها، واقتيادُ قلوب العامَّة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع. وتأمّل البون الشاسع بين بداية الانحدار في الفكر والممارسة السياسيَّة الإسلاميَّة، وبين الحضيض الذي تردَّينا فيه. ففي عالم اليوم يُمكن تعريف السياسة بأنها: خِسَّة الخاصة واشتداد حقارتها، واقتلاعُ قلوب العامَّة بانتهاب حقوقها والتنكيل بها، وتكريس هفوات الصنائع ... ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

١٤- ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، الآية ٤٢)

١٥- رُوِيَ عن بعض اللغويين قوله: كُن لما لا ترجو، أرجى منك لما ترجو، فإن الكليم موسى عليه السلام قد ذهب ليقتبس نارًا، فنُودِيَ بالنبوَّة. وقريب منه قول المتنبِّي:

أعلل النفس بالآمال أرقبهـــــا ما أضيق العيشِ لولا فُسحةُ الأملِ.

١٦- ليست الحكمة أن تَسعى دائمًا للحدِّ من الطعنات الموجَّهة إليك. لكنَّه عملك أحيانًا على أن تجعلها أقلَّ إيلامًا في كُلِّ مرَّةٍ، ومن ذلك قول المتنبِّي:

رماني الدهرُ بالأرزاء حتـــى فؤادي في غشـــاءٍ من نبـالِ
فصرتُ إذا أصابتني سِـــهامٌ تكسَّرت النصال على النصالِ

١٧- إن القصاص ضرورةٌ إنسانيّةٌ مشروعةٌ، لإقامة ميزان العدل الربّانيّ. لكن إذا تحوّلت هذه الرُّخصة الاجتماعيُّة إلى رغبةٍ شخصيَّةٍ؛ انحرف ميزان العدل.

١٨- الشجاعة مزيجٌ من الحكمة والإقدام. فإذا اختلَّ ميزانُ الحكمة في هذا المزيج كانت الحماقة. وإذا اختلَّ ميزانُ الإقدام تبَدَّى الجُبن.

١٩- من دعاءٍ لأعرابيّ: اللهم إن لك عليَّ حقوقًا، فتصدَّق بها عليَّ، وللناس تبعاتٌ، فتحمَّلها عنِّي، وقد أوجبت لكل ضيفٍ قِرًى، وأنا ضيفك، فاجعل قرايَ في هذه الليلة الجنَّة.

٢٠- قال السنهوري رحمه الله: إذا اعترف رجلٌ بنقيصةٍ فيهِ مُختارًا، فذلك لأنه غالبًا بدأ يشعُر أنه قد أصبح أقوى منها. فانظُر كمْ من نقائصك تُنكرها!

٢١- إذا أصبحت وما لك سرورٌ إلا في مواطئ القَدر، فأنت المتوكِّل على الله.

٢٢- مما يُنسب لأمير المؤمنين الشهيد علي بن أبي طالب عليه السلام، قوله: أشقُّ الأعمال على النفس ثلاثًا؛ الجود من قلّةٍ، والوَرَعُ في الخلوة، وكلامُ الحقِّ عند من يُرجى ويُخاف[1].

٢٣- يقول المفكِّر الشهيد علي شريعتي رحمه الله: إن لكُلِّ ثورة رسالتين؛ رسالة الدم ورسالة الكلمة. فالذين استُشهدوا قد قاموا بالعملِ الحُسينيِّ، وعلى الباقين أن يقوموا بالدور الزينبيِّ، وإلا فإنهم يزيديُّون.

(١) نسبه ابن عساكر للشافعي في تاريخ دمشق؛ قائلًا: أشد الأعمال علي النفس ثلاثة: الجود من قلة، والورع في الخلوة، وكلمة الحق عند من يُرجي ويُخاف.

٢٤- الظلم كنيران المجوس؛ لا يُطفئها إلا صفاءُ التوحيد.

٢٥- إذا أردت أن تصل لموقعك من الوجود، والذي لن يشغَله سواك؛ فيجب أن تضيع! بالطبع لم تُخطيء التهجئة، فإن المفارقة المأساوية تكمُن في اكتشافك ذاتك وأنت في التِّيه.

٢٦- التفكير المستقيم هو آلة المعرفة السليمة. والتصوّر هو حاصل تلك المعرفة. وتماهي هذا التصوّر مع الوجود المادّي هو ما يصنع الأيديولوجيا بتحجُّرها.

٢٧- يقول المفكّر والفيلسوف الراحل علي عزت بيغوفيتش رحمه الله؛ إن ثمَّة أناسٍ يلتهمون الكتب التهامًا - كالحمار يحملُ أسفارًا- لكنَّهم لا يُفيدون مما قرأوه البتة. وقد ميَّز علي شريعتي - في نفس السياق - بين التحصيل والإدراك. فليس كلُّ مُحصّلٍ للعلم، بمُدرِكٍ. فالإدراكُ مرتبةٌ لا يصل إليها إلا القلَّة. وصدق الرسول ﷺ حين أمرنا: *بلِّغوا عنِّي ولو آية، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع*[1].

٢٨- فرقٌ كبيرٌ بين مراتب: المعرفة، والإدراك، والتذوُّق. فالأولى يقدر على تحصيلها كُلُّ أحدٍ إذا توفرت له الفرصة. والثاني موهبةٌ خاصَّةٌ، تستلزم جهدًا ذاتيًّا لا يقدر عليه أغلب بني البشر. أما الثالث فهو منحةٌ إلهية لخواصِّ الخواصّ. وسبحان من علم ذلك من خلقه، فجعل مُجرَّد المعرفة؛ مناطًا للتكليف المُلزم الذي يتساوى فيه بنو الإنسان. واقتضت حكمتُهُ أن تنفر طائفةٌ محدودةٌ من كلّ فرقة للقيام بفرض الإدراك[2]. وكانت عطيّتهُ للمُحسنين من عباده هي إعلان حُبِّه لهم، فهم قد عرفوا ضعف الناس، فكظموا غيظهم، وأدركوا ما أعدَّه الله؛

(١) الشق الأول أخرجه البخاري: (٣٤٦١)، عن عبد الله بن عمرو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».
وأخرج البخاري الشق الثاني من الحديث: (١٧٤١)، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه أن النبي ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

(٢) قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فعفوا عمَّن أساء لهم من خلقه، وذاقوا حُبَّه ﷻ نتيجة إحسانهم لمن أساء إلى ذواتهم[1].

٢٩- إن الحقائق الكُبرى لا تُدرَك، بل تُتَذوَّق بحسِّ الفنان.

٣٠- رُوِيَ في الأثر أن الناس ثلاثةٌ: عالمٌ، ومتعلمٌ، وهمجٌ! والهمج في النار، فانظر إلى أيهم تنتمي!

٣١- إسلاميّة الدولة لا تُفرض بسُلطة القانون الفوقيَّة، بل بقوَّة تمسُّك سُكّانها بدينهم. وإذا كان بعض المصريين المهزومين يهاجمون المادة الثانية من الدستور المصري؛ والتي تقضي بأن دين الدولة هو الإسلام، فكيف يُمكن التنظير لفقهٍ سياسيٍّ إسلاميٍّ في هذه المباءة؟! إنه لن يكون فقهًا افتراضيًّا، وإنما اعتباطيًّا! إذ إن إسلاميّة الدولة ليست بنيةً طوباويَّةً ماديَّةً كدولة اليهود، بل هي بنية علاقاتٍ معرفيّةٍ وشعوريّةٍ، ومركب للدعوة إلى الله. توفِّر العدل لرعاياها غير المسلمين كما للمسلمين. الدولة الإسلاميّة ليست هي طوبيا إقبال والمودودي والخميني، ولا هي بالطابور الخامس كالدولة السعوديَّة. الدولة الإسلاميَّة قد تكون هي محاولة علي عزت بيغوفيتش التي أُجهضت. إن مُحاولة التنظير لدولةٍ إسلاميَّةٍ بغير تحقيق الحدّ الأدنى من الإجماع الإنساني على وجهةٍ مُعيَّنة[2]؛ إنما هو هُراءٌ محضٌ. فالإجماع هو الذي سيصنع الكُتلة الحرجة التي ستحمل المجتمع، وتتحرَّك بالدعوة في أرجاء الأرض.

٣٢- إن أشق لحظات الوجود وطأةً على الإنسان هي اغترابه في محيطه المألوف، فثمة ما يفتقدُه، وإن كان - غالبًا - لا يدري كُنهه على وجه التحديد! إنها لحظات تيهٍ عنيفةٌ، وقد كتبت في مثلها:

---

(١) ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

(٢) الوجهة هنا أعني بها الإله. إن اختيار الجماعة البشريّة للإله الذي ستعبُده هو الذي يحُدد شكل الدولة ودورها ووظيفتها.

إحساسٌ بالغربة يَهتِكُ وجداني
إحساسٌ بالغربة يُثقِلُ أجفاني
إحساسٌ بالغربة جَدَّد أحزاني
فتموت الكلمة قبل ولادتها فوق لساني

*****

إحساسٌ ينبُع من أعماق الأعماق
إحساسٌ يملأ دُنياي إلى الآفاق
إحساسٌ يبدو جليًّا في الأحداق
فَيفِرُّ لساني يشكو مرارًا للأشداق

*****

أنبش أيامي، فلا أجد بديلا
و أجوب الزمن لا أملُّ رحيلا
أحلامي احتبست، إلا قليلا
فيا هول الغصَّةُ تُرديني قتيلا

*****

للنار لهيبٌ ... قد أحتمل
للسوط لهيبٌ ... قد أحتمل
للوَجد لهيبٌ ... قد أحتمل
للكلمة تخنقها العَبَراتُ لهيبٌ ... لا
أحتمل

٣٣- قال الأحنف بن قيسٍ: المؤمن بين أربعٍ؛ مؤمنٍ يحسده، ومنافقٍ يبغضه، وكافرٍ يُجاهده، وشيطانٍ يفتنه.

٣٤- نحن دومًا نملك الخيار؛ أن نكون أخيارًا أو أن نكون أشرار. إن خياراتنا هي التي تصنعنا، حتى لو اخترنا ألا نختار!

٣٥- اللهم إنك تعلم نقصي وعجزي، وتعلم تقصيري وضعفي؛ فاجبر اللهم نقصي بإخلاصٍ ترزقنيه، وتعصمني به من أن أشرك بك أو معك أحدًا فيما علمت من أمري.

٣٦- حسناتُ الأبرار سيئات المقرَّبين.

٣٧- إن مسئوليَّة المسلم يُجددها الوعي والإيمان، وليس القدرة والإمكان. فالله لم يجعل كثرة الأتباع والتمكين في الأرض مِقياسًا للحق. إن المسلم مُقتدِرٌ بالله، ولو كان وحيدًا فردًا مُجرّدًا من كُل قوةٍ ماديَّةٍ. إن انتصاره -بقدر الله- مرهونٌ بحُسن استقامته على المنهج، ومدى تحقُّقه في نفسه. ولم يكن انتصار المسلم يومًا مرهونًا بحجم قوَّة الباطل، أو مدى بطشه.

٣٨- تجاهُل الأسباب فسقٌ، والتوكُّل عليها كُفرٌ.

٣٩- يُروى عن الإمام الحسن بن عليٍّ عليهما السلام أنه قال: ليس من الحزم أن يصمت الرجل عند إيراد الحُجَّة، ولكن من الإفك أن ينطق الرجل بالخنا، ويصوّر الكذب في صورة الحق افتخارًا بالكذب وجرأة على الإفك[1].

٤٠- حين يقول لي ربِّي: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[2] أجدني أنتفض وجـلا، وذلك برغم أن الرعد يُسبِّح مأمورًا مقهورًا. لكني حين أُصغي لتسبيح الإنسان الذي كرَّمه ربُّه بالحريَّة والوعي والإرادة مُختارًا عن علم وتصديقٍ، فإنني أسجُدُ عرفانًا بالحكمة الإلهيَّة التي اتخذت بني آدم خُلفاءَ في الأرض، وأسجدت لهم الملائكة. وليست التمتمة باللسان هي التي أعني حين أتحدث عن التسبيح؛ بل هو تسبيح الجوارح كلِّها، وعملها بمُقتضى هذا التسبيح في تقويض الألوهيَّات الزائفة؛ إعمالًا لمُقتضى التوحيد في عالم الشهود.

---

(١) ذكره الجاحظ في المحاسن والأضداد، باب محاسن المفاخرة، ١/ ١٣٣.

(٢) سورة الرعد؛ الآية ١٣.

٤١- إن المعرفة إذا حُبست في إطار الثقافة العقليَّة المجرَّدة كانت عِبئًا على صاحبها ومن ثم على الإنسانيَّة؛ بتبديد طاقتها الذهنيَّة. إن المعرفة الحقَّة (العلم النافع) هي ما انعكس أثره على سلوك الفرد، وحوَّله لطاقةٍ دافعةٍ لحركة المجتمع. إن كلّ معرفة لا ينبني عليها عملٌ صالح، فلا قيمة لها. وصدق القائل: *الإيمان هو ما وقر في القلب، وصدَّقه العمل*[1].

٤٢- القدر لا ينفي مسئوليَّة البشر.

٤٣- تأكد بأنك سترى كل الناس عمالقةً ما دُمت تجلس تحت أقدامهم.

٤٤- رُوِيَ في الأثر أن اللسان عضوٌ؛ فإن مرَّنتهُ مَرن، وإن تركته حَرن.

٤٥- قيل إن أربعةً تولِّد المحبَّة: حُسن البِشر، وبذل البِرّ، وقصد الوفاق، وترك النفاق.

٤٦- قد تكون تجربة الحداثة عقلانيَّةً رشيدةً في سياقاتها الغربيَّة. لكنها - بنفس المعايير الفلسفيَّة الماديَّة - إذا أُخرجت من سياقاتها تحوَّلت لمتاليةٍ إجرائيَّةٍ لا عقلانيَّة. لقد انتبه بعض مفكري عصر النهضة إلى أن العقلانيَّة الغربيَّة تحمل في داخلها بذور اللاعقلانيَّة ما بعد الحداثيَّة. ونشأة الدولة القوميَّة الحديثة، ومشروعها الكولونيالي الكلاسيكي - من نفس المنظور المادي - عقلانيٌّ تمامًا؛ وذلك للتخلُّص من الفائض البشري، وفتح أسواق جديدة للمنتجات التي تحتاج لتصريف، وتأمين مصادر المواد الخام. أما محاولة استنساخ الدولة القوميَّة الحديثة -الناصريَّة مثلا- فإنها -من نفس المنظور المادّي- لاعقلانيّة تمامًا؛ فتدمير بنية الاقتصاد الزراعي المتفوّقة إنتاجيًّا، والتي كانت -رغم كل عيوبها- تكفُل الاكتفاء الذاتي. تدميرها في سبيل بناء صناعة ثقيلة لم تُفد البلد منها بشكلٍ جدّيٍّ، وإدخال الكهرباء إلى الريف، وتفتيت الرُّقعة الزراعيَّة، وتقويض المؤسسات الوسيطة -التي يمكن أن تُساهم في «ضبط» الأداء

(١) لا يصح مرفوعًا إلى النبي ﷺ، ولكن ثبت عن الحسن البصري رحمه الله بلفظ: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، لكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل»، السلسلة الضعيفة ٣/ ٢١٧.

الاجتماعي- بذات الوقت. كُلّ ذلك لا يُمكن إسباغ صفة العقلانيَّة عليه من نفس المنظور المادّي. بل هو فجٌّ في عبثيَّته؛ لأنه لم يُعبِّر عن تطوُّرٍ اجتماعيٍّ حقيقيٍّ كما حدث في الغرب، ولا أثمر حتى مِعشار ما أثمره في أوروبا. الملمح اللاعقلاني الثاني هو الاستنساخ الناصري للنمط السياسي للدولة القوميَّة الحديثة؛ بالتدخُّل في شئون الدول الأخرى سياسيًّا وعسكريًّا، كاليمن والكونغو. وهذا الاستنساخ للدولة المطلقة التي استعمرت الداخل، وأرسلت جيوشها لاستعمار الخارج يبدو عبثيًّا في السياق الناصري؛ لأن الدولة الناصريَّة لم تكُن مُنتجةً لأيِّ شيءٍ تحرص على تصديره - حاشا الجعجعة الإعلاميَّة بالطبع!- لقد كانت تجليَّات الوعي الناصري الكامن بتركيبة الدولة المطلقة ودورها؛ عبثيَّةً بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. إلا لو اعتبرنا التعاون مع المخابرات الأمريكية سلعة تُباع وتُشترى، وتُفتَح لها الأسواق!

٤٧- برغم أن الحداثة الغربيَّة هي مُجرَّد حزمةٍ، أو متتاليةٌ إجرائيَّةٌ تاريخانيَّةٌ لا قداسة لها، إلا أن الحداثيين العرب -الذين يُحاولون عبثًا التفلُّت من المُقدَّس!- يُسبغون القداسة على الحداثة باعتبارها «مُنتجًا» نهائيًّا، ووثنًا جديدًا يُقرِّبون له القرابين بدلًا من المُقدَّس «التقليدي» الذي تفلَّتوا منه!

٤٨- أحد التجليَّات العبثيَّة لاستنساخ تجربة الحداثة الغربيَّة في مجتمعاتنا هي تفشِّي زراعة الفواكه وما أُسميّه بـ «محاصيل الرفاه»، في مُقابل تقلُّص زراعة القمح والأرز والذرة والقطن. ويتم ذلك في إطار ما يُسمَّى بتقسيم العمل الدولي داخل النظام الرأسمالي اللعين؛ فنحن نزرع تلك المحصولات للغرب في نظير أن يُطعمنا! الكارثة أن حتى هذه الفواكه ومحاصيل الرفاه ترتفع أسعارها بشكلٍ جنونيٍّ نتيجةً لسياسة التصدير الجائر، ومن ثم لا يعود أمام الإنسان سوى أن يبحث عن طعامه في القمامة؛ بعد أن أصبح الاكتفاء الذاتي أسطورةً رجعيَّةً!

٤٩- في رواية «اللص والكلاب»، التي نُشرت عام (١٩٦١م)، تتجلى عبقريَّة نجيب محفوظ؛ ليس كأديب مُرهف ذي قلم سيَّال فحسب، بل كمؤرخ اجتماعيّ عبقريّ؛ تنفُذ بصيرته إلى عُمق الأحداث بيُسرٍ. فهذه الرواية تُعتبر معلمًا بارزًا على

طريق التشخيص المُبكِّر لأزمة المُجتمع المصري؛ الأزمة التي أدت إلى هزيمة عام (١٩٦٧م). تلك الأزمة التي فرضت نفسها على كتابات محفوظ ردحًا من الزمن، وبلغت ذروتها في كتاباته برواية «ثرثرة فوق النيل»، التي نُشرت عام (١٩٦٦م)؛ حيثُ يُنفق «أبطالها» ما بعد الحداثيين أوقاتهم في ثرثرةٍ جوفاء مُتلفعةٍ بأدخنة المُخدِّرات في انتظار «غودو» الذي لا يجيء أبدًا، وبدلًا منه تحلُّ الهزيمة الصاعقة! إنه إن اعتبر البعض رواية توفيق الحكيم «عودة الروح»، المنشورة عام (١٩٣٣م)؛ تنبؤًا مُبكِّرًا بـ"الثورة» التي كانت تعتمل في أحشاء مصر، فإن «اللص والكلاب» كانت الإنذار المُبكِّر بتقويض هذه «الثورة» وتفكيكها، واستيلاء المُرتزقة عليها.

٥٠- يقول السنهوري رحمه الله: «إن الديكتاتور هو الرجل الذي يُتيح له الحظ أن يُنشئ ويجمع ويدّخر أقواتًا كثيرة؛ تُمكِّنُهُ من ارتكاب أخطاءٍ كبيرةٍ دون أن ينكشف»! وتساؤلي: أهو «الحظ»؟ أم أنّهُ استخفَّ قومه؛ فأطاعوه بما كانوا يفسقون[١]؟!

٥١- ليست الرغبة الجنسيّة اختراعًا، وإنما هي اكتشاف الحاذق! فالزوج المُحنّك هو الذي يستطيع الكشف عن مكامن هذه الرغبة، فيُحسن استغلالها و تلبيتها؛ تنميةً للمودَّة.

٥٢- التقيَّة رُخصةٌ، والإفصاح بالحق فضيلةٌ. الأولى لأهل البقاء، والثانيَة مَزِيَّةُ أهل الفداء.

٥٣- الحُبُّ يولد جنينًا هش التكوين، فإن لم نتعهَّده بالرعاية والغذاء؛ تحطَّم على مذبح الأنانيَّة والتمركُز حول الذات.

٥٤- ليس الحُبُّ ألّا ترى أو تشتهي إلا سواها؛ لكنَّهُ ألّا تسكُن إلا إليها.

٥٥- الحُبُّ كالموت؛ تسمعُ عنه لكنك لا تخبره إلا بعد أن يفترسك! وإذا كان الموت طريقًا لا رجعة فيه، فإن الحُبَّ طريقٌ ذو اتجاهين، وإن كُنت تعود منه مُثخنًا.

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وإن لم يكُن بمقدور أحدٍ أن يُنبئنا عن ماهية الموت، فإنهُ ليس بمقدور من خلص من براثن الحُبِّ أن يُنبئنا كيف هو! فناهيك عن كونها تجربةً مُغرقةً في الذاتيَّة حد القداسة، إلا أنه ليس بمقدور المُثخن أن يصف لك بهاء من أسال دمهُ!

٥٦- إن الحُريَّة تقتضي الوجود المُسبق للألوهيَّة؛ فلا يُمكن أن يوجد الإنسان الحُرُّ -كما يؤكد علي عزت بيغوفيتش- إذا لم يوجد الإله الواحد القادر العليُّ. فالله ﷻ هو وحده القادر على أن يخلق إنسانًا حُرًّا مسئولًا، ويدعه لاختياراته، وإن خالفت المحبوب الإلهيَّ. أما الآلهة المُزيَّفة فإنها لا تستطيع ذلك، فهي تغار من «بروميثيوس» وتُصارعه بنديَّةٍ حمقاء، بل وتحقد عليه لسرقته نار المعرفة المُقدَّسة! لكنّ الله ﷻ وتعالى يُدشِّن حياة آدم بالمعرفة، فيُعلِّمه الأسماء كُلَّها؛ لتظلَّ هذه المنحة الإلهيّة جوهر وعصب المهمَّة الموكلة لبني آدم في الحياة الدنيا. تلك المنحة التي أكّدها المولى سُبحانه في آخر اتصال مُباشر مع الإنسان، فكان أوّل ما تلقَّاه المصطفى ﷺ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[1]. فالمعرفة في الإسلام هي أصلاً باسم الله؛ لخلافته سُبحانه في أرضه.

٥٧- من الخطأ والخطر أن نُسقِط منطقنا الخاص على الأشخاص، ولا نتعاطى مع كُلّ موجود بمنطقه المتفرِّد. فناهيك عن كونه إمعانٌ في التمركُز حول الذات، ومن ثم سقوط في الشرك بإنكار التمايُز المُعجز؛ فهو سبب سوء فهمنا للآخرين، وعجزنا عن التعامُل معهم باعتبارهم ذواتًا خاصَّةً مُتفردةً.

٥٨- قد يتغيَّر السلوك الشخصي للإنسان لكنّ منطقه الذاتي كبصمته الجينيَّة؛ أبدًا لا يتغيَّر. إن المُنحنى الشخصي هو روح الإنسان، ولا يُمكن تغييره غالبًا إلا بمحو الشخص نفسه من الوجود!

٥٩- لا تعني خصوصيَّة المنطق الفردي افتقاد الإنسانيَّة لفطرةٍ مشتركةٍ تجمعها، وميزان مرجعي تثوب إليه. كما أن الخصائص المشتركة لا تلغي التفرُّد في الرؤية، والتمايُز في الفهم، والعُمق في التناول؛ إلا بين قُطعان الأغنام!

---

(١) سورة العلق؛ الآية ١.

٦٠- شوَّهت الفرق الضالَّة مفاهيم الإسلام في أذهان أبنائه. وأكثر هذه المفاهيم المشوَّهة خطرًا على روح الأمَّة وحركتها، هو: تقديم الإسلام باعتباره استسلامًا جبريًّا للأقدار، وليس تسليمًا اختياريًّا واعيًا للمشيئة القاهرة ... وشتَّان!

٦١- المعرفة مسئوليَّةٌ ضخمةٌ. لذا، فهي غالبًا ما تكون «مؤذية» للمثقَّف المُلتزم بقضايا مُجتمعه. فعلى المستوى النفسي هي عبءٌ أشفقت منه الجبال! وعلى المستوى الاجتماعي فإنها تستلزم الاصطدام بالمجتمع الغافل، وهو ما لا يُطيقه إلا أولو العزم من الرُّسُل وورثوهم. ولا أجد أصدق من بيت المتنبِّي مُعبِّرًا عن مُعاناة المُثقَّف الملتزم:

ذو العقلِ يشقى في النعيمِ بعقلِهِ   وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ يَنعَمُ

٦٢- قال الحسنُ بن عليٍّ عليهما السلام: إن كُنت كُلَّما رأيت قبيحًا تركت لهُ حسنًا؛ أسرع ذلك في دينك[1]!

٦٣- قد تُحقق بعض «المكاسب» الوقتيَّة أو الإجرائيَّة، لكنَّ الأنثى تخسر كثيرًا بتحدِّيها الذَّكر. إنها تفقد خصائصها المُميِّزة إذا ما حاولت التسابُق مع الذكر على أرضيَّته وفي ميدانه. إن بعض الإناث تدفعهُن شهوة الانتصار المؤقت للتصارُع مع الذكر، والتغلُّب عليه في أحيانٍ كثيرةٍ؛ ليُمسَخن! إن الثمن الذي تدفعه الأنثى في هذا الصراع السخيف هو تحوُّلها لجنس ثالث ... على الأقلِّ نفسيًّا. هذا الجنس الممسوخ هو المسمار الأوَّل في نعش أيِّ مجتمع.

٦٤- العلاقة الإنسانيَّة، أيًّا كان نوعها أو عُمقها؛ لا تُعطينا حقَّ نبش ماضي الطرف الآخر. فالماضي كتابٌ مُغلقٌ لهُ حُرمةٌ لا يصحُّ انتهاكها بحالٍ. وحتى صاحب هذا الماضي، فإن لهُ شركاءَ ساهموا معهُ في صُنعه، فهو ليس ملكًا له وحدهُ بل هو ملكيَّةٌ مُشتركة مع آخرين؛ ومن ثمَّ فالأفضل أن يظلَّ خزينة مُقفلة ما دام الشركاءُ لم يأذنوا بفتحها.

---

(١) وتنسب للحسن البصري؛ الجاحظ في البيان والتبيين، ٢/ ٥٢.

٦٥- يُذكِّرني التنويريُّون في بلادنا بقيصر روسيا المقبور: بطرس الأكبر؛ الذي كان في شبابه مُبتعثًا للدراسة في هولندا التي بهرتْهُ بنظافتها ورقيِّها، وجعلتهُ يحزن على «خراب» روسيا و«انحطاطها». وبعد أن قدح الرجل زناد عبقريَّته؛ توصَّل إلى أن سبب ثروة هولندا و«تحضُّرها» يكمُن في كون رجالها مُنظّمين وذوي شخصيَّاتٍ مرموقة؛ لأنهم يحلقون لحاهُم بالموسى كُلَّ صباحٍ! على العكس من شعبه؛ الذي تسببت لحاه الكثَّة المُدلاة في «تدهور» أحواله! وما أن استوى على العرش حتَّى أمر باجتثاث اللحى الخائنة، عدوَّة الأمَّة الروسيَّة؛ وراح جنوده يُلاحقون الملتحين بمُعدَّات الحلاقين! لقد كانت روسيا تطمع بالقفز لمصاف الدول الصناعيّة الغنيّة في أوروبا الغربيَّة[1]، فكانت النتيجة الواقعيَّة التي تحققت هي: تضخُّم أرباح الشركة الهولنديَّة المُنتجة لشفرات الحلاقة!

ولا يختلف ذلك كثيرًا عمّا فعله الأحمقان: مصطفى كمال في تركيا، ورضا خان في إيران، ومن قبلهما الخديو إسماعيل في مصر.

٦٦- أيها الإنسان الطامع بالحكمة، الراني إليها بوَلهِ الدرويش؛ هل تعلم أنك تطلُب الفناء، وتقضي على بهجة الجهل بالشقاء؟!

٦٧- إن نقيض الحُب ليس الكراهية؛ بل التجاهُل واللامبالاة. فإذا كُنت تكرهني، فإن ذلك يعني أنك لا زلت تعبأ بي وبأثري في صيرورتك. لذا فما أسهل أن تتحوَّل الكراهية إلى حُبٍّ، والعكس صحيحٌ.

٦٨- النجاح مُعلِّمٌ مُخادعٌ؛ فهو يُغوي الإنسان بالاعتقاد باستحالة الفشل.

٦٩- هناك نوعٌ من البشر كالشموس؛ يُشع نورًا ودفئًا فيما حوله ومن حوله. لكنَّ الاقتراب منه يجب أن يكون محسوبًا بدقَّةٍ؛ تجنُّبًا للاحتراق.

(١) بغير وعيٍ بالسياق التاريخي والاجتماعي، وبحقيقة التراكم الإمبريالي الذي حققته هذه الدول على جُثث مستعمراتها.

٧٠- إذا فقدت الثروة، فإنك لم تفقد شيئًا. وإذا فقدت الصحَّة، فقد فقدت شيئًا. أما إذا فقدت نفسك، فقد فقدت كُلَّ شيءٍ.

٧١- إن العدالة الاجتماعيَّة في الإسلام لا تستهدف خلق طوبيا لا طبقيَّة، فهذا مُستحيلٌ عمليًّا، فضلًا عن تعارُضه مع التكليف. وإنما يكمُن هدفها في القضاء على الإحساس بالفقر وعلى معالم التمايُز الطبقي، وذلك بتكريس التكافُل كتكامُل في إطار نمطٍ من الاعتدال والبُعد عن البذخ والسرف والتفاخُر بالاستهلاك. إن حقّ الله الذي يؤخذ من أغنيائنا ليُردَّ على فقرائنا يُعضِّد المساواة التامّة على أساس العبوديَّة لله. في هذا المُجتمع قد يوجد الفقر، لكن بغير أن يصحبه ذُلٌّ. وقد يوجد التفاوت الطبقي، لكن بغير أن يصحبه تمايُزٌ في الحقوق ذات الطبيعة «القانونيَّة».

٧٢- ليس لتنظيم وتهذيب مصارف شهوة الإنسان علاقةٌ بما يُسمَّى بالكبت؛ الذي هو إنكارٌ تامٌ لهذه الرغبات. فالصراع الأخلاقي الجوَّاني بين ما يحلُّ وما لا يحلُّ؛ هو ضرورةٌ إنسانيَّةٌ صحيَّةٌ، فمن خلاله تتحقَّق الذات الإنسانيّة. وقد يكون ارتكاب المُحرَّمُ -لا الحرمان- سببًا في احتدام الصراع، وتأزُّم الإنسان بين ما يعتقد وما يفعل!

٧٣- أحيانًا تكون رغبة الآباء في الفخر بأبنائهم أقوى من رغبتهم في رؤيتهم فخورين بأنفسهم. وهي أنانيةٌ فظيعةٌ تطمس شخوص الأبناء تمامًا، وتحوّلها لأداة مُتشيئة لا إرادة لها؛ لينحصر دورها في تحقيق لذَّة التفاخُر للوليِّ المريض!

٧٤- ما بين سعة الأفق وضيقه؛ شعرةٌ دقيقةٌ. فسعة الأفق دليل ثقتك بما تعتقد، وعظيم إيمانك بما تسعى إليه. أما ضيقُ الأفق فحالان: أحدهما ينمُّ عن إطباق جهلٍ تخشى افتضاحه، والآخر كون إبليس قد أثناك عمَّا كنت تبتغي، فانصرفت غير آسفٍ ولا آيس ولا مأجورٍ!

٧٥- الماضي لا يموت، لكنه يخبو قلقًا في الصدور يتحيَّن الفُرصة للقفز إلى صدارة الأحداث؛ والتوهُّج. فإن أنت منحته فرصةً للبروز كتجربةٍ تاريخيَّةٍ تُلتَمَسُ

منها العبرة المخلصة؛ قطعت عليه طريق تَسلُّطه على واقعك كمرجعيّةٍ ماديّةٍ حاكمة. إن قيمة الفعل لا تُستمدُّ من تاريخيَّته -فلا قداسة للتاريخ- بل من مصدره ومرجعيّته. فالمصدر فوق الحدث، والمنهج مُهيمنٌ على التاريخ، والنمط هو المحك، وإلا سقطنا في هوَّة الحلول بتقديس التاريخ.

٧٦- عجيبٌ أمر هذا الإنسان، فما أن يتعلَّم الحكمة ويعرف طريقها؛ حتى يكون العُمر قد انقضى، وخياراته قد تحددت. ولو أنصف بنو آدم لأدركوا أن الحكيم من ينتفع بمن سبقه، وينفع من لحقه. فلو كان قادرًا على نفع نفسه لما كان إنسانًا. إن الحكمة لا تتأتى إلا بالتجربة، والتجربة تلتهم العُمر مُخلِّفة ندوبًا غائرة في الروح. لكنّها تورث راحةً لا يُدركها الكثيرون، ولعلَّها راحةُ اليأس المُكللِ بالإدراك.

٧٧- إن قيمة الأدب لا تكمُن في لُغة السرد أو سلاسته أو واقعيّته - مع أهميّة ذلك كُلّه - بقدر ما تتمثَّل في دفع الإنسان لإمعان النظر في باطنه، في صيرورته وفي نهايته. إنه ليس دور الأدب تسجيل الماضي للتقوقع فيه بل في استخدام نفس الماضي لاستشراف المستقبل، وتجاوز الواقع مهما كان ثقله.

٧٨- التاريخ لا يُعيد نفسه إلا في حسِّ الجُهَّال. قد تتشابه بعض جوانب التجربة، أو الظروف المُحيطة بها مع غيرها. لكنَّ الإنسان نفسه لا يقرُّ له قرارٌ، فهو يتقلَّب بين الحكمة والرعونة، ويتبدَّل قوَّةً وضعفًا. ولن يكون هو ذاته نفس الشخص إن مرَّ بتجربةٍ مُشابهةٍ. ولن تكون استجاباته عينها، ولو تشابهت المؤثرات. ومن ثمَّ، فلن يوجد الإنسان الذي يخوض تجربةً ما مرَّتين! وأنا هُنا أتحدَّث عن الإنسان الربَّاني، أو الإنسان الإنسان بحسب اصطلاح أستاذنا المسيري رحمه الله. أما الإنسان الشيء، أو الإنسان ذو البُعد الواحد -كما سمَّاه هربرت ماركوز- والذي تم ترشيده ظاهرًا وباطنًا، للتنبؤ بسلوكه وردود أفعاله - ككلب بافلوف - فليس محورًا لاهتمامي! سيظلُّ الإنسان الربَّاني مُحيطًا لا يُسبر غوره، وكونًا قوامه التركيب. وسيظلُّ مُستقبله غامضًا محفوفًا بالأسرار، لا يُمكن التنبؤ به في ضوء تاريخه، وإن أمكن فهم بعض مُعطيات شخصيَّته من خلال قراءة هذا التاريخ.

٧٩- من قال إن الإنسان لا يختار ميتته؟! إننا نختار الميتة حين نختار نوع الحياة. نختار الطريق، ونقطعه لنهايته. وقوله ﷻ في سورة لقمان: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1]، يؤكد ذلك؛ لأن الدراية هي العلم المُسبَق. قد تجهل المكان على وجه التحديد؛ لكن خيارك يسوقك إليه في ثبات.

٨٠- إذا كان الشك طريقًا أحد طرفيه اليقين، فالطرف الآخر ليس سوى التيه حتمًا، فانظر أيهما خلَّفت وراءك، وأيهما تقصد.

٨١- إن كان اليأس إحدى الراحتين، فشقاء الأمل هو ما يجعل لحياتنا معنًى.

٨٢- لا يفوق كراهيتي لتغييب وعي الإنسان إلا حُزني على جهله، واستسلامه لما يُفعل به. والغثيان الذي يولِّده مرأى العبيد يحتفلون بـ «نصرٍ» كُرَويٍّ لا يخفف وطأته إلا دموعٌ حارقةٌ تنثال من أعماق الروح المجروح، لتزيد الوعىَ توهُّجًا ومضاءً، وتفاقِم مأساتي!

٨٣- ليست العلاقة الجنسيَّة سببًا صلبًا مُجرَّدًا للسعادة؛ لكنها مُكمِّلٌ بشريٌّ/ طينيٌّ في ظل العلاقة الروحيَّة.

٨٤- كتب العلاّمة السنهوري رحمه الله في مذكراته قبل هزيمة عبدالناصر بأسبوع (٢٩ مايو ١٩٦٧م): ما رأيت أنكى من أن يتصدى للدفاع عن الحق؛ رجلٌ قام على الباطل.

٨٥- تبدأ الحركة الإنسانية بالمكابدة الشعورية الجوَّانيَّة. فإذا سبقها النشاط الحسّي، فاعلم أنها إلى زوالٍ قريب.

٨٦- السعادةُ كالدفء؛ إحساسٌ داخليٌّ ينبع من الإنسان ذاته. ومن يحاول استمدادها من خارجه، من الأشياء أو من الأشخاص المحيطين به؛ فلا يلبث أن يشقى.

---

(١) سورة لقمان؛ الآية ٣٤.

٨٧- التوق إلي العشق؛ عشقٌ ... مؤجل!

٨٨- الإنسان قطعًا لا يرى الحقيقة نفسها، ولا حتى ظاهرها. فحدود قدرته هي رؤية جزءٍ من هذا الظاهر، وغالبًا ما يرى الجزء الذي يرغب في رؤيته؛ المنسجِم مع ميوله وأهوائه. ولهذه الخصيصة سلبيات وإيجابيات، لكن إيجابياتها لا تظهر بوضوح إلا في حال الألق الفكري الذي يمتاز به نُخبة المفكرين.

٨٩- أن تتذكر الرزاق، وأنت جائع؛ هو ما يحدث غالبًا. أما أن تتذكر المنعِم الذي أشبعك، فأمرٌ نادرٌ؛ فقليلٌ من عباده الشكور. إذا طعمت فقُل: الحمد لله الذي منَّ علي بتجلِي جوده من فيض خزائنه. الحمد لله الذي أطعمني، وسقاني بغير حولٍ مني ولا قوة. اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله.

٩٠- القراءة في جوهرها عملية إعادة تأليف لما نقرأ، وهو ما يجعلها تعتمد كُليَّةً على الخريطة الإدراكية للقارئ، وعلى النموذج الكامن في لا وعيه. وقد كان جِبران خليل جِبران يرى أننا لا نكتسب معارفنا في هذا العالم، بل إن تجاربنا الحياتيَّة تدفع فطرتنا لتتفتَّق عن المعرفة المغروسة فيها مُنذ بدء الخلق. ولهذا يُمكنني الجزم بأن أعمال نجيب محفوظ الروائية -حتى التفكيكية منها- قد شحذت إيماني، ورسّخت عُمقه العرفاني.

٩١- ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]. لا يمكن فهم هذه الآية إلا بفهم قوله ﷻ وتعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[2]. فالخلل المنهجي والمعرفي والشعوري الذي هو سمت أكثر أهل الأرض؛ هو المؤدي للضلال. يؤمن أحدهم أن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين، فإذا ابتُلِيَ في رزقه تراه يصرُخ هلِعًا: فلانٌ يسعى لقطع رزقي! فأين توحيدك يا هذا؟! كيف يقطع أو يمنع من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا؟! إن جملةً بسيطةً كهذه قد انتقلت بتصوُّره من صفاء التوحيد

(١) سورة الأنعام؛ الآية ١١٦.

(٢) سورة يوسف؛ الآية ١٠٦.

إلى درك الشرك بغير أن يُلقي لها بالًا. ربَّما لهذا عرَّف رب العزة المهتدين الصابرين في سياق الابتلاء، بأنهم هم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]. فالإصرار على «القول» لأنه أول ما ينفث به الإنسان عن كربه، فإن ملكت لسانك ملكت ميزانك، وحفظت دينك.

٩٢- الحُزن طاقةٌ لا تَفنى ولا تُستَحدث. إنه روح الوجود الإنسانيّ؛ ميراث آدم منذ عصى الله أول مرَّةٍ وأكل من الشجرة. فنحن لم نرث خطيئته، ولكن ورثنا حُزنه. ورثنا ندمه عائدًا، وألمه آيبًا. إنه المصير الأزلي لبني آدم: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾[2]. إن السعادة والراحة هما الاستثناء، أما القاعدة فهي المعاناة. وكما يقول أستاذنا علي عزت بيغوفيتش، فإن صراخ الطفل وشدَّة بكائه لحظة ميلاده؛ يكشف لنا طبيعة الحياة المفترض به أن يحياها!

إن الرضا الذي لا يذوقه إلا المؤمن، لهو الملجأ والملاذ لبني آدم. إنه خيارهم. إن رضوا فلهم الرضا، وإن سخطوا فعليهم من الله السخط.

٩٣- أوقفني في الأعمال وقال لي: إنما أظهرتُك لتثبُت بصفتي لصفتك، فأنت لا تثبت لصفتي، إنما تثبت بصفتي، وأنت تثبت لصفاتك، ولا تثبت بصفاتك. (من مواقف سيدي ابن عبدالجبار النفري رضي الله عنه).

أي أنك لا تنفع ذاتك بذاتك وإنما بمدد قيُّوميَّته تبارك وتعالى، مع أنك لا تنفعه أو تضُرُّه سُبحانه، لكنَّك عبدُ إحسانه في طلبك النفع لذاتك، تلك الذات التي لا وجود لها بغير حفظه تبارك وتعالى.

٩٤- أحيانًا نألم ونعجز عن الكلام، وليس ذلك إلا لأن الإفصاح فعل تعرٍّ، فهو بطبيعته ليس مُمارسةً جماهيريَّةً يمكن اقترافها بمحضر كل أحدٍ. إن الأصل ألا

---

(١) سورة البقرة؛ الآية ١٥٦.

(٢) سورة البلد؛ الآية ٤.
ورُبَّما لهذا السبب أُبغض الاحتفالات وموسيقاها الصاخبة التي تزيدني اغترابًا، وأُحبّ المآتم لأنها تُسبغُ على روحي سكونًا إنسانيًّا غامرًا؛ سكون اليقين.

تتعرى لمن يتعرَّى لك، تطبيقًا للقاعدة القرآنية: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[1]. فالإنسان يلجأ لمشورة شيخه أو مُعلمه، وليس لتلميذه -ولو كان نابغةً- وذلك حفظًا للهيبة. ولا استثناء لهذه القاعدة إلا في حالاتٍ محدودةٍ كما يكون بين الأنداد -ولو كان بعضُهم لبعضٍ مريدًا- أو بين الرجل وزوجه.

٩٥- إنا لا نجد في أعمالنا سوى أنفسنا؛ عارية بغير تزيينٍ ولا رتوشٍ. فعملك هو نزوعٌ شخصيٌّ؛ تحكمه أو يحكمك. وذلك راجعٌ لطبيعة شخصيتك، وقدرتك على قيادها أو الانقياد لها. ومدى سيطرة أشواقك على منازعك؛ سواءٌ كانت معلنةً أم مكبوتةً، يوجهها عقلك الباطن أو ذلك الواعِي. فسبحان مَن اقتضت حكمته وعدله أن تكون أعمالنا مرايا وجوديةً صدّيقة! سواءٌ في لحظات ارتكاسنا وإخلادنا إلى حمأة الجبلَّة الطينية، أو في لحظات تسامينا بالمعرفة تليها الرؤية. إننا في سعينا الحثيث لإحداث اتزان عنصريّ تكويننا؛ نحقق هدف وجودنا الأسمى. فتأمل كيف وجودنا محض صراعٍ لإزالة تَدَرُّن صورتنا وأوشابها من صفحات صحيفةٍ إلهيَّة؛ نرجو أن نلقاها بأيماننا[2] مكرّمين.

٩٦- قال الطاغوت الحجاج بن يوسف الثقفي عليه من الله ما يستحقُّ: إن امرءًا ذهبت ساعةٌ من عمره في غير ما خلق له، لخليقٌ أن تطول عليها حسرته.

٩٧- لو أردت استخلاص منهجٍ لحياتي، لما وجدْت أكثر دقَّةٍ من أبياتٍ للمتنبّي يقول فيها:

إذا غامرت في شــرفٍ مرومِ ... فلا تقنع بما دون النجـــــومِ
فطعم الموت في أمرٍ حقـــيرٍ ... كطعم المــوت في أمرٍ عظيمِ

(١) سورة يوسف؛ الآية ٧٦.

(٢) جمع أيمان وهى اليمين.

٩٨- يُروَى عن سيدنا عبدالله بن مسعود ﷺ أَنَّهُ قال: اطلب قلبك في ثلاثة مواطن؛ عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة. فإن لم تجده في هذه المواطن؛ فاسأل الله أن يمُنَّ عليك بقلبٍ، فإنه لا قلب لك.

٩٩- عن مولانا الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام أَنَّهُ قال: الناس عبيدُ الدنيا، والدين لعقٌ بأطراف ألسنتهم يحوطونه ما دُرَّت به معائشهم، فإذا محصوا بالبلاء؛ قلّ الديانون[١].

١٠٠- كلٌّ مُيَسّر لما خُلق له؛ فمن خُلق ليزحف لا يستطيع أن يطير، لكنه يستطيع أن يكون أفضل الزاحفين.

١٠١- الموت نهاية الحادث، ومن سُنن الوجود أنّا نحرث أجداث الأجداد، لنغرس أقوات الأحفاد. إن الإنسان مُستأمنٌ؛ لا يحقُّ له تنمية وديعته إلا آكلًا بالمعروف حتى يُبعث أمينٌ جديدٌ. فعجبًا لخازنٍ يتبجح بقولة قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[٢]. ظانًّا أنما أوتي ما لم يؤتَ العالمون؛ لمكانةٍ تفرَّد بها كاذبًا. مُتناسيًا صيرورته جدثًا يُحرث وماءً يُشرب، بعدما جرى في موضع البول مرتين.

١٠٢- ووجدت أن الحبَّ ليس سوى علّةٍ متوطنةٍ! فأيُّما روحٍ إلا تغشّاها برقّةٍ ونعومةٍ خادعة حتى تلين لوطأته وتطمئن لمساكنته، ثم إذا هو قد كشّر عن أنياب طاغوتٍ لا يرتضي بتوطيد أركان سلطانه وتثبيت دعائم هيلمانه بديلا، مُرددًا قولة فرعون بلساني الحال والمقال في آنٍ جميعا: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٣]. غير عابئٍ بعوائقٍ أو عواقب. فإن أدركته رقّةٌ لحال من افتقد أليفه، أو حِيل بينهما؛ تعلل مُتخابثًا بقولة إبليس: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب، ٦/ ٢٦١٣.

(٢) سورة القصص؛ الآية ٧٨.

(٣) سورة غافر؛ الآية ٢٩.

﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾[1]، فما عَجِبتُ بعدها من قُدرةِ تلك العاطفة على إنزالِ أفدح الهزائم بأعتى الخلق.

١٠٣- إن الرحمة لا تلد سوى الرحمة، والتفهُّم لا يجلِبُ سوى الراحة، والحدب لا يُهديك إلا نفسه ولو تعددت المظاهر، فالباطن واحدٌ. إن هذا الجنس الشقي بما يستعبده لفي أشدِّ الحاجة ليدٍ حانيةٍ حاسمةٍ؛ تمسح على جروحه التي لا يراها، و إن كان يتلظى بألمها. صلى الله على مظهر رحمته، وعلى آله وصحبه وعترته.

١٠٤- اللهم إنك تعلم عجزنا عن حمدك بما يوافي بعض ما أسبغت علينا من فضلك؛ فاجعل مما تعلم شفيعًا لنا عندك مما يجب لك سبحانك.

١٠٥- اللهم إني أحمدك حمد من شرحت صدره ويسَّرت أمره وحللت عُقدة لسانه؛ لتُنطقه بالحقّ وتقبله منه وتُثقِل بهِ ميزانهُ، لتحشُرهُ خادمًا لنبيك وآله.

١٠٦- من حِكَم نجيب محفوظ العميقة، والمبثوثة في ثنايا رواياته:

- لا ينصلح حالُ قومٍ إلا إذا آمنوا أن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة.
- إن خرجنا سالمين فبرحمته، وإن خرجنا هالكين فهو العدل.
- ما بين كشف النقاب عن وجه العروس وإسداله على جثتها، لحظةٌ مثل خفقة قلبٍ.
- جاءني قومٌ وقالوا إنهم قرروا التوقف حتى يعرفوا معنى الحياة، فقلتُ لهم تحركوا دون إبطاء، فالمعنى كامنٌ في الحركة.
- كُتِبَ على الإنسان أن يسير مُترنحًا بين اللذة والألم.
- الحمد لله الذي أنقذنا وجوده من العبث في الدنيا، ومن الفناء في الآخرة.
- ما نكادُ نفرغ من إعداد المنزل، حتى يترامى إلينا لحن الرحيل.
- سيظلُّ الأملُ حيًّا ما دُمنا نُعجب بالأقوال الجميلة، ولو لم نعمل بها!
- الكمال حُلمٌ يعيش في الخيال، ولو تحقق في الوجود ما طابت الحياة لحيٍّ.

(١) سورة إبراهيم؛ الآية ٢٢.

- كما تُحِبُّ تكون.
- علامة الكفر الضجر.

١٠٧- يقول سفيانٌ الثوريُّ: ليس للشيطان سلاحٌ مثل خوف الفقر؛ فإذا قُبِلَ منه أخذ في الباطل، ومُنِعَ من الحق، وتكلّمَ بالهوى، وظنّ بربِّهِ ظن السوء.

١٠٨- من دعاءٍ لأعرابيّ: اللهم إني أعوذ بك من سقمٍ وعدواه، وذي رحمٍ ودعواه، ومن فاجرٍ وجدواه، ومن عملٍ لا ترضاه.

١٠٩- يقول السنهوري رحمه الله: إن القانون لا يوجد إلا في تنظيم العلاقات فيما بين متكافئين؛ قوةً أو ضعفًا، أما حيث يتفاوتان، فالقانون هو القوة! (وجليٌّ أن الحديث هُنا عن القانون الوضعي المُنفصل عن أي مرجعيَّةٍ، فوظيفة «القانون» أصلًا -حسب الرؤية الكونيَّة التوحيديَّة- هي حماية حق الضُعفاء).

١١٠- إذا كانت المصائب لا تأتي فُرادى، فإنها تأتي طائرةً وتنصرِفُ زحفًا!

١١١- لو كُلُّ كلبٍ عوى ألقمتهُ حَجَرًا لأصبحَ الصخرُ مِثقالًا بدينـــارِ!

١١٢- إن القُدرة على التجاوز تتطلَّب خيالًا نشطًا، بل جامحًا في كثيرٍ من الأحيان. وهذا ما يفتقده غالبًا أصحاب خطط الإصلاح الإجرائيَّة من التكنوقراط والتنفيذيين حبيسي الواقع. إذ القُدرة على التجاوز هي أحد تجلِّيات الرؤية الثوريَّة ذات الطبيعة الرومانتيكيَّة؛ إنها نزوعٌ راديكالي في جوهره، ومن ثمَّ فهو يتعارض جُملةً وتفصيلًا مع نمط التكنوقراط المادِّي الوقائعي الرجعيّ. لذا كانت قُدرة التكنوقراط على إحداث تغييرٍ جذريٍّ، لصالح المجتمع؛ مُستحيلةً. وأقصى ما يُمكن أن يطمحوا إليه هو إدارة الواقع بكُلِّ عيوبه المثقِلة وفساده المترسِّخ.

١١٣- يُغازل لُطفي السيِّد الاستعمار البريطاني صراحةً في مذكِّراته، بل تصل به الرقاعة أن يتغزَّل في اللورد كرومر، ويُثني على ألمعيَّته وفضله على ماليَّة مصر. إن القارئ الذي لا يعرف «جنسيَّة» لطفي السيّد يتصوّره بريطانيًّا للوهلة الأولى! وما

يزيد الطين بلَّةً أنهُ يحمل على فكرة الجامعة الإسلاميَّة ودُعاتها -بغير ذكر أسماء- برغم أنَهُ يزعُم التتلمُذ على الأفغاني ورُفقة مصطفى كامل، الذي أسرف في امتداحه بغير مسوغٍ! بل إنَّه يعتبر أن فكرة الجامعة الإسلاميَّة ما تمخَّضَ عنها إلا دماغٌ سقيمٌ؛ لأن الناس «لا يجتمعون إلا على مصالحهم»! أما موقفه من عرابي فغاية في الطرافة؛ فهو ينتقد خروجه على الخديوي «الهادئ»، بغير مصلحةٍ عامةٍ للأمَّة! ويسخر من سذاجته وعدم قُدرته على تقدير قوَّته، مما دفعه للوقوف بوجه الإنجليز! وهذا هو «أستاذ الجيل» الذي يُصدَّر للريادة، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

١١٤- من دُرر ابن الرومي التي تنضح حكمةً، قوله:

لا تعجبن لمرزوقٍ بهِ هـــوج حظًّا تخطَّى أصيلَ الرأي أطرافا
فخالقُ الناسِ أعراءً بــلا وبرٍ كاسي البهائمِ أوبارًا وأصـــوافا

١١٥- الألم «فكرةٌ» يُمكن مقاومتها بفكرةٍ أشدَّ منها إلحاحًا، وأقوى منها سيطرةً على النفس. واللذة سكرةٌ لا يُمكن مُقاومتها إلا بوخزِ فكرةٍ مؤلمةٍ!

١١٦- كُلَّما ازداد إبهارُ الصورةِ؛ انخفض مستوى المضمون إنسانيًّا.

١١٧- الفنُّ الحقيقي خلقٌ لا عقلانيٌّ بطبيعته؛ ينبثق من الحسِّ والشعور. إنَّهُ نزوع الضمير، ومرآة الروح الإنساني. لذا؛ فإن أي نقدٍ «عقلاني» يفشل في استكناه الظاهرة الفنيَّة، وأقصى ما يطمح إليه هذا النقد هو تناول «المُنتج» الفنِّي البرَّاني، وليس العمليَّة الإبداعيَّة الجوَّانيَّة. هذا المنتج البرَّاني -على أهميَّته- هو الأدنى قيمةً في العمليّة الإبداعيّة كُلّها، بعد أن انفصل عن الفنان وأصبح له وجوده المادّي شبه المستقلّ. إن جوهر العمليَّة الإبداعيَّة ولُبَّها هو حالة التوهُّج الشعوري المصاحب لعمليَّة الخلق الفنِّي؛ ففيه يكمُن سرُّ العمليَّة الفنيَّة كُلِّها بل سر الإنسان نفسهُ.

١١٨- اللهم أغنني بالافتقار إليك، ولا تُفقرني بالاستغناء عنك، واجعل دوام معيّتك لي سندًا لا أُحرمه، ونظرُك إليّ توفيقًا لا أفتقده. اللهم إني أسألك أن تبسط لساني بشُكر النعمة منك، وأن تُثبِّت جناني عند الابتلاء بزوالها.

١١٩- «ألحق الأديب الفرنسي بلزاك بأحد رواياته الشهيرة مُقدّمةً أقل شُهرةً؛ حاول فيها تحليل الإنسان باستخدام أساليب علميَّةٍ وضعيَّةٍ. ومُقدّمة بلزاك هذه مَثَلٌ مناسبٌ على إخفاق المنهج العلمي في تناول الحياة الجوانيَّة للإنسان. ولذلك وجدنا فصامًا تامًّا بين ما وصف به المؤلف الحقيقة الإنسانيَّة في روايته: الكوميديا الإنسانيَّة؛ الذي كان وصفًا مُخلصًا حيًّا، وبين التفسيرات الفكريّة لمصائر البشر كما أوردها في مُقدِّمة الرواية». (مقتطف من كتاب علي عزّت بيغوفيتش: **الإسلام بين الشرق والغرب)**

وتعليقي هو: تبدو هذه الثنائيّة أيضًا في أدب نجيب محفوظ، وآرائه الفكريَّة والسياسيّة. ففي حين ينبض أدبه بالحياة الحقيقيّة ويتجلّى بين ثناياه حسُّه الفنِّي الفطري الرفيع، فإن آرائه الفكريّة تنضح بالسذاجة والسطحيَّة، وتكشف عن تبنّيه لفلسفة ماديَّة براغماتيَّة تُهيئه للتكيُّف مع الواقع أينما كان. وهذا هو الفارق بين المستويين: الفنِّي الكامن، والفلسفي الواعي. فالمستوى الكامن عند الأديب أكثر صِدقًا وإنسانيَّةً، بينما المستوى الواعي قد يعكس شخصًا ضحل الإنسانيَّة، أو على الأقل ذي توجُّهٍ ماديٍّ -بالمعنى الفلسفي- متوحِّش ومُعادٍ للإنسان. ولعلَّ أسلوب مُحمَّد المخزنجي -في خلطه للخيال بالواقع، والأدب بالوقائع- في مقالاته التي تعالج الموضوعات الفكريَّة والسياسيَّة، هو المخرج العبقري الوحيد من هذه المُعضلة.

١٢٠- العلم ينتمي إلى عصره فحسب، أما الفن فينتمي لجميع العصور.
(علي عزت بيغوفيتش)

١٢١- الندمُ شعورٌ حارقٌ، يكوي الفؤاد بصديد الغُصَّة التي يُسكنُها الحلق. وهو شعورٌ يجعلُك تحلُم بالمُستحيل؛ بأن يعود الزمان القهقرى حتى تُعيد اختياراتك، وتشطب ما كان في سجل الوجود. وبرغم سخافة الشعور بالندم، إلا أنه دليلٌ حيٌّ على إنسانيَّتك وحُريَّتك ومسئوليَّتك عن أفعالك. ودليلٌ أكثر حيويَّةً على أن الإنسان كائنٌ حادِثٌ مُتناهٍ؛ يتغيَّر ويتبدَّل، ويكتسب مزيدًا من المعارف والخبرات بمرور الزمن. لو كان الندمُ رجلًا لقتلته، ولو لم أكُن إنسانًا ما عرفته!

١٢٢- كُلُّ أصحاب الرسالات ذلكَ الرجُلُ. فأيما مُبشِّرٍ برسالةٍ إلا وقد أفرغ لها نفسهُ حينًا من الدهرِ، دارسًا مُتأملًا مُتمكنًا؛ ثم صدح بها بعد أن تجسّدت فيه حيَّةً تنبض، قد وقرت في قلبه وصدّقها عمله.

١٢٣- أرأيت إلى مؤمن آل فرعون الذي بلَّغ عن ربّه، ثمَّ فوَّض أمرهُ إليه عن يقين: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1]. يُخبرنا ﷻ بمصيره المقدور في الآية التي تليها مُباشرةً: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾[2]. فاللهم اكتبنا ممن بلَّغ عنك وعن رسولك ﷺ على الوجه الذي ترتضيه، ثم فوَّض إليك أمره بهذا الإخلاص؛ فوقيته بحولك سبحانك سيئات مكر الماكرين.

١٢٤- الناس ثلاثةٌ: محتاجٌ للظلام، ومعتادٌ على الظلام، وكارِهٌ للظلام. الأول لصٌّ قحٌّ؛ يسطو على الأموال والعقائد والأعراض والأفكار، بل وعلى بلادٍ بأكملها... وهم كُثرٌ. والثاني، وهم القاسم الأعظم من القطيع البشري الخانع، ظالمي أنفسهم؛ الذين اعتادت أعينهم الظلام فتكيَّفوا معه، وساهم هوانهم في تمكينه المشين.

أما الصنف الثالث فهم أهل الفطرة السليمة؛ الذين انقسموا بدورهم لفئتين: أولاهما العارفون للطريق؛ العاملون المجاهدون. وثانيهما اللاعنون القاعدون عن جُبنٍ أو عن عجزٍ أصيلٍ ... فتأمل أين تقف من هذا الوجود!

١٢٥- قال الشعبيُّ رحمه الله: العلم ثلاثة أشبار؛ فمن نال منه شبرًا شمخ بأنفه وظن أنه ناله. ومن نال الشبر الثاني؛ صغرت إليه نفسه وعلم ألَّم ينله. أما الشبر الثالث؛ فهيهات لا يناله أحدٌ أبدًا.

---

(١) سورة غافر؛ الآية ٤٤.

(٢) سورة غافر؛ الآية ٤٥.

١٢٦- إذا أجرى الله الحق على لسانك في محضر المعاندين من أهل الباطل؛ اتُّهِمتَ بالطمعِ فيما عندهم!

١٢٧- لا تنظر لضيق المنظار ذاته، ولكن إلى سعة الأفق الذي يغطيه.

١٢٨- الخوفُ شعورٌ نبيلٌ، وهو يؤكِّد إنسانيَّتك ومحدوديَّة قُدراتك البشريَّة المُجرّدة. ويظلُّ الخوفُ شعورًا مقبولًا، ما لم يُخالطْهُ إحجامٌ ينقلهُ مرذولًا مُستهجنًا لخانة الجُبن. ولا توجد طريقٌ تُجنِبُكَ النكوص الجبان إلا حُسن استحضار المعيَّة الإلهيَّة. أن توقن بأنك لست وحيدًا في هذا الكون المُترامي، وأن عين العناية تكلأُكَ حتى في أوقات غفلَتِكَ. إن العالم الخالي من الإله موغِلٌ في وحشتِهِ ثقيلةٌ وطأتهُ، داعيةٌ للإخلاد إلى الأرض استسلامًا للأوهام. لهذا حرِصَ المولى سُبحانهُ على تربية صحابة نبيِّهِ إيمانيًّا قبل أن يسمح لهم برد العدوان، فأمسى أغلبهم يرى الغيبَ ببصيرةِ الشاهد. وحين تم نُضجهم جاءت سورة الأنفال عقب بدرِ الكُبرى -أول اختبارٍ عسكريٍّ حقيقيٍّ لهم مع الشرك- مُباشرةً؛ تُحذِّرُهُم من التولِّي وقت الزحف إلا تحرُّفًا لقتالٍ أو تحيُّزًا إلى فئةٍ[1]. فتساموا على شعورهم الإنسانيِّ، بل إن منهم من نسيَهُ؛ لتتحقق حالةٌ فريدة في التاريخ الإنسانيِّ. فهُم لم يتبلَّدوا جرَّاء طول مُعايشة القِتال، ولكنَّهم نسوا مخاوفهم قبل بدئِهِ أصلًا. صلى الله على من ربَّاهم.

١٢٩- قال لي ربِّي: انظر يا عبدي. هذا عبدٌ مثلك، تنساه؛ فيسخطك. وأنا الذي لا إله إلا أنا، تنساني؛ فأذكرك .. تغفل عني؛ فأحلُم عنك .. تعجز عن شكري وتقعد عن معرفتي؛ فأشملك بعين رعايتي .. فهل عاينت بعضًا من كرمي؟

١٣٠- لا يُمكن إدراك المعنى الحقيقي للحريّة في ظلّ غياب الإله. لماذا تكتسب الحُريَّة هذه القيمة كمثال ذي طبيعة ميتافيزيقيَّة يطمح إليه كلُّ أحدٍ؟ ما الذي يجعل الإنسان يرنو إلى التحرُّر من المادَّة إذا كان ابنًا قُحًّا لها وعبدًا لصيرورتها؟! إن الحُريَّة

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة الأنفال: ١٥، ١٦]

تقتضي الخلق؛ خلق آدم على صورته والنفخ فيه من روح الله. وهو ما لا ينسجم مع أوهام «التطور» الداروينيَّة؛ التي يُمسي فيها الإنسان جُزءًا لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة؛ مفعولًا به وضحيَّةً أبدي الخضوع للظروف الماديَّة البرانيَّة. إن الذي يُحرِّك الإنسان لطلب الحُريَّة وتجاوز واقعه ليس طينه، بل نفخة الله: ذلك السرُّ الأزليُّ. إن كُلّ مؤمنٍ بالحُريَّة صادِقُ الإيمانِ هو مؤمنٌ بالألوهيَّة؛ سواءٌ عرف أم لم يعرف، أراد أم لم يُرد.

١٣١- يذكُر الشيخ حافظ سلامة في مُذكِّراته حادثة ذات دلالة غاية في الأهميَّة. فحين بدأ العدوان الإسرائيلي على مُدن القناة إبَّان حرب الاستنزاف وتمَّ تهجير أغلب السُّكَّان؛ كان موظَّفو الأوقاف في طليعة المهاجرين، وذلك في الوقت الذي كان المرابطون هُناك بأشد الحاجة لهؤلاء الدُعاة/ الموظَّفين! وهذا هو حال الدعوة إلى الله حين تُختزل في وظيفةٍ/ مؤسسةٌ يقتات منها الإنسان، ليتوارى أصلها الرسالي. العكس تمامًا يوردهُ المجاهد الجليل في مُذكِّراته عن الإمام عبدالحليم محمود، والذي لم يكُن يتقاضى راتبه من الأزهر؛ بل كان يوزِّعُه على الطلبة المعوزين، ويُنفق على أسرته من ثمن بيع أرض ورثها عن والده بناحية بلبيس.

١٣٢- لحياتنا الدنيا أبعادٌ ثلاثةٌ: طولٌ، وعرضٌ، وعُمقٌ. فإن كُنَّا لا نستطيع التحكُّم في طولها لأن الحكمة الإلهيَّة اقتضت أن نأتي ونذهب بغير اختيار -وإن لم نُعدم الإنذار- فإننا نملك دومًا القُدرة على تغيير مقاييس البُعدين الآخرين، من حيث كونهما المؤثرين بشكلٍ مُباشر في تشكيل نمطنا الحيويِّ مناط التكليف. فكُلُّنا يمتلك قدرةً على أن يحيا زمنًا عريضًا حافلًا بالأحداث، ووجودًا ثريًّا بأفكارٍ ومشاعر عميقةٍ مُتجذِّرةٍ، أو أن نختار حياةً خاملةً راكدةً محدودةَ الاهتمامات، كشخصيَّاتٍ سطحيَّةٍ لا تكاد تشغل حيِّز الهامش!

١٣٣- كل الشخصيَّات القلقة في تاريخ الإنسانيَّة هي شخصيَّاتٌ عظيمةٌ، إن عاجلًا أو آجلًا! وذلك بشرط أن يكون القلق وجوديًّا حقيقيًّا مُتعلِّقًا بتحقُّق الإنسان، وبموقعه من الوجود. وهذه الشخصيَّات لا تولد غالبًا في البيئات الهادئة

الهانئة، بل تتشكّل في خضم أحداث وتحوُّلات اجتماعيّة كُبرى تختلط فيها وطأة العام بمرارة الخاص؛ فتصهرها المعاناة لتكشف جوهرها الثمين. وقريبٌ من ذلك ما ذهب إليه أستاذنا علي عزت بيغوفيتش من أن كُلًّا من الدين والثورة يزدهران في مخاض من الألم والمعاناة، ويحتضران في الرخاء والترف.

١٣٤- الفن -حتى المنحط منه- تجربةٌ دينيةٌ في جوهره، فقد سمّى الله ﷻ مكاء المشركين وتصديتهم عند المسجد الحرام،[1] بالصلاة!

١٣٥- الفن خلقٌ وإبداعٌ، وكل خلقٍ وإبداعٍ إنساني وليد شعورٍ بالنقص والحاجة لَمفتقَدٍ، فالمتوفر لا نحتاج لإيجاده.

١٣٦- الإنسان لا يثور بسبب الفقر أو الظلم كمجرَّداتٍ فلسفيَّةٍ أو حتَّى كوقائع ماديَّةٍ على الأرض، بل يثور حين يستشعر الفقر أو الظلم كأنهما وقعا عليه، وإن لم يحدُث هذا فعلًا. وبعبارةٍ أخرى، يُمكننا سحب تعريف القدماء للأدب بأنه «تجربةٌ شعوريَّةٌ»؛ يُمكننا سحب ذات التعريف على فعل الثورة. فالثورة بالأصل هي تجربة شعوريّةٌ جوَّانيَّةٌ تبدأُ بالانفعال والاهتياج الشعوري، ولا تبدأ من التطلُّعات أو الوقائع الماديَّة، فقد تكون الثورة لظلمٍ وقع على «الغير» لكن الثائر يستشعره موجّهًا له ولإنسانيته. إنه لا يسعى لتحقيق غرضٍ ماديٍّ محددٍ، بل للثأر لمن وقع عليه الظلم؛ حالة «كلنا خالد سعيد» في مصر أنموذجًا. يؤكد ذلك الفيلسوف الراحل علي عزّت بيغوفيتش؛ حين يذهب إلى أن كُلَّ ثورةٍ حقيقيَّةٍ هي عُضوٌ في أسرةٍ كبيرةٍ تتميَّز بسماتٍ: الإيمان، والشعور المُتضخِّم بالقوَّة، والأهميَّة، والرغبة الجيَّاشة في التضحية، والموت. إنها مشاعر أبعد ما تكون عن نطاق المصلحة الماديَّة الضيِّقة. إن أي شخص كان لهُ دورٌ في ثورةٍ أو تَابَعَ تطوُّرها عن قُربٍ؛ يستطيع أن يؤكِّد هذه الملامح الأخلاقيَّة. إنَّهُ يرى الثورة كقصيدةٍ ملحميَّةٍ ذات طبيعةٍ ميتافيزيقيَّةٍ، وليس فقط كآليَّةٍ لتدمير أو تغيير الآلة الحاكمة. وهذا يُفسِّر لنا حماس الشُّعراء والفنانين والمُتديِّنين للثورة. إن

(١) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ سورة الأنفال؛ آية ٣٥.

المُجتمع الذي تُسيطر عليه مشاعر التضامُن، والتضحية، والمصير المُشترك؛ يُعتبر في حالةٍ دينيّةٍ. إن المُجتمع العاجز عن التديُّن، هو أيضًا عاجزٌ عن الثورة. والبلاد التي تُمارس الحماس الثوري؛ تُمارِس نوعًا من المشاعر الدينيَّة الحيَّة. إن مشاعر الأخوّة، والتضامُن، والرغبة في العدالة هي مشاعر دينيَّةٌ في صميم جوهرها، مشاعر توجّهها الثورة لتحقيق العدالة، وإقامة «الفردوس الأرضي»!

١٣٧- إن مأساة الإسلاميين في الثلث الأخير من القرن العشرين لم تكُن ممارستهم للعُنف، بل إنَّهم لم يستخدموا ما يكفي من العنف في مواجهة الدولة المطلقة التي قوَّضت الإنسان من المحيط للمحيط! وكُلُّ العُنف الذي مورس باسم الإسلام إمّا كان موجَّهًا من أجهزة الاستخبارات لاتخاذه ذريعةً لضرب الإسلاميين، أو وجَّهه الفقه الساذج باتجاه المدنيين العُزَّل. لو كان هذا العُنف قد أُحسِن توجيهه مُنذ ثلاثين عامًا، لما كانت الحركات الإسلاميَّة اليوم مفعولًا به، ثُمَّ فاقدًا لمُبرر وجوده بعد اندلاع الثورات الشعبيَّة التي قوّضت الأنظمة العميلة. إن «الثورات» العربيَّة برغم إجهاض مسيرتها؛ قد كرَّست نمط التيَّارات الاجتماعيَّة الأفقيَّة، وقوَّضت عمليًّا نمط التنظيمات الهرميَّة الوثنيَّة؛ إلى أجلٍ مُسمًّى!

١٣٨- سألَتهُ: هل ستظلُّ تُحبّني بنفس الحرارة، أم ستبرُد عاطفتك يومًا؟ فأجاب: بل ستبرُد حتمًا يا حبيبتي، فهي من الطين للطين، والطينُ يبرُد بعد الحصاد. فسألته في هلع: أوَجرؤت على نُطقها؟ فأجاب باسمًا: أوَأملك تغييرها يا حبّة القلب؟ أليس يعقُب الليل النهار؟ أوليس لهيبُ النار إلى خمودٍ مهما طال استعارُه؟ إنها لو لم تبرُد في حياتي، فستبرُد بموتي. فنظرت إليه في حزنٍ راجية: لا تتحدّث عن الموت! فاحتواها بعينيه وقال: بل أتحدث عن الخلود يا عين الحياة. إن الموت والحياة أعراضٌ زائلةٌ، وأنا أحلُم بالخلود. إن رماد هذه النار الخامدة هو التُربة التي سنحرُثها لنغرس قوت الأحفاد. فيتعاقب الليل والنهار ليُنضجا ويحصُدا. إن البذر والحصاد أعراضٌ، وأنا أُريدك في وجود لا بذر فيه ولا حصاد، ولا أعراض فيه ولا فساد، ولا حرارة ولا برودة ... الوجود الأمثل.

١٣٩- الرغبة المرضيّة في الهروب والبدء من جديدٍ، من نقطة صفر افتراضيَّةٍ، من عالمٍ مستوٍ أملس بدون نتوءاتٍ ولا بروزٍ؛ هي رغبةٌ إنسانيَّةٌ فطريَّةٌ لها صفة الديمومة عندَ من تُمسك بخناقه، وهي فرعٌ مما سمَّاه أستاذنا المسيري بالنزعة الجنينية... آه من عالمٍ ما فيه إلا الكَبَد.

١٤٠- «النساء كقطرات الندى؛ يقع بعضها على غصنٍ ناضرٍ فيمتصُّها وتحيا له، ويقع البعض على غصنٍ جافٍ إذا هزّه الهواء سقطت عنه إلى الأرض»؛ خليل مطران.

١٤١- ما أشد غرور وسخافة البشر؛ يُسمُّون الشيء عدمًا لانعدام قدرتهم على إدراكه، وقد يكون عند خالقه سُبحانه وجودًا أكمل لا تُحيط قدراتنا بصفاته.

١٤٢- كان قابعًا في الظلال، لأنه إلى الظلال يعود! (وصفٌ مسرحيٌ من مسرحيّةٍ لا أذكرها).

١٤٣- الحكيم هو الشخص الذي ارتكب كمًّا ضخمًا من الحماقات، وظلَّ حيًّا حتى فقد القدرة على ارتكاب المزيد؛ فما ندم على إنسانيّته، بل تحسَّر على فوات قدرته!

١٤٤- اللهم استعملني ولا تستبدلني، وأجر الحق على لساني وثبّت جناني، واقبضني راضيًا بك مُشتاقًا للقائك.

١٤٥- لا تُعرف قيمة الشيء إلا بفقده، وكم تُفاقم حسرة الجهالة من ألم الفقد!

١٤٦- الموت والحبُّ والشعر يُضفيان المعنى على الوجود الإنسانيِّ. الأوَّلُ عينُ اليقين؛ نفرُّ منه لنلاقيه. والثاني عينُ الوهم؛ نطلبه ليملأ وجودنا المؤقت بالحياة. والثالث هو سيرةُ تأرجُحنا بين الوهم واليقين!

١٤٧- إن إجلال بني آدم، حتى أعتى الملحدين منهم، واحترامهم للموت؛ هو إيمانٌ خفيٌّ ظاهره احترام الحياة الإنسانيَّة (النزعة الهيومانيَّة)، وباطنه تمام الإذعان

للمشيئة الإلهيَّة القاهرة. إن الإنسان لا يستطيع أن يكون مُلحدًا قحًّا ولو أراد، لكنَّهُ قد يكون مُشركًا، فالشرك أقرب لتركيبيّته الإنسانيّة وتكوينه الربَّاني!

١٤٨ - الاستسلام للهوى يؤجج صراع الإنسان مع أخيه الإنسان، أما الانشغالُ بالصراع مع النفس (صراع الخير والشرّ الجوَّاني) فهو مفتاح السلام البرَّاني مع الآخرين. لذا بدأت كل الدعوات الدينيَّة بالإصلاح الجوَّاني؛ تقويم الخُلق واستقامة الطويّة، فهذا هو الباب الإنساني الوحيد للسلام البرَّاني. أن تمتنع عن إيذاء أخيك الإنسان رحمةً به، ألا تمُدنَّ عينيك إلى ما مُتّع به غيرُك صونًا لقلبك من الحقد والحسد، أن تُعطي من رزقك تزكيةً لنفسك ... إلخ. إن الذين ينقادون لأهوائهم/ شهواتهم هُم أصحاب رؤيةٍ طوباويَّةٍ عميقةٍ؛ فالخير والشرُّ عندهم برَّانيَّان، ومن ثمَّ كان الصراع مع «الآخر» برَّانيًّا، وهذا هو جوهر المنظومات الوثنيَّة والشركيَّة على مدار التاريخ: الثنويَّة البرَّانيَّة!

١٤٩ - لُفِّقت «الوسطيَّة» تلفيقًا لمواجهة «السلفيَّة» المختلقة، ولا بواكي للإسلام في هذه المباءة!

١٥٠ - كانت وثنيَّة العرب في جاهليَّتهم الأولى تنطوي على قدرٍ من التجاوز، فقد عَبَدوا الكواكب التي كانت رؤيتها ممكنةً بالعين المجرَّدة في تلك السماء الصافية. لقد منحهم صفاء نفوسهم قدرًا من الصدق مع نفوسهم، فاعترفوا بشركهم وبأسبابه، وأصرّ بعضهم عليه كِبرًا وعِنادًا، لذلك كانوا خيارًا في جاهليَّتهم وفي إسلامهم كما شهد بذلك الصادق المعصوم. فخلف من بعدهم خلف ذابوا بالكامل في «لذة» استهلاك سلع الغرب؛ التي حجبت آفاقهم بسُحبٍ كثيفةٍ من التلوث البيئي والروحي، فعبدوا «لذتهم» التي صارت آلهتهم الجديدة. إنهم لا يستطيعون رؤية السماء، فدون ذلك بطونٌ وفروجٌ، و«شركاتٌ» معبودةٌ! إن جاهليتنا الحاليَّة أسوأ وأكثر إظلامًا وضلالًا من جاهليَّتنا الأولى؛ إنها جاهليَّةٌ يظُن طليعتها أنهم «مهديين» في طريقهم للتمكين. إنهم يصدُّون عن سبيل الله من حيث يحسبون أنهم يدعون إليه. إنها ردّةٌ خفيةٌ بغير إيمان أبي بكر، و«فتوحٌ» للدنيا مكذوبةٌ بغير قوة عُمر، وثرواتٌ طائلةٌ بغير نظافة عُثمان، وفتنةٌ بغير تقوى عليٍّ. ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

١٥١- ليس الإخلاص بهدفٍ إيمانيٍّ نسعى للوصول إليه، ومن ثمَّ الإبقاء عليه أو تجاوزه. إنما الإخلاص هو محاولتنا الدائمة والأبديَّة داخل التاريخ، لتصفية النيَّة وإخلاص العمل لله وحده؛ قد ننجح مرَّةً ونفشل مرَّاتٍ. إن المحاولة المخلصة في حدِّ ذاتها هي ما تعبَّدنا الله به، وليس النتيجة. إن الكبد المخلص في العروج إليه، وليس الوصول إليه ﷻ؛ هو عين التكليف. فالإخلاص ليس «حلًّا نهائيًّا»، وليس طوبيا يُمكن بلوغها داخل التاريخ فتنتهي بها كل مشاكل المؤمن. إن الإخلاص ليس مقامًا، بل هو حال الساعي أبدًا لإدراكه.

١٥٢- كان سيِّدُنا الشافعيُّ ﷺ، يقول: من العصمة ألا تجد (يعني ما تعصي الله به). ويُضيف الفقير لرحمة ربِّه ومغفرته أنه: من العصمة ألا تغترَّ بالعصمة، فوالله ما حملت على عاصٍ (بغير مراعاة لضعفه الإنساني كما يفعل بعض المتنطِّعين) إلا كُسِرتُ بذات المعصية. وما نظرتُ في ذنوب الناس بروح الربوبية إلا أذلني الله بمعصية تُعيدني مُنكسرًا لحظيرة العبودية. وصدق المسيح ابن مريم عليهما السلام، فيما رُوِيَ عنه؛ أنه قال: لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أربابٌ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيدٌ، فإنما الناس مُبتلى ومعافى. فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية.

١٥٣- في مئويَّة العبقري الفذِّ نجيب محفوظ أرثى لجيلٍ كاملٍ من المصريين؛ الذين مُسخت لُغتُهم وانحطَّت تصوُّراتُهم. إن الجيل المنكود الذي حمل كلام سيِّد قُطب على أنه تكفيرٌ للمجتمعات؛ هو نفسه الجيل المتشئ الذي وقف بعضه على ظاهر نصوص نجيب محفوظ واعتقد بكُفره. بل ولم يكتف بذلك، فاعتبر الكُفر ذاته مقامًا نهائيًّا ذي طبيعةٍ طوباويَّةٍ، ومن ثمَّ فهو ليس قابلًا للنقض ولا للمراجعة. إن هذا الجيل يعشق اللغة الفقهيَّة الرياضيَّة اللاإنسانيَّة، والتي يلتصق فيها الدالُّ بالمدلول، فوعيه قاصرٌ عن إدراك اللغة الإنسانيَّة/ القرآنيَّة. إنَّهُ جيلٌ ذو بُعدٍ واحدٍ لا يعرف رحابة الإنسان ومن ثمّ رحابة لغته الإنسانيَّة/ القرآنية، لذا فهو غير قادرٍ على تذوُّقها، ولهذا السبب كانت محاولاته «النهضويَّة» عبثيَّة؛ تصطدم بواقعٍ ماديٍّ لا يستطيع تجاوزه، فيتماهى معه ويخضع له، ويُصبح جُزءًا منه لا يتجزأ. إنَّ الجيل

الذي لم يعرف التغيير كحركةٍ شعوريَّةٍ جوَّانيَّةٍ يتشكَّل بها الوجدان قبل أن تصطدم بالأوثان، ولم يؤمن بقُدرتها على خلق واقعه، هو جيلٌ ليس بقادرٍ على تذوُّق الأدب الرفيع، ولذا فهو عاجزٌ عن تدبُّر القرآن. لقد كان هذا الجيل السقيم الذهن نكبةً على الأمَّة، ولا أمل في صلاح أحوالها إلا بانقراضه. وقد انعقد أملي على جيلٍ قادمٍ آمن بالتربية كتغييرٍ، وعرف معنى تجاوز الواقع بتزكية نفسه ولو ارتكس العالم من حوله في الإثم؛ فذاق حلاوة إنسانيَّته التي فطر الله الناس عليها. إن مثل هذا الجيل لا بُدَّ عائدٌ للقُرآن طال العمر أم قصر. سنَّة الله في خلقه.

١٥٤- «الناس» طاغوتٌ خسيسٌ، والخروج على الحاكم يجب ألا يكون في سبيلهم، بل في سبيل استعادة القيم الإلهية؛ الحرية والعدل للجميع، وعلى رأسهم العبيد الخانعين، والمنافقين، والمثبطين، بل والمشركين. إن أمانة استعادة هذه القيم والحفاظ عليها كحقٍّ أصيلٍ لكُل بني الإنسان هو واجب العُصبة التي ابتعثها الله لهذا وهيأها للقيام به. إن رضا الناس وسعادتهم لا يجب أن يكونا هدف هذه العُصبَة المرابِطة. إنه ليس هدفنا التماهي مع الواقع أو مداعبة شهوة الإخلاد إلى الأرض التي تجذب بني آدم إلى الطين. إن هدفنا هو الارتقاء بالناس للإنسانيَّة الحقة؛ بإرشادهم لاستكمال عبوديتهم لربهم الحق. إن هذه العبودية تتحقق بمُجرَّد ضمان هذه القيم لبني الإنسان؛ ولو توجَّهوا بشعائر العبادة لغير الله؛ فأشركوا معه أو من دونه شيئًا. إن عبوديتهم لله تتحقق بردِّ الأمانة، وليس بإكراههم على الديانة.

١٥٥- في عالم سائل بلا مركزٍ، يتحوَّل مشروب «بريل» لمركز بديل للشارب؛ مركز يحمل نفس الدلالة الذكوريَّة الممسوخة أصلًا! وفي نفس العالم الذي يتشيَّأ الإنسان فيه وتتآكل حياتُه الخاصَّة بعد أن تحوَّل لكائنٍ «عموميٍّ»، تصير برامج تلفاز «الواقع» وألعاب الواقع الافتراضي، بديلًا يتحقق من خلاله الضحيّة/ الإنسان الشيء، بعد أن عجز عن التحقُّق في الواقع! إنَّهُ نفس عالمِ الخلاص الفردي البيوريتاني/ السلفي ذي الطبيعة البرَّانيَّة، عالمٌ تمتزج فيه اللحى الكثَّة بالبرغر والقهوة الأمريكيَّة! وهو ذاته العالم الذي تُروَّج فيه أسطورة البروتستانتي/ الإخواني الذي

قام بترشيد نفسه فحقق «التراكُم» الرأسمالي، لينتقل من لبس المسوح إلى بيع أفخر الحُلل الغربية! إنَّهُ عالمٌ كئيبٌ موحشٌ ممسوخٌ لا أحب أن أعيش فيه، وسوف أقوم بتغييره!

١٥٦- أشد القلوب قسوةً هو أشدها غفلةً عن ذكر القدُّوس. والذكر الذي أقصده ليس تمتمات الشفتين فحسب، بل عمل الجوارح في طاعته ﷻ بإخلاصٍ. إنه ذكرٌ من صميم الذكر، وعبادةٌ من صميم العبادة. وقد ذكر رب العزة أن قلوب بني إسرائيل كانت كالحجارة أو أشد قسوة، وما ذلك إلا لغفلتهم الكاملة وإخلادهم إلى الأرض، وتعلُّق قلوبهم بالأسباب حتى عبدوها من دون المسبب. ذلك الغلو الذي جاءت رسالة المسيح عليه السلام لتُخَفِفَ منه، بذكر المولى سُبحانه والحث على الزُّهد توكُّلًا يُعيد القلب إلى مداره الفطري طوَّافًا في آيات الله. إن قسوة القلب مُعلَّقةٌ بقضاء الشهوات؛ الطعام والسلطة والثروة. وكلها تفعل الشيء نفسه حين تُقضى. لكن الشهوة الوحيدة التي لا يقسو قلب مُلبِّيها، بل يرقُّ؛ هي الزواج.

١٥٧- واللادينيون العلمانيون ومنتقدو الإسلاميين هم أكثر منهم جهلًا وأكثر سطحيَّةً للأسف. ووددنا لو كان من هؤلاء من جاء بخلفيَّةٍ فقهيَّةٍ أو كلاميةٍ، ليكون لنقده وزنٌ وقيمةٌ يُعتد بها برغم الخلاف.

فإذا كان الإسلاميون يجهلون حقوق الكافر الاجتماعية، فإن أعداءهم يجهلون معنى الكفر أصلًا، بغض النظر عن «ممارستهم» إياه. وإذا كان الإسلاميُّون يتخبّطون بمفاهيم مُلتبسةٍ عن الجهاد، فإن أعداءهم لا يعرفون عن الجهاد إلا أنه حربٌ صليبيةٌ «مُقدَّسةٌ» على النمط الغربي. وإذا كان الإسلاميون يعبدون تاريخ أسلافهم من دون الله، فإن أعداءهم يعبدون بعض أسلافهم ويتخذونهم مصدرًا للتشريع. فأيما «قوّاد» تحدث عن الحجاب -مثلا- قال: لم تكن أمهاتنا ترتديه، وقد كُن مسلماتٍ (على عُهدة القوَّاد!) ... وهل أمك من أمهات المؤمنين ليكون عملها دليلًا يا ابن الفاعلة؟!!

وإذا كان الإسلاميون يعتمدون في بناء معارفهم وتشكيل وعيهم على ما يكتبه مستشرقون جُددٌ في مدح الإسلام، أو ما «يجود» به شيخٌ طائفيٌ أو مُفكرٌ مُتحزبٌ، فإن أعداءهم أجهل من الدواب للأسف. ولا يمكن قبول نقد الأدنى للأعلى ولو كان الأعلى بدرجة ابتذال الإسلاميين المعاصرين. ربما لهذا السبب لا تُثير آلاف الصفحات التي يُسوِّدها أكثر هؤلاء أدنى شغفٍ عندي. فهم ليسوا جاهلين بما ينتقدون فحسب، بل جهلهم بما يزعمون اعتقاده واعتناقه أبشع وأفحش.

إن معرفة الواحد من هؤلاء عن الإسلام لا ترقى لمعرفة مستشرقٍ درجة ثالثة أو حتى لتلميذٍ في أحد أقسام الدراسات الإسلامية في أوروبا أو أميركا. وربَّما كان في ذلك الكثير من التجني على الطلبة والمستشرقين الأماثل ... فإنما يكشف الواقع عن جهلٍ دونه جهل «أم قويق» ...

وقد روى لي صديقٌ صدوقٌ أن أستاذنا الدكتور سيف عبدالفتاح -متعه الله بالعافية- كان يتحدث عن رغبته في تدشين «علم العيال» بعد أن باد الرجال الذين لأجلهم ظهر «علم الرجال»؛ ترجمةً وتحقيقًا وتوثيقًا. لكن يبدو أننا ننحدر درجةً أخرى باتجاه «علم النغال» في عصر الرويبضة ... حيث الجهل والتشويش هما القاعدة.

١٥٨- الحلم بالطوبيا هو تجلٍّ عذابات بني آدم داخل التاريخ. فآدم الذي هبط من الفردوس إلى الأرض والتاريخ والكبد والمعاناة، هذا الآدم نفسه هو الذي يحلُم بالطوبيا؛ يحلُم أبدًا بتوقُّف التاريخ والعودة للفردوس. وشتَّان بين الفردوس في التصوُّرين الإسلاميِّ والجاهلي. إن فردوس المؤمن في قلبه، إنه فردوس مالكوم إكس القابل للتحقُّق في العالم الجوَّاني، والذي يمنحه الطمأنينة في عالمٍ مُوحشٍ ويُحفِّزه على تجاوزه. إنَّها التشوُّف الدائم لما ينبغي أن يكون. أما طوبيا الجاهليِّ فهي ماديَّةٌ بحتةٌ، تتحقق -نظريًّا- في عالم الأشياء، الآن وهُنا؛ إنها فردوسٌ أرضيٌّ يطمع الجاهلي في أن يلجه في الدنيا ليكتشف في كُلِّ مرّةٍ -بعد أن يدفع الثمن غاليًا- أنَّهُ كان واهمًا.

١٥٩- إن هُناك نصوصًا منهجيَّةً مؤسِّسَة في الفكر الإسلامي؛ عاشت وستعيش مئات السنين، وربما الآلاف. ومثل هذه النصوص تكتسب قُدرتها على الحياة والتأثير المُتجدد باقترابها من روح وجوهر القرآن، وكفاءتها في العبور بك للوحي والأخذ بيدك إلى رحابه. إن هذه النصوص تكتسب -بغرضها هذا وبنسبٍ مُتفاوتة- بعضًا من صفات الوحي المبين، فتزدهر بتكرار القراءة، وتزداد ثمارها وتتجدد؛ فهي فروع دوحةٍ مُتجددةٍ أبدًا. إن هذه النصوص ليست بديلًا عن القرآن، ولا يصحُّ أن تكون كذلك؛ لكنَّها مدخلٌ لازم تزداد أهميَّتُه يومًا بعد يوم، بتفاقُم أزمة فساد الألسنة وانطماس البصائر. إن أشرف ما قد يجنيه كاتبٌ أن يُخلف صفحةً من هذا النوع؛ لترقى به بعد وفاته وترفع بإذن الله درجاته، بأدائها وظيفة البلاغ عنه. إن من يسوّدون عشرات الصفحات الميِّتة؛ لن يخسروا مُبلغًا عنهم في المحيا والممات فحسب، بل سيُسألون فيم بددوا قرائحهم وآمالهم. إن الكتابة من هذا المنظور قد تكون شرفًا لمن يرضى الله عنه ويُلهمه رشده، لكنها بذات الوقت عبءٌ ثقيلٌ تنوء به الجبال، فمن أين لي باليقين أن ما قَدَّمَتْ يداي سيصحبني إلى قبري ليكون حُجَّةً لي لا عليّ؟! وأنه لن يصرف الناس عن الوحي، بل سيُعيدُهم إليه؟! إن اليقين في عملي وثوابه مستحيلٌ، لكن اليقين فيما عند الله واجبٌ مستطاعٌ. اليقين في رحمته بعد تحرّي إخلاص الوجه له.

١٦٠- دارسو الهندسة والرياضيات والفيزياء والكيمياء، والقانون والفقه والاجتماع و«العلوم» السياسيَّة، وما إليها مما أُسمّيه بـ«المعارف التقنيَّة»؛ هؤلاء يُطوّرون -لا شعوريًّا- رؤيةً ماديّةً آليَّةً نتيجة تغذِّيهم على وهم «السيطرة الكاملة» على الواقع، وذلك لأن مجالات اهتمامهم إجرائيَّةٌ/ تنظيميَّةٌ بحتةٌ. ومن ثَمَّ، فهُم أقرب فلسفيًّا لتبنّي أنساقٍ «حزبيّة» مُغلقةٍ، مُشبّعةٍ بالتحيُّز ومعاداة الإنسان، وذلك على المستوى الكامن. ونصيحتي لهؤلاء هي إمّا اللجوء لدراسة وقراءة الآداب (شعرًا ونثرًا) أو التصوُّف والرقائق، أو كليهما، وذلك بُغية أنسنة رؤيتهم للوجود... ولذواتهم المنكودة!

١٦١- كان لا بُد أن تفشل تجربة أسامة بن لادن كما فشلت من قبل تجارب البنا والمودودي والخميني رحمة الله عليهم أجمعين، وذلك بسبب زيادة العناصر الطوباوية الكامنة في تصوُّراتهم؛ والتي ترجع أصلًا لكون مشروعاتهم مشروعات «حداثيَّة» بأكثر مما هي مُعبِّرة عن التصوُّر الإسلامي. لقد فشل هؤلاء العباقرة المجاهدون في أسلمة الدولة الحديثة، وحين زادت الجرعة الطوباوية تحوّلت مشروعاتهم لتخبُّطاتٍ «إسلاميَّةٍ» مُعاديةٍ للإسلام.

١٦٢- في عالم ما بعد الحداثة الذي اختفى فيه المركز تمامًا، وسادت حالة من السيولة التامَّة (وهي الحالة التي لا يُمكن أن يحتملها الإنسان طويلًا) صار الحُبُّ مركزًا يُجاهد عبثا ليظلَّ مُتجاوزًا، وليمنح الإنسان الذي أكله القلق؛ بعض الطُمأنينة!

١٦٣- ذكَّرتني جسارة الجيل الذي خرج على مبارك في يوم الخامس والعشرين من يناير، بقصّة نبي الله موسى عليه السلام. فكما رُبِّي موسى في حِجر فرعون، ثمَّ جعل الله هلاك الطاغوت على يد ربيبه، النبي المُقاتِل؛ فإن هلاك الإمَّعة كان على يد الشباب الذي رُبِّي في ظل نظامه، وشوَّهه تعليم وإعلام عهده الأسود. إن السنن الإلهيَّة الثابتة مُعجزةٌ مُرعبةٌ في حتميَّتها. وما أن يبدأ الإعداد الحقيقي حتى يأتي النصرُ من عند الله؛ كأنَّه كان بالانتظار.

١٦٤- التأمُّل في قصّة بني إسرائيل في القرآن مُخيف. فهي قصّة الإنسان في كُلِّ زمانٍ ومكان. إن مبارك لم يُطح به سوى بضع مئات ممن ولدوا في ظل حكمه ورُبُّوا في كنفه، ولم يعرفوا غيره. لكن الذي لا ينتبه إليه الكثيرون أن بني إسرائيل لم يخرجوا من عباءة الطاغوت إلى الملكوت مباشرة. بل خرجوا إلى التيه؛ أربعين عامًا حتى يفنى الجيل الفاسد، وينشأ جيلٌ مؤمنٌ. لقد أنجى الله بني إسرائيل من الطاغوت، وهو يعلم بكُفرهم. وهو يعلم أنهم سيقولون لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ

بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾[1]. أنجاهم وهو يعلم أنهم سيتخذون من حليهم عجـلًا له خوار[2]. أنجاهُم وهو يعلم أنهم سيحنّون للعدس والبصل، ويرغبون باستبدال الذي أدنى بالذي هو خير. أنجاهُم وهو يعلم أنهم سيردون على دعوة الجهاد بالسخرية: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[3]... لكن الذي أنجاهُم أراد أن يتخذ من أصلابهم جيلًا مؤمنًا بعد فناء هؤلاء المشركين في تيه سيناء. لقد أنجى الله المؤمنين وهُم في ظهور آبائهم، وكانت نجاة آبائهم إقامةً للحُجة على الجيلين معًا، وكان ذكرُ القصَّة في كتابنا الذي نتعبَّدُ بتلاوته تذكيرًا لنا بانحرافهم. فإن اتعظنا، دخلنا تحت قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾[4]. وإن لم تفلح العبرة في ردنا للطريق، حق علينا القول، وحق علينا التيه إلى ما شاء الله.

١٦٥- السُّلطة لا تصنع التغيير، ولكن التغيير هو الذي يصنع السُّلطة.

١٦٦- إن قصَّة الإنسان واحدةٌ مُنذ بدء الخليقة وإلى يومنا هذا، قد تختلف التجليَّات والآليَّات، وظواهر الأسباب والمسببات؛ لكن الداء والدواء لم يتغيّرا أنمُلة. وسبحان من يخلُق ما لا تعلمون.

١٦٧- يُروَى عن المأمون العباسي أنه قال: الجود بذل الموجود، والبُخل سوء ظنٍّ بالمعبود.

---

(١) قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾[سورة: الأعراف؛ ١٢٨-١٢٩].

(٢) قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾[سورة: الأعراف؛ ١٤٨].

(٣) قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[سورة: المائدة؛ ٢٤].

(٤) سورة البقرة؛ الآية ١٣٤.

١٦٨- ما بين أداء الصلاة وإقامتها بونٌ شاسع. فالأول إتمامٌ للأركان والشروط التي يسقُط بها الفرض (على مستوى الحكم الفقهي). أما الثاني؛ فهو تحقُّق هدف الصلاة في عالم الشهود (على مستوى الاعتقاد والفقه تابع له)؛ بأن تكون تجديدًا فاعلًا مؤثرًا لعهد الإنسان مع ربه، فينعكس أثرها فيما ينعكس أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[1].. كل إقامة للصلاة هي أداءٌ لها، وليس كل أداءٍ إقامةً.

١٦٩- لا تُقاس قوتك بحجم تسلُّطك على الآخرين، لكنها تتبدى في مدى امتلاكك لزمام نفسك وقدرتك على التحكم في انفعالاتها. وذلك كما بَيَّنَ المصطفى ﷺ: *ليس الشديد بالصرعة، بل إنه من يملك نفسه عند الغضب*[2].

١٧٠- قال أعرابيٌّ: لقد أصبح لنا من فضل الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، وما ندري ما نشكر؛ أجميل ما نشر أم كثير ما ستر، أم عظيم ما أبلى أم كثير ما عفا. غير أنه يلزمنا في كل الأمور شكره، ويجب علينا دوام حمده.

١٧١- قال لي ربِّي: يا عبدي، لو كان هذا الأمر يُصلِحُكَ لساعته؛ لعجَّلت لك به ويسرته لك، ولسخّرت لك أسبابه من حيث لا تدري ولا تحتسب، ولو اجتمعت الإنس والجنُّ على غير ذلك. أولست أنا القاهر فوق عباده؟ ومن يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له؟ لكن كل شيء عندي بمقدار. ولو اطلعت على ما في علمي، لاخترت ما قضى به حُكمي.

١٧٢- «إن لم تكن شاهد صدقٍ على عصرك، على صراع الحق والباطل في مجتمعك؛ فقد تساوى بعد ذلك مكانك ... سواء كنت عاكفًا في محرابٍ أو غائبًا تعاقر الخمر»؛ علي شريعتي.

---

(١) سورة العنكبوت؛ ٤٥.

(٢) عن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ» قَالُوا: فَالشَّدِيدُ أَيُّمَ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ». رواه البخاري: ٦١١٤، ومسلم: ٢٦٠٩.

١٧٣- تحوُّل الألم من عادة إلى عبادة لا يُغير حقيقة السكين؛ سواءٌ كانت تمزق الروح عشوائيًّا، أو تشذِّبها بمنهجية. فالأنين يظلُّ مُصاحبًا كما النزيف مُلازمًا!

١٧٤- ما بين وجوب القتال وانعدام الإمكان لافتقار القوة؛ يسقُط انعدام الإمكان بآيات الأمر بالجهاد، لكن الوجوب لا يسقُط كما يُقرر علي شريعتي صادقًا.

١٧٥- كيف أطلب ممن لا ينسى ولا يغفل؟ كيف أطلب ممن يرزُقُ من لا حيلة له؟ كيف أطلب ممن قال: من شغله ذكري عن مسألتي؛ أعطيته ولا أبالي؟ كيف أطلب ما لم يتعبَّدني به؟ كيف أطلب ما ساوى فيه بين المؤمن والكافر؟! كيف أطلُب منه أن يُقيم أودي وقد تكفل بهذا حتى للبهائم؟! أأطلُب الرزق وقد كفله لكُل حيٍّ؟! ففيم كان تكريم بني آدم إذن؟! إني أستحي الطلب ممن كفلني قبل أن يُعلِّمني كيف أطلب. إذ كيف أُسيء الأدب باستعجال ما كتبه؟! والله لا أُسيء أدبي معه ﷻ أبدًا، ولا أطلب منه إلا ما يليق بكرامة أصلي الذي منَّ علي به. وأولى بي تحقيق شرط الرزق -إن استبطأته- بالتماس السبب، ويقيني فيه ﷻ قبلها وبعدها هو ما يبقي على حياتي، فقد جعل ربي لكل شيءٍ قدرًا.

١٧٦- ألا فليهنأ المتوكلون.

١٧٧- فشلت مسرحيَّة «المغنية الصلعاء» ليوجين أونسكو، أحد آباء مسرح العبث؛ حين عُرضت في باريس للمرّة الأولى عام (١٩٥٠م). لكن المسرحيَّة التي ليس من بين «أبطالها» أي مُغنيات، ناهيك عن صلعهن؛ قد أصابت نجاحًا مُدويًّا بعدها بعقدٍ من الزمان حين عُرضت في مسرح «الكوميدي فرانسيز» عام (١٩٦٠م). كان تحوُّل أوروبا من العقلانيَّة الماديَّة إلى اللاعقلانيَّة الماديَّة، والذي بدأت إرهاصاته تظهر في حقبة ما بين الحربين؛ قد اكتمل، فتوارى صُنَّاع التاريخ من الأبطال الملحميِّين الذين ميَّزوا حقبة التحديث الماديَّة البطوليَّة، لحساب «لا أبطال» ما بعد الحداثة المستسلمين لمصائر مجهولةٍ، وقوَّضت الحرب الإنسان المتأله لحساب الإنسان/ الشيء المفعول به. إن عبقريَّة المسرحي، الروماني الأصل؛ لا تكمُن في

مسرحيّاته ذاتها، بل في توقيت كتابتها. فقد كان، كدأب أي فنانٍ مُخلص؛ يعكس ما يعتمل في أحشاء مُجتمعه، ويستشرف النتيجة التي سيئول إليها قبلها بزمان.

١٧٨- إن كان الرضا عن النفس ذنبًا، فإن رضاك عن ربك من رضاه ﷻ عنك. اللهم ارض عنا وأرضنا بك يا قُدوس. ذلك أن رضاك عن ربك لا يَصدُرُ منك إليه، بل يَصدُرُ من رضاه هو ﷻ عنك، واطمئنان نفسك في كنفه ﷻ. فمنه الفضل والمن، وعليه الهدى والتُكلان.

١٧٩- أنهيتُ لتوِّي قراءة النسخة الكاملة لرواية «قمر على سمرقند»، لمحمَّد المنسي قنديل. لقد استوعبتني الرواية تمامًا كأنها أسطورة من أساطير ألف ليلة وليلة تجسَّدت كحياةٍ دافقةٍ، فشممت روائحها النفَّاذة بنشوة الأُلفة، ووطئت أماكنها الحميمة بأقدامٍ عرَّاها الشوق، وصحبت شخوصها الفريدة في رحلةٍ إلى أعماقي. إن جمع العمل الفنِّي بين الحسِّيَّة المتوحِّشة والروح المتوهِّجة؛ جعله يستكشف الإنسان في صدقٍ وإخلاصٍ شفوقٍ، فلا يخجل مما يُعرِّيه وإن رفضه؛ وإنَّما يحتضنه ويقبله وإن سعى لتجاوزه. وهذا هو جوهر الانسجام بين المتناقضات الإنسانيَّة الجوَّانيَّة، والذي يتولَّد عن الرؤية التوحيديَّة.

١٨٠- بحُكم العادة وبفعل ثقل وطأة الواقع على الحسِّ الإنسانيِّ؛ غالبًا ما تكون كآبة ذلك الواقع أكثر حميميَّة من وحشة الفردوس الموعود/ المتخيَّل. لذا تستسلم الغالبيَّة لمألوفاتها، بغضِّ النظر عن طبيعة وحُجِّيَّة وحقَّانيَّة تلك المألوفات، فتخلُد إلى الأرض عاجزةً ليس عن تجاوز الواقع المادِّي، بل عن تجاوز صورة ذلك الواقع في شعورها. إن الإنسان لا يُمكن أن يعجز عن تجاوز الواقع المادِّي الذي جُبل على تجاوزه وكُلِّف به، ولكنّه قد يعجز عن تجاوز استسلامه لهذا الواقع. قد يعجز عن تجاوز أوهامه وضلالاته. قد يعجز عن تجاوز نفسه!

١٨١- لماذا اتهمت الكنيسة جان دارك بالهرطقة؛ ثمَّ اعترفت بها بعد ذلك كقدِّيسة؟!!

١٨٢- رُبَّما لم يكُن النعاس هو أكثر ما يدفعني إلى النوم، بل الاطمئنان. الركون إلى إلهٍ لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ. سبحانك ربِّي ولا تُقال إلا لك.

١٨٣- عيّرتني بالشيبِ وهو وقــارُ   ليتها عيَّرت بما هو عــارُ
إن تكُن شابت الذوائبُ منِّي   فالليــالي تُنيرها الأقــمارُ
(المستنجد بالله العباسي)

١٨٤- كان المتنبِّي هو من علَّمني التجاوز قبل أن أقرأ الفلسفة وعلم الكلام. وقد حفرت أبياتُه قداسة هذا الفعل في نفسي، وطبعت بقوافيها سلوكي. فرضي الله عن أبي الطيِّب وأجزل له المثوبة.

١٨٥- ليس الفقر هو الجوع إلى المأكل والعُري إلى الكسوة،
الفقر هو القهر،
الفقر هو استخدام الفقر لإذلال الروح .
(الفنّان العظيم صلاح عبد الصبور مُستنطقًا الحلّاج في مسرحيّته الشهيرة)

١٨٦- كُلُّ نصٍّ بشريٍّ لا يعبُر بك للوحي، فلا يُعوَّلُ عليه.

١٨٧- إذا سألت كريمًا فأمهله يُفكِّر ويُدبِّر؛ فإنهُ لا يُفكِّرُ إلا في خير. وإذا سألت لئيمًا فعاجله؛ فإنك ما أمهلتهُ إلا حال لؤم طبعه دون قضاء حاجتك.

١٨٨- كان وجه سيِّدنا الإمام السجَّاد (زين العابدين بن الحسين بن علي عليهم السلام) تعلوه صُفرةٌ بعد الوضوء، فلما سُئل: ما هذا الذي يعتريك يا إمام؟ أجاب: أما تدرون بين يدىْ من أنتوي القيام؟!

١٨٩- فطوفانُ نوح عند نوحي كأدْمعي   وإيقــادُ نيرانِ الخليلِ كلوعتــي
فلولا زفيري أغرقتني مدامِعــي   ولولا دُموعي أحرقتني زفــرتي
(عمر بن الفارض)

١٩٠- آفة البشر اعتبار الوسائل غايات. وداخل دائرة التوحيد، فإن كُلّ مُختلفٍ فيه وسيلة في ضوء وحدة الغاية: معرفة الله، والتحقُّق بتلك المعرفة. أما في عالم الشرك، فليس ثمة فارق واضح بين الوسائل والغايات، فهي دائرةٌ مغلقةٌ وصيرورةٌ ماديّةٌ لا نهائيّة؛ صيرورة تتبادل فيها الوسائل والغايات المواقع كل حين. فقد تحوّلت وجهة الإنسان من السماء إلى الأرض.

١٩١- يفقد الإنسان نصف عقله حين يلغ إراديًّا في حمأة السياسة، ويفقد النصف الآخر إذا أُجبر على الخروج من «فردوسها»!

١٩٢- رحم الله عمرو بن العاص الذي قال: لا أملُّ ثوبي ما وسعني، ولا أملُّ زوجتي ما أحسنت عشرتي، ولا أملُّ دابّتي ما حملتني؛ إن الملال من سيئ الأخلاق.

١٩٣- يرى أستاذنا علي عزت بيغوفيتش أن الإسلام في مجمله دعوة للالتصاق بالفطرة الإنسانيّة؛ فلا يُبدد الإنسان جهده طمعًا بأن يُمسي ملاكًا معصومًا لأن ذلك مستحيلٌ، ولا يُدني نفسه لدرك الحيوان لأنه لا يجدر به ذلك. وأنا أهدي هذه المقولة لمن يتسمون بالسلفية والعلمانية (بكافَّة طوائفهم وأنواعهم)؛ والذين يتفقون في الكثير برغم اختلافهم الظاهري. فعلى حين يرى الأوّلون أن «المؤمن» كائنٌ ملائكيٌّ لا يُذنب ولا يأثم، فإن الآخرين يظنون أن السقوط هو القاعدة، وأيُّما امرئٍ تاب ورجع عن خطيئته عيَّروه بـ«أصله» كأن الذنب وصمةٌ لا تزول[1]! إن هؤلاء وأولئك يُذكِّرونني بالمجتمع المنحطِّ الذي اصطلاه «جان فلجان» بطل رائعة «فيكتور ايغو»؛ البؤساء. إنه نفس المجتمع الذي ضحَّى بالحلَّاج ورضي بسجن ابن حنبل وكفَّر ابن رشدٍ. إن ما يجمعهم هو التصوُّر الطوباوي (نسبةً للطوبيا) للإيمان أو للكفر، باعتبارهما حالات رياضيَّةً نهائيةً يصل إليها الإنسان ويستقر فيها، وهو ما يُسميه الصوفية مقامًا. إن السلفية (وبعض الشيعة وغلاة الصوفية) هي في جوهرها مقلوبٌ للعلمانيَّة؛ مقلوب الديباجات الحداثيَّة الإلحاديَّة بنفس التصوُّرات. إنهم

(١) هؤلاء غالبًا يلوكون ديباجات وكليشيهات فلسفيَّة غربيّة صادرة عن بيئة ذات خلفيَّة مسيحيَّة تؤمن بالخطيئة الأصليَّة.

يختزلون الإنسان في بُعدٍ واحدٍ؛ روحٌ أو جسدٌ، ويرفضون الإنسان الربّاني المركَّب كأنه جُذامٌ!

١٩٤- كُلُّ ما يفسَد يُداوى بالملح، فيا ويلتاهُ إن فسد الملح! (شِعرٌ فارسي)

١٩٥- **يا هُدى الحيران في ليل الضنى؛ أين أنت الآن، بل أين أنا؟!**
(سؤالٌ قديمٌ قِدَمَ الحيرة الإنسانيّة، وإجابته قديمةٌ قِدَم الحقيقة الربّانيّة، لكنّ آفة حارتنا النسيان!).

١٩٦- الصاحب رُقعةٌ في قميص الرجُل، فلينظُر أحدُكم بم يُرقِّع ثوبه!

١٩٧- إن صانع التاريخ هو المربّي. قد لا يصنع الأحداث، ولكنه يربّي صُنَّاعها. وقد لا يحمل اللواء، لكنه يُربّي من يُطيق حمله.

١٩٨- اللهم إنا نحمدُكَ حمد الرضا بحُكمِك، لليقين بحكمتك. ونعوذ بلطفك ورحمتك أن تجمع على عبادك ابتلاءين. ونسألك إن ابتليت بفقرٍ أن تُعافي من الذلّ، وأن تجنِّب من بلوته ظاهر الشرك وباطنه، فلا يطمع إلا في ما عندك؛ فيتخذ من طاعتك سبيلا.

١٩٩- شتَّان بين استقبال الفجر واستدباره. بين أن تبدأ يومك بصلاة الفجر، وأن تختمه بها. شتان بين أن تخرُج قبله لتتشرَّب نفحات السَحَر الربَّانيَّة، فلا تسمع إلا خُطاك تنقُر دروب الغفلة، وبين أن تعود بعده لتتوي لفراشك. إن مما يجعل لهذه الساعات متعةً خاصةً عندي هو مجالسة المسنين من أهل الحي، قبل وبعد الصلاة، للاستماع إلى حواراتهم والاستمتاع بمزاحهم، وتشرُّب كثيرًا من شعورهم الصوفي العميق الذي لوثته -للأسف- سنوات الخنوع، ولارتشاف كئوس من حكمة الحياة التي أحنت ظهورهم. إنه لا يعادل حبي لهؤلاء الشيوخ سوى حُبي للأطفال؛ نفس البراءة والتلقائية. غير أنها عند المسنين لها طعمٌ خاصٌ؛ طعم الكبد الإنساني. فإذا كان الطفل أقرب للإنسانية من البالغ، وإذا كان النضج والتجربة والكبد يُفقدانا

براءتنا الفردوسية رويدًا رويدًا؛ فإن من بلغوا مبلغ الحكمة هُم أطفالٌ استعادوا براءتهم ثانيةً، ولكن هذه المرة بعد أن فطنوا لتساوي تبرها وترابها. إن الطفل بريء بالنشأة والأصل؛ أما المسن فإنه بريء بالاختيار واليقين. أن تبدأ يومك من حيث انتهت حيواتٌ كثيرةٌ؛ هذا معنًى ضخمٌ لا يُدركه الكثيرون. معنى يُضفي جمالًا خاصًا على صباحك.

٢٠٠- نحنُ عيالٌ على اللُّطف الإلهيِّ، بل إن مدد القيُّوميَّة الإلهيَّة الدائم هو الذي يُقيمنا كما يُقيم الأكوان. هذا حقٌّ لا مراء فيه، لكنَّهُ ليس عقيدةً بالمعنى «الكلامي»، ولا هو من المعلوم من الدين بالضرورة بالمعنى «الأصولي»، بل هو ذوقٌ بالمعنى «الصوفيِّ»؛ حالٌ لا يصلُ إليه كُلُّ أحدٍ، ولا يستقرُّ فيه مُقيمًا إلا آحاد المصطفين الأخيار من أوتاد الأرض. ومحاولة فرض هذه الحال -معرفيًّا- على من لم يذُقه ضربٌ من الخبل. إنَّهُ فرضٌ لنوع من «المعرفة» على من لم يمتلك مصدرها، فهو لا بُدّ جاحدها. إن هذا الفرض القسري خلطٌ وغلوٌّ ورثناهُ عن مُتأخري المتكلّمين «المؤدلجين». فقد تعبَّدنا الله بألوهيَّته والتي من لوازمها الخلق من عدم على غير مثالٍ سبق، لكن الكلام عن ماهية الخلق ومضارعته ذوقٌ وليس عقيدةً. وبعبارةٍ أخرى، فقد تعبَّدنا الله بالمبدأ وليس بالتفصيل الذي جنح إليه المتكلّمون؛ يهرفون بما لا يعرفون. وهناك مثلٌ شهيرٌ على ذلك، يُنسب للإمام مالك حينًا ولحجّة الإسلام أبي حامد الغزالي حينًا آخر؛ حين سُئل عن «الاستواء على العرش»، فقال: الاستواء معلوم (ومُصدّق به بظاهر الكتاب) والكيف مجهولٌ (لأن الكتاب حمّال أوجهٍ ولا يستطيع فردٌ أن يزعم أنه أتى بتفسيرٍ نهائيٍّ ما لم يكُن ذلك مما صحَّ من سُنَّة رسول الله) والسؤال عن المسألة بدعةٌ (فهو تبديدٌ للجهد البشري بعيدًا عن مجال التوجيه الرباني). وقياسًا على ذلك: فالقدرة الإلهية الطليقة على الخلق معلومةٌ، وكيفية ذلك وماهيته مجهولةٌ، والسؤال عن ذلك بدعةٌ. فقد تعبَّد الله العالمين بظاهر كتابه وليس بأحوال الصوفيَّة.

٢٠١- إن جهل ذراري المسلمين بحجم الشر المتربص بهم، لا يعدِلُه سوى جهلهم بحجم الخير الذي طويَت عليه نفوسهم.

٢٠٢- قال لي ربِّي: يا ابن آدم هذا نبيي يونس ألهمته تسبيحي، لأنجيه وأرزقه بهذا التسبيح يقطينة شفاءً وغذاءً. وهذا نبيي أيوب صبر بحولي على بلائي، فأدركته نعمائي وقلت له: ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾[1]. فيا عبدي؛ إني قد جعلت زوال همِّك وشفاء سقمك مُعلقًا بها لا تُدركه من الأسباب. فاقصد من يجلّ الوصف عن الإحاطة بعظمته، لتلحقك فيوضات رحمته.

٢٠٣- يقول البعض أنه لولا المربي، لما عرفت ربِّي. لكنّي أرى هؤلاء يجعلون من المربِّي واسطةً وحجابًا، وأزعم أنه لولا حجاب كشفه ربي عن قلب محجوبٍ مربّي؛ لما عرفه كلانا.

٢٠٤- إذا استنفذت أسبابك وخلت جُعبتُك و أوشك اليأس أن يتملكك، فتذكَّر حال يوسف ، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[2].

٢٠٥- إن الهلع الذي يستعمرني كلما سمعت خطابه ﷻ: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[3] ... هذا الهلع المؤرق لا تخف وطأته قليـلًا -وإن ظلَّ كامنًا- إلا باستحضار الحقيقة التكوينية التي قررها ﷻ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾[4]، فاللطيف

(١) سورة ص؛ الآية ٤٢.

(٢) سورة يوسف؛ الآية ٢١ .

(٣) سورة التوبة؛ الآية ٢٤.

(٤) سورة آل عمران؛ الآية ١٤ .

الخبير الذي يعلم من خلق، ﷻ؛ هو نفسه الرحمن الرحيم الذي يعلم ضعفنا وغلبة الشهوة المغروسة في جبلتنا الطينية. أليس ﷻ من قرر في موضع آخر: ﴿...وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1]؟! لكن الآيتين اللتين تسبقانها مباشرةً توضحان طريق مغالبة ذلك الضعف: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[2] ... إن ملاك الاعتدال يكمُن في استلهام العبرة ممن قبلنا في ضوء الإرشادات الإلهية المعينة، وهو طريق التوبة والغفران اللذان يَعِدُ بهما المولى عز و جل. لكنه غفرانٌ مشروطٌ -كما نستنبط- بصدق المكابدة وحرارة المعاناة، في سبيل التغلب على جاذبية الجبلة الطينية.

٢٠٦- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ (سورة يونس؛ الآية ٨٨).

٢٠٧- رقيق الحال الذي وصفه ربه بأنه لا يسأل الناس إلحافًا هو أحقُّ الناس بزكاتك، رغم أنك قد تحسبه غنيًّا من تعفُّفه عن السؤال. لقد وصفه ربه بعدم الإلحاف لأن سلوكه ومظهره يشي بحاله، فهو يسأل بلسان الحال. يسير مُطرقًا في خجلٍ؛ رث الثياب نظيفها، خفيض الصوت في رضًا مشوبٍ بحُزنٍ، حريصٌ على صلاة الجماعة. فاحرص على صيانة ماء وجهه في كل وقتٍ.

٢٠٨- قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: عجبت لمن فزع من أربعٍ كيف لا يفزع إلى أربعٍ. عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[3]،

(١) سورة النساء؛ الآية ٢٨ .

(٢) سورة النساء؛ الآية ٢٦ - ٢٨.

(٣) سورة آل عمران؛ الآية ١٧٣ .

فإني سمعت الله ﷻ يقول بعقبها: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾[1]. وعجبت لمَن اغتم كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2]، فإني سمعت الله ﷻ يقول بعقبها: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]. وعجبت لمن مُكر به كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[4]، فإني سمعت الله ﷻ يقول بعقبها: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾[5]. وعجبت لمن أراد الدُّنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[6]، فإني سمعت الله ﷻ يقول بعقبها: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾[7].

٢٠٩- نعمتان لا تعدلهما كنوز الدنيا: الصبرُ في يقينٍ، والثبات على الإخلاص.

٢١٠- السلطان بلا دينٍ فرعنة، والدين بلا سلطانٍ رهبنة.

٢١١- يُروَى أن امرأة العزيز قالت بعد أن حصحص الحق ببراءة الصدّيق يوسف عليه السلام: سبحان من جعل الملوك عبيدًا بالمعصية، وجعل العبيد ملوكًا بالطاعة.

٢١٢- تحدَّث أستاذنا عبد الوهَّاب المسيري في مذكِّراته عن ذئاب (شهوات) ثلاث كانت تُناوِشه وتسعى لافتراسه وتقويض إنسانيَّته المركَّبة؛ وهي الذئب الهيغلي المعلوماتي (نسبةً للفيلسوف الألماني الشهير: هيغل)، وذئب الشُّهرة، وذئب الثروة. ولن يؤت الجيل الحالي من شباب ٢٥ يناير إلا من قِبَل ذئب الشهرة. إذ إن

(١) سورة آل عمران؛ الآية ١٧٤ .

(٢) سورة الأنبياء؛ الآية ٨٧ .

(٣) سورة الأنبياء؛ الآية ٨٨ .

(٤) سورة غافر؛ الآية ٤٤ .

(٥) سورة غافر؛ الآية ٤٥ .

(٦) سورة الكهف؛ الآية ٣٩ .

(٧) سورة الكهف؛ الآيات ٣٩، ٤٠ .

الذين خرجوا أمام القوة الغاشمة بصدورٍ مفتوحةٍ واضعين أرواحهم على أكُفِّهم ليسوا طالبي ثروةً، كما أنَّ أكثرهم من الناشطين الحركيين وليسوا من الباحثين الأكاديميين الذين قد يُمثِّل الذئب الهيغلي المعلوماتي خطرًا حقيقيًّا عليهم. إن مكمن الخطر الأكبر هو ذئب الشهرة والأضواء الذي يستدرجهم واحدًا بعد الآخر للظهور الإعلامي في هذا البرنامج أو ذاك، أو لكتابة تعليقاتهم وآرائهم في هذه الصحيفة أو تلك. إن هذا الاستدراج الإعلامي سوف لن يجعلهم أسرى لذئب الشهرة فحسب، بل سيُحيي عندهم الذئاب الكامنة ومنها ذئبا المعلومات والثروة. إن الناشط الحركي حين يتحول لضيفٍ دائمٍ على الإعلام سوف يجف معينه بعد وقتٍ جد قصيرٍ، فإن ألحت الشهوة عليه سعى جاهدًا لامتصاص ديباجات سطحية تمنحه قدرًا من التجدُّد ومن ثم القُدرة على الاستمرار. إن هذا «الإدمان» الإعلامي سيُحوِّل الظهور لغرضٍ في حد ذاته، ثم لوسيلةٍ للتربُّح السهل. إن هذه الطريق سوف تؤدي لإحياء الذئاب الثلاثة بالتدريج في نفوس من انزلقوا إليها.

٢١٣- وليتها إذ فدت عمرًا بخارجة فدت عليًّا بمن شاءت من البشر![1]

من الأبيات القليلة التي تُبكيني كلما ذكرتها. فحين تآمر الخوارج على قتل الإمام عليٍّ وابن العاص وابن أبي سفيان؛ نفذ القضاء في الإمام عليٍّ الذي يُروَى أنه كان يمُرُّ بالشقيِّ ابن ملجم يوميًّا، فيسأله: أما آن لك أن تضرب هذه (مشيرًا إلى جبهته) فتخضب هذه (مشيرًا إلى لحيته)؟ ولم يعتقله بالشبهة ولا تحفظ عليه لأنه خطرٌ على «أمن الدولة»!! أما عمرو فقد مرض ليلة قتله، واستخلف على الصلاة صحابيًّا مغوارًا هو الشهيد خارجة بن حذافة ﷺ. ولم يكن القاتِل يعرف عَمرًا. فأراد الخارجيُّ عَمرًا وأراد الله خارجة، فذهبت مثلًا.

فليت الأقدار إذ فدت عَمرًا بخارجة، فدت عليًّا بمن شاءت من البشر. ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

(١) البيت من قصيدة شهيرة مطلعها:
الدهرُ يفجعُ بعد العين بالأثر فيما البكاءُ على الأشباحِ والصورِ
للشاعر الأندلسي، أديب عصره؛ ابن عبدون الفهري، الشهير بذي الوزارتين.

٢١٤- من أبرز معالم الجيل المتصدّر من الإسلاميين المتحزّبين:

أولًا: حساباتهم السياسية الكارثية على طول الخط. ينبطحون حين يجب التصعيد، ويصطدمون بالسلطة، لحساباتٍ شخصيةٍ غالبًا؛ حين تكون الدعوة في أضعف حالاتها.

ثانيًا: هيمنة نموذج الهندسة الاجتماعيَّة الإلحادي على عقولهم، وتوهُّم إمكان تحقُّق الدين في النفس والمجتمع بمجرد تقنين بعض الأحكام الفقهية لضبط الواقع البراني.

ثالثًا: هيمنة فكرة بلوغ السلطة كطريقٍ أوحد للتغيير. وعلى عكس ما يظن الكثيرون، فإن العريان والظواهري -مثلًا- يلتقيان في وهم «الدولة الإسلامية»، وخلافهما مجرد خلاف في الإجراءات ومجال عمل الدولة. لكن النموذجين يدوران في إطار الدولة القوميَّة الحديثة.

رابعًا: ربط نجاح «الدعوة» بالعلو في الأرض اقتصاديًّا وسياسيًّا. وهو مخالفةٌ صريحة لظاهر المنهج القرآني، ولسير الأنبياء وعلى رأسهم المعصوم ﷺ.

خامسًا: اعتبار الحركة/ الجماعة/ الحزب/ الدعوة/ الشيخ/ الداعية ممثلًا للإسلام، ورويدًا رويدًا يُمسي هو الإسلام ذاته. ومن ثم يُصبح نقده هرطقةً، والخروج عليه ومخالفته فسقًا وضلالًا.

٢١٥- يُخبرنا التاريخ أن الثورات تُخلخل موازين القوى؛ لتفرض واقعًا جديدًا على الأرض. فإن كانت أضعف من ذلك وعجزت عن فرض واقعها المرتجى؛ تحوّلت لحركةٍ احتجاجيَّةٍ وظاهرة صوتيَّةٍ عديمة الجدوى، لتجني مكاسبها أي من القوى التي تستطيع فرض واقعها الخاص على الفضاء السياسي. إن الثورة لا تُطالب كالشحَّاذين وتنتظر من يقوم بعملها نيابة عنها، بل تُغيِّر بنفسها؛ باليد.

٢١٦- أكثر العوام يعبدون القوة ويُقدِّسون البطش! وما من طاغوتٍ في تاريخ الإنسانية إلا اصطفَّت وراءه الدهماء، تُصفِّق وتدعم ... وتؤلِّه!

٢١٧- للحياة معنًى لا يُمكن فهمه في أغلب الأحيان، ولكن يُمكن دائمًا الشعور به.

٢١٨- «لا زال أكثرُ المسلمين غير مُقتنعين بأنه لا يُمكن إثبات وجود الله، عزّ وجلّ، بالإشارة إلى كتابه»؛ مراد هوفمان.

٢١٩- لا أذكر أين قرأت هذه القصّة رغم عظم دلالتها: «سمعنا من بلاد فارس حكايةً عن فأس ليس فيها عود أُلقيت بين الشجر. فقال الشجر لبعض: ما أُلقيت هُنا لخير! فقالت شُجيرةٌ صغيرة: إن لم يدخُل في إست[1] هذه عودٌ مِنكُنّ، فلا تخفنها»!!

٢٢٠- يروى أن الإمام الصادق عليه السلام قال: من طلب ما لم يُخلق؛ تعب ولم يُرزق. قيل: وما ذاك يا إمام؟ قال: الراحةُ في الدنيا.

٢٢١- خُلق الإنسان ضعيفًا بشهادة خالقه تعالى، ومع ذلك يغترُّ بقوّةٍ متوهَّمةٍ. وقد اختار بجهالته حمل الأمانة؛ ليسقُط تحت وطأة ثقلها. اختار أن يقضي عُمره القصير كـ«سيزيف». يدفعُ الصخرة لأعلى الجبل، فإذا ما أوشك على بلوغ قمّته؛ تدحرجت به للسفح ليتجدد عذابه ما دام التاريخ. فويلٌ له إن تركها، وويلٌ له إن لم يتغمَّده الله برحمته.

٢٢٢- لأننا لا نُدرك الواقع الموضوعي كما هو، بل كما نتخيَّله؛ لذا كان الحُبُّ أقرب للوهم منه للحقيقة، فهو يعتمد على الصورة الذهنيَّة المتخيَّلة للمحبوب؛ أي على خريطة المُحبِّ الإدراكيَّة. وبرغم ذلك، فإن هذا الوهم هو محور حياة أكثر بني آدم!!

٢٢٣- ولن يُقيــمُ على ضيمٍ يُســامُ به إلا الأذلانِ؛ عيرُ الأهلِ والوتدُ
هذا على الخسفِ مربوطٌ برُمّتهِ وذا يُشَـــجُّ فما يرثـى له أحـدُ!!

(المتلمس الضبعي)

---

(١) الإست هو المؤخرة.

٢٢٤- كما لا يُمكن أن يُجيزك إلا من هو أعلم منك، كذا لا يستطيع تقييمك من كان دونك. وقد يجوز تقييم الندِّ إذا تجرَّد من الهوى، وهذا نادرٌ.

٢٢٥- اللهم ارزقني توكُّلًا قوامه اليقين فيما عندك عمَّا ملَّكتني، ثم ارضَ عنّي، واجعل تبرها وتُرابها في عينيَّ سواءً، ثُمَّ أرضني بك وخلِّ قلبي ممن سواك.

٢٢٦- يُفضِّلُ أكثر بني آدم العمى. بل يعشقونه لما يمنحهم من طُمأنينةٍ، ولو كانت زائفةً. إذ إن ألَمَ تفتُّق الإدراك واستنارة النفس أشدُّ حُرقةً من ألم الحواس! نعوذ بالله من هذا العمى؛ عمى البصائر.

٢٢٧- «يبدو أن تعاستنا تتناسب طرديًّا مع كثرة امتلاكنا للأشياء»؛ موليير.

٢٢٨- إن لم تستشعر أُمومتها، فلا تتزوَّجها. وإن لم تكُن لها أبًا، فما أنت بروحٍ كاملٍ.

٢٢٩- كان المجاهدون الأفغان أكثر حرصًا على الحياة من إخوانهم العرب. بل كانوا يتهمونهم أحيانًا بالجنون بدعوى أنهم -أي الأفغان- يُريدون الشهادة في آخر العُمر؛ بعد أن يكونوا قد أنهكوا أعداء الله وأذاقوهم الأمرّين. فكان بعضُ العرب يُجيب باسمًا: وهل تأتي الشهادةُ إلا في آخر العُمر؟!

سأموت حين ينتهي أجلي، وما موعد وفاتي إلا نهايةُ أجلي!

٢٣٠- حين لم يجد الحُطيئة الشاعر من يهجوه؛ هجا نفسه! ولله في خلقه شئون!

٢٣١- ليس الإنسانُ سوى باقة ذكريات. أحداث مُسلسلٍ تاريخيّ نهرب منه، لكننا نحنُّ إليه؛ فنتوقف بين أشواط الحياة لنُلقي نظرةً حانية على ذلك الماضي. نظرة شوقٍ حتّى لآلامه التي شُفيت مُخلِّفةً ندوبًا غائرةً في الروح والوجدان. إن الإنسان كائنٌ تاريخي بكُلّ ما تحمله الكلمة من معانٍ.

٢٣٢- من أشدِّ أبيات الهجاء قسوةً في نظري، برغم أنها قد تبدو للبعض هيِّنةً؛ قول دعبل:

أما الهجاءُ فدقَّ عرضُك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرضٌ عززتَ به وأنت ذليل

٢٣٣- الفنَّان الحقيقيُّ لا يُمكن أن يغلب شرُّه خيره، كما لا يُمكن أن يصير مُلحدًا ولو جهر بذلك! وإن سلمنا بإلحاده، جدلًا؛ فهو إلحادُ اليائس المُخيّب وليس إلحادَ المعانِد المُكابِر ... إذ لولا صدق تلك المعاناة، لما كان الفنُّ.

٢٣٤- كانت أم المؤمنين الصدِّيقة بنت الصدِّيق، عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما؛ تستشهد ببيت شعرٍ لـ«لبيد بن ربيعة» يقول فيه:

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم وبقيتُ في خلفٍ كجلدِ الأجربِ!

وكان ابن اختها، عُروة بن الزبير؛ الذي عمَّر بعدها طويلًا يجترُّ البيت في حسرةٍ! وظلّت الأجيالُ تتداولُ البيت حتَّى رواه لنا الأصفهاني وهو يكادُ يشُقُّ جيوبه على ما آل إليه حال الناس في زمانه! ولا أعرف أحدًا سمع البيت أو قرأه؛ إلا وهو يراهُ غضًّا طريًّا صالحًا لزمانه، كأنهُ قيل لتوِّه! إن هذا البيت مثالٌ رائع على الصدق الفنِّي. مثالٌ على الفنِّ الذي يُعبِّرُ عن روح الإنسان في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ. إنَّهُ يحتذي الوحي في إخلاص، وينقلك لرحابه في سهولةٍ وسلاسةٍ؛ أوليس الإنسانُ في خُسرٍ؟!

٢٣٥- اللهم إني أحبُّك فأحبَّني، وأُحبُّ معيَّتك فلا تحرمنيها، وأرجو لقاءك فتقبَّلني بقبولٍ حسنٍ.

٢٣٦- ندوب الروح أختامٌ على أوراق وجودك. إنَّها دليلُ حياتك؛ الدليلُ على بقائك حيًّا رغم خوضك للجحيم. إن هذه الندوب تعني أنَّك قادرٌ على تجاوز ما تصطليه!

٢٣٧- في يانصيب الأرواح فُزتُ بالجمال الوحيد في عصر القُبح. اقتطفتُ آخر وردةٍ قبل أن يُقفر الكوكب ويستحيل أرضًا يبابًا تسكُنها الأرواح المشوَّهة،

ويستطيلُ فيها الجمالُ المزيّف. حينما أُفكِّرُ فيكِ أشكُر الباري الذي أعمى عنكِ عيون خلقه، لأُرزقكِ! بل أشكُرهُ على الطريق الطويل الموحش الذي اجتزتُهُ مُثخنًا، فقد وجدتك في نهايته.

٢٣٨- اللهم إنِّي أحمدُك حمد من بسطت له الرزق فشكر، وأُثني عليك ثناء من قُدِرَ عليه رزقه فصبر.

٢٣٩- الانفصامُ بين العمل والمعتقد تضييعٌ للعُمر. فإن كُنت تؤمنُ بشيءٍ، أي شيءٍ؛ فمارسهُ في الواقع حتى تقترب نفسك من حقيقة التوحيد، ولو كان فِعلُكَ مُناقضًا لملَّة إبراهيم! إن لذلك ثمنًا ضخمًا، لكنَّهُ ليس أضخم من أن تُضيِّع حياتك في فعل ما لا تؤمنُ به. إنّك مُكلَّفٌ بالاختيار، فلا تُهدر إنسانيَّتك بإهدار حقِّها في الاختيار. كُن شُجاعًا واختر مصيرك، ليتطابق ظاهرك وباطنك.

٢٤٠- كُنتُ أستشعرُ اليُتم حتَّى امتلأت بحُبِّ خليل الرحمن؛ أبي إبراهيم عليه السلام. وكثيرًا ما ظننت أنِّي أُحبُّه أكثر من حفيده المصطفى العدنان ﷺ؛ حتَّى اكتشفتُ أن علاقتي بكُلٍّ منهما تختلفُ كُليًّا عن علاقتي بالآخر. بل ولا يُمكن مُقارنة العلاقتين أصلًا. إذ يُمثِّلُ أحمد اكتمال النبوَّة وختم الرسالة، وإحكام الصلة بالوحي الحاكم، فهو قدوةٌ واجبةٌ وممكنةُ الاحتذاء في أفعالِه وأقوالِه. أمّا إبراهيمُ فيُمثِّلُ الأبوّة، ليس بالمعنى البيولوجي السخيف، ولكن بالمعنى الروحيّ الشفيف. القدوة الإنسانيّة التي تُحبُّ احتذاءها لقُربها من طبعك. إنَّهُ يُعبِّرُ عنّي وعمَّا يشغلني ويملأ شعوري؛ يُعبِّرُ بحرارةٍ وتلقائيَّةٍ فريدتين. إن تحفُّظ سيدي أحمد يستُرُ عنِّي إنسانيَّته المُركَّبة شعوريًّا، فلا أشعُر أنِّي ورثتُ منهُ شيئًا برغم حضوره الراسخ في شعوري ووعيي التاريخي. أمَّا حرارةُ حضور أبي إبراهيم، فتغلب فيها إنسانيَّته على نبوَّته في وجداني، وتجعلني أشعُر بأني ورثت منه قلقه الوجوديَّ المضني، ولهفته في البحث، وسُخريَّتهُ من الشرك واستهانته بسدنته واستعلائه على مظاهره، لأطمع بوراثة تسليمه الكامل لربِّه. وقد أدركت أخيرًا أنِّي أتناولهم بحسٍّ فنيٍّ، فإن ذلك الذي كان أُمَّةً؛ هو في شعوري شخصيَّةٌ دراميَّةٌ ثريَّةٌ.

٢٤١- التمركز حول الذات هو مهرب أكثر أصحاب التجارب العاطفية الفاشلة. قد يكون دواءً ناجعًا للحظاتٍ يستعيد فيها المخذول المثخن توازنه، لكن دوامه كارثيٌّ.

٢٤٢- تنشغل بعض الجماعات «الإسلاميّة» المُسلَّحة بمُحاربة العدوّ الداخلي، فتحذو في ذلك حذو مدرسة ما بعد الكولونياليّة وسائر التيّارات الرومانتيكيّة؛ في محاولة تطهيرها للواقع من العناصر «المعادية» لأيديولوجيَّتها، وصولًا إلى «جحيم» الطوبيا المنشودة! على الجانب الآخر؛ نجدُ أن نبيّ الإسلام ﷺ قد أُمِر بقبول علانية المنافقين وإيكال سرائرهم إلى الله حفاظًا على تركيبيَّة المجتمع الإسلامي وتنوُّعه، والتي اقتضتها المشيئة الإلهيَّةُ ابتداءً، رُبَّما لموافقتها لمغزى الكَبَد الإنساني داخل التاريخ. بل لقد اقتضت المشيئةُ الإلهيَّة عدم مُلاحقة المنافق أو الكافر قضائيًّا -باصطلاحنا المعاصر- إلا إذا ترتَّب على اعتقاده أثرٌ ماديٌّ برَّانيٌّ، يُمكن قياسُه؛ تهديد النظام العام للمجتمع الإسلاميّ.

٢٤٣- الضلالُ لُغةً هو أن تكون صاحب غايةٍ مُحددةٍ، فتضلُّ عنها الطريق وتنحرف بك السُّبل. إن الإنسان عابدٌ بفطرته، لكنَّهُ قد يضِل طريقه إلى الله؛ فينحرف مُشركًا به أو معه، وهذا حال الكثرة. نعوذ بالله من الشرك ما ظهر منه وما بطن.

٢٤٤- ظلت أبيات لنزار قباني، من قصيدته التي رثى فيها زوجته «بلقيس»؛ تُلِحُّ عليّ كأنها تسألني ردًّا، وهي التي يقول فيها :

هل يولد الشعراء من رحم الشقاء،
وهل القصيدة طعنة في القلب ليس لها شِفاء،
أم أنني وحدي الذي عيناه تختصران تاريخ البكاء؟

والآن أجيبه بملء فمي :

... هم للحق عين الولاء،
أحرارٌ و أبرارٌ في سوح البغاء،

أبياتهم تجلد نفوس الخانعين،
وسكونهم اتهامٌ يفتك بالغباء.
قومٌ ما لهم من راحةٍ رواء،
و ما هنيءُ العيش لأوجاعهم بدواء،
ولولا تجرُّعُهم حنظل الأيام عذبًا؛
ما كان لدنياهم من بقاء.
هم المخلصون إذا أعلوا في البكاء،
وآلامهم تحدو الأمم نحو الشفاء،
فَهُمُ الفداء على نُصُبِ العذاب ...
نعم ... «يولد الشعراء من رحم الشقاء»!

٢٤٥- يا للمتنبي، كم بيتًا عبَّر به عن مكنون صدري ...

أقـــلَّ اشـتياقًا أيها القلـــب ربما   رأيتك تُصفي الود من ليس صافيا
خُلقتُ ألوفًا لو رجعت إلى الصبا   لفارقتُ شيبي موجعَ القلبِ باكيا

٢٤٦- للأمم أعمارٌ وأطوارٌ كالبشر. فالعقيدةُ تحدو الأمة أولًا ريثما تمتلك قوةً مادية لدعمها. ثم يزدهر العلم جنبًا إلى جنبٍ مع القوَّة المادية في ظلال العقيدة. ثم تنفصل القوة المادية كهدفٍ مُجرّدٍ، ويسعى العلم في خدمة الهوى، وتذبُل العقيدة في النفوس شيئًا فشيئًا حتّى لا يبقى سوى الترف ينخُرُ في بنيان الأمَّة، ويحدوها للانحطاط.

٢٤٧- قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: السيفُ أنمى للعدد ... !

٢٤٨- الحمد لله الذي منَّ علينا بالإسلام، وأقام علينا حُجَّته خير الأنام، وحفظ لنا صراطه بيِّنًا بالقرآن؛ ليهتدي به من شاء من إنسٍ أو جان. الحمد لله رب كل شيءٍ، القاهر فوق كل شيءٍ، من يعلم ما جاشت به الخواطر، وانطوت عليه السرائر. الحمد لله الكبير المتعال، مُقلِّب القلوب من حالٍ إلى حالٍ، من هيمنت ربوبيته على كل مخلوق، ولو أنكر ألوهيَّتهُ جاحدٌ عقوقٌ. الحمد لله ذي العزَّة والجبروت، الحي الواحد الذي لا يموت.

٢٤٩- قال المختار المعصوم ﷺ؛ صادقًا: *كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة (الإسلام)، فأبواهُ يهوِّدانه، أو يُمجِّسانه، أو يُنصِّرانه*[1]. أي لو تُرِكَ الوليد بفطرته بغير تشويه؛ لاختار الإسلام حتمًا ... لكن كثيرًا من المصريين -وأكثرهُم من المسلمين!- يلوّثون فطرة أبنائهم ويُنصِّرونهم عامدين متعمدين! نعم ... يُنصِّرونهم؛ لكن ليس على ملَّة المسيح عليه السلام، و لا حتى على خرافات المجامع ... إذ للمصريين فهم شاذ، فهم يُنصِّرون أبناءهم ليُصبحوا ناصريين! أي ينتسبون إلى عبد الناصر، الطاغوت المهزوم - عليه من ربّه ما يستحق - فينشأ المغفَّلون منا على أن ناصر الصهاينة هو بطل العروبة والإسلام المغوار! والذي لم يأته الباطلُ من بين لحييه أبدًا ... كيف وتاريخنا ما بدأ إلا به؟! وما تعرَّفنا إلى العزَّة والكرامة إلا بعد أن سلبنا إيَّاهم؟! لينشأ البعض مدينين له بوجودهم، ولخلفه الأنذال بالتبعيَّة! وقليل ما هم؛ من يكشف لهم ربك زيف ما انتحلوا، فيروحون يُصلحون عقائدهم لتُراق دماؤهم وتُنتهك أعراضهم، وهم يسعون لاستنقاذ أمّةٍ غافلةٍ؛ تتسلى بمنظر القتلى في بلاهةٍ!

٢٥٠- في مرحلة الهضم يحدُث تنزيلٌ للمعرفة على الواقع. فيُفكك الواقع ويُحاكم للقيم التي اعتنقناها. لذا، فإن وصف المرض وأعراضه ونقد مسلك المرضى وإهمالهم؛ هو المرحلة السابقة مُباشرةً على توصيف العلاج إتمامًا لدورة الأفكار في المجتمع.

٢٥١- استقال الأستاذ كمال الهلباوي من جماعة الإخوان المسلمين بعد ٢٥ يناير بحوالي العام، لاحتجاجه على تهافُت مواقف الجماعة وأنانيَّتها. إن كارثة هؤلاء المستقيلين -ومنهم عبد المنعم أبو الفتوح ومحمد حبيب- أنهم يعتبرون ظاهرة الانحراف الإخواني التي تُعبِّرُ عن نمطٍ واضحٍ مُطرد؛ مُجرَّد انحرافٍ سلوكيٍّ مُتعلِّق بإجراءات اتخاذ القرار أو إنفاذُه، وليس ثلمةً حقيقيَّة في التصوُّر الإسلامي. وهُم معذورون في ذلك أشدَّ العُذر، إذ لا يُمكن للإنسان الاعترافُ -ولو لنفسه!- بأنه

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» ثُمَّ يَقُولُ: أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].
أخرجه البخاري: ١٣٨٥، ومسلم: ٢٦٥٨.

ضيَّع عُمرهُ في وهمٍ، بعد أن أفنى عُمرهُ كُلَّه في صفوف التنظيم. وهو ما قد يتجاوز نصف القرن في حالة البعض. إنَّ مثل هذا الاعتراف يحتاج لشجاعةٍ مع النفس، شجاعة فائقة قد لا يمتلكها أصلًا أيٌّ من أبناء ذلك الجيل المنكود. شجاعة أدبيَّة وقوَّة نفسيَّة تحفظُ على صاحبها عقله حين يُهيلُ التراب على عُمره المهدور. ولذا، فإن أكثرُهم يُفضِّل -لا إراديًا في الغالب- شخصنة الموضوع وتصوير نفسه في صورة ضحيّة المؤامرات على شخصه؛ المؤامرات التي لا تطعن في تصوُّرات الجماعة بقدر ما تؤنسنها. فكأنهُ اتفاقٌ ضمنيٌّ؛ يحتفظ بموجبه المنشقّ بسلامة عقله واتزان نفسه بل وتقديره لذاته «المناضلة» «المضطهدة»، وتحتفظ الجماعةُ بتماسُكها التنظيميِّ؛ ليخرُج محمود غزلان إلى العلن بصفاقته المعهودة زاعمًا أن الهلباوي لم يكُن عُضوًا في الجماعة، ثم يُصرِّح خيرت الشاطر بأن الهلباوي لم يكُن قياديًّا مُهمًا!!

٢٥٢- عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه كان يدعو قائلًا: اللهم إن ذنوبي لا تضرُّك، ورحمتك إياي لا تُنقِصُك، فاغفر لي ما لا يضُرُّك، وهبني ما لا يُنقصك.

٢٥٣- رُزقت مرةً بغير حسابٍ، ثم استسلمت لنفسي بعدها واستولى علي التفكير في قلة ما في يدي، وقلقت على الرزق المُغيَّب؛ أيأتي؟! فلما أفقت إلى جُرمي قُلت لنفسي: ويلك؟! أرزقت نفسك في الأولى فتقلقين على رزقها في الثانية؟! وما كان بين الحال الأولى والثانية إلا «كُفر/ غفلة» لحظةٍ عن قوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[1]. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم إنا نسألك الثبات.

٢٥٤- ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾.
(سورة الطلاق؛ الآية ٣).

٢٥٥- حين تُفصح الكلمات عن بكم أصيل وتفقد قدرتها المألوفة، فإن بمقدورنا إدراك ما وراءها؛ إدراك ما لم تستطع الحروف القاصرة الإحاطة به ... هذا فقط إذا كنا ننتمي لبني الإنسان!

---

(١) سورة النحل؛ الآية ٩٦ .

٢٥٦- حنوك على الآخرين ومشاركتهم أحزانهم يُحَرِّرُكَ من آلامك الشخصية، ويجعلك أكثر تجرُّدًا.

٢٥٧- اللهم اكلأنا بعين رعاية أوليائك، وسددنا بعلمك الأزلي الذي لا يعزُب عنه مثقال ذرةٍ، ويسِّر أمورنا بقُدرتك على كل شيءٍ، وبارك لنا في كُلِّ شيءٍ، بفضلك وكرمك وجودك يا حليم يا عظيم.

٢٥٨- ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.[1]

يُجدد القرآن، على لسان الكليم موسى عليه السلام، معايير من يورثهم الله الأرض بإذنه. وبرغم أن الأمر منوطٌ بالمشيئة الطليقة القاهرة، لكن الله جعل له شروطًا واجبة التحقُّق في المستخلفين. إن الصبرَ وصحة الاستعانة بالله هما معيارا التقوى، فبهما يتحقق الاستخلاف في النفس قبل أن يأذن الله بتحقُّقه على الأرض. وليس الصبرُ والاستعانة بالله مرادفين للخنوع والذلة وطاعة المتغلِّب من العبيد، كما أساء كثيرٌ من ذراري المسلمين الفهم. إذ الصبر هو تحمُّل البلاء الذي لا تستطيع له دفعًا، تحمله في الله فقط، وذلك ما وصفه سعد بن معاذ عليه رضوان الله: إنا لصُبرٌ في الحرب، ولم يَقُل صُبر على الضيم! أما الاستعانةُ فهي سلامة اليقين في المولى ﷻ كما يُستفاد من حديث النبي ﷺ المشهور لابن عباس[2]، ومن قول صفيّه وربيبه؛ الإمام عليٍّ عليه السلام في تعريفه للتقوى بأنها: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعدادُ ليوم الرحيل. إن وراثة المؤمنين للأرض حتميَّة قرآنية ومسئولية ربانية لا تتحقق إلا بتحقُّق معنى الاستخلاف في النفس أولًا، ولا تتحقق بمجرد امتلاك سلطة

(١) سورة الأعراف؛ الآيات ١٢٨، ١٢٩.

(٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. رواه الترمذي: ٢٥١٦، وصححه الألباني.

على الأرض بالمواءمات والمقاربات السياسية البراغماتية التي يجترحها من تسمَّوا بالإسلاميين. إن الذين يحلمون بسلطة فوقية تُقيم الشرع الإلهيَّ هُم في حقيقة الأمر واهمون مُضلَّلون. ولوكان سيد الأنبياء حاضرًا اليوم، لقالوا له مثلما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ ﴾[1]؛ إنهم يريدون غير ذات الشوكة. أو هُم يظنون قزامة ما واجهوا وسخافة ما احتملوا هي ذات الشوكة! إنَّهُم يجهلون أن ذات الشوكة، التي يُحق الله بها الحق ويُبطل الباطل؛ هي عملٌ ضخم ليسوا مؤهلين لخوضه بمنطقهم، منطق شعب الله المختار. إن منطق الشعب المختار يَحُول بين هؤلاء وبين استفادة العالم منهم، بل يحول بين هذا الشعب المختار وبين تحقُّق منطق الاستخلاف فيه.

٢٥٩- اللهم إني أسألك أن تبسط لساني بشكر النعمة منك، وكفى بسلامة البصيرة من نعمة تعبّدتني بها ما كتبت عليَّ الحياة في كنفك.

٢٦٠- عجبت ممن ضاق رزقه كيف لم يفزع إلى دُعاء الكليم موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2]؛ فإن ابنة الرجل الصالح جاءت بعقبها تدعوه للقاء أبيها، ورُزِقَ بدعوته زوجًا وبيتًا وعملًا دام عشر سنوات!

٢٦١- البرُّ شيءٌ هيِّن؛ وجهٌ طلقٌ، وكلامٌ ليِّن!

٢٦٢- مما يُنسبُ للكثيرين من أئمَّة هذه الأمّة (العزُّ بن عبد السلام وابن تيمية وغيرهما)؛ القول بأن: القتلُ شهادةٌ، والسجنُ خُلوةٌ، والتشريدُ سياحةٌ، والنفيُ هجرةٌ. فتأمَّل كيف كانت حيوات هؤلاء الأولياءِ، الذين تشكّلوا بالعبوديَّة الحقَّة؛ تمثُّلًا صادقًا لقوله سُبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3]، وكيف أنهم لا يرون إلا رحمة الله في كُلّ نازلةٍ. فالقتلُ على حالهم شهادةٌ في سبيله،

---

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٢٩.

(٢) سورة القصص؛ الآية ٢٤ .

(٣) سورة الأنعام؛ الآية ١٦٢.

والسجنُ خُلوةٌ يُتقرَّبُ فيها وبها إليه، والتشريدُ سياحةٌ في أرضه للنظر في مُلكه والتعرُّف على بديع صُنعه وعظيم آلائه، والنفيُ والإبعادُ من المنزل المألوف والموطن المعتاد هجرةٌ إليه تعالى. وصدق سُبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

٢٦٣- اللهم إنَّك أمرت أبينا إبراهيم بالأذان فينا بالحج ونحن بعدُ في عالم الذر، وآليت على نفسك البلاغ؛ فاللهم بلاغًا لقلوبٍ لبَّت من قبل البلاغ؛ (البلاغ هو الإذن أو الدعوة بلغة المتصوفة).

٢٦٤- لا «تمنح» المحتاج صدقةً مقطوعة، ولا تُعوِّدْه انتظارها وتوقُّعها. بل ولا «تمنح» طفلك شيئًا بلا مُقابل. إنّ ذلك لا يجعلُ المتلقّي يعتادُ التبطُّل ويُدمِنُ الإلحاف ولا يستحي من إراقة ماء وجهه فحسب، فلا يشعُر للرزق بقيمةٍ. بل يجعلُك في حسِّه مركزًا/ رزَّاقًا يُعطى بلا سببٍ، فينحرفُ توجُّهه لا شعوريًّا عن ربِّه متوجِّهًا إليك. ثمَّ مُنحدرًا لاعتبار ما ينالُه منك حقًّا مُكتسبًا بغير جهدٍ. فإن امتنعت أثَّر ذلك في دينه، وأجج العداوة بينكُما. إن ذهنيَّة الصدقة هي ذهنيَّة المُتلقِّي المفعول به التي نهى عنها النبيُّ صلوات الله وسلامه عليه في قوله: *اليدُ العليا خيرٌ من اليد السُفلى*[2]. لكن أهذا نهيٌ عن الصدقة بالمُخالفة للأمر النبويِّ؟ بالطبع لا، ولكنِّي أُريدُ تقييدها بشروطٍ مُستقاة من واقع فهمي لسيرة المصطفى وسُنَّته. وما ذلك إلا بأن تجعل صدقتك أو هِبتك مرهونةً بعملٍ، ولو صوريٍّ. حتَّى لو كان ذلك بحفر حُفرةٍ ثمَّ ردمها، ليرسخ في وجدان مُتلقِّيها ألا مناص من الكدح في سبيل الرزق. أمَّا طفلك، فلترهن عطيَّتك له بتعلُّم شيءٍ جديدٍ، أو إسداء يد للغير. تقبَّل اللهُ منَّا ومنكم.

(١) سورة يونس؛ الآية ٦٢ .

(٢) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَهُوَ يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى السَّائِلَةُ» .
رواه البخاري: ١٤٢٩، ورواه مسلم: ١٠٣٣ .

٢٦٥- من حِكَم العارف بالله سيدي ابن عطاء الله السكندري: شتان بين من يَستَدِلُّ به أو يستدل عليه؛ فالمستَدِلُّ به عرف الحق، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلا فمتى غاب حتى يُستدلُّ عليه، ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هي الموصلة إليه.

وقد كتبتُ على هامشها: إلهي؛ كيف أستدلُّ على وجودك وأنت من يُستَدَلُّ به؟! ومن أكون حتَّى أستدلَّ على وجودك بوجودي؟! وهل يُستدلُّ على الأكمل بالنقص؟!

٢٦٦- يا من لا تُدرِكُكَ الأبصارُ لكمالِ ذاتِك، وتدرِكُ الأبصارَ لإحاطةِ صفاتِكَ... رأيتك يا ربِّ ... رأيتك في نفخة روحك التي أسكنتها الطين، فرفعت بها مقام الوحل لأمين ... رأيتك في نفسي؛ في طابع الخير القدسيِّ، وفي دفَّة النفسِ... وعرفت كيف تزن عملي بنيتي، بإيمانٍ طبعته على خلجات نفسي، لا بحرفة راج بها دنسي ... وأيقنتُ أن الغرس الذي تكلؤهُ عين رعايتك باسمك القيُّوم قد أعيا إبليس وذريته بعدما درست القوانين وذابت المدونات وتهاوت البِنى؛ لتزداد نضارته ... فتحررت من كلِّ شيءٍ، وتبرأت وبرئت من كل حولٍ وقوةٍ إلا مشيئتك ... لا إله إلا أنت لا شريك لك، و لا شبيه ولا مثيل ... تباركت وتعاليت، سبحانك أنت كما أثنيت على نفسك.

٢٦٧- حين يُقرر المولى سُبحانه أنّهُ قدر فيها أقواتها في أربعة أيام[1]، ويبدأ «علم الاقتصاد» مباحثه بما يُسمّيه «مشكلة النُّدرة»، فإن ذلك يعني فورًا، وبلا أدنى تردُّدٍ؛ أن ما يُسمَّى بـ«علم الاقتصاد» ليس سوى تجهيل وتضليل واستعباد. إنَّهُ سُبحانهُ يُقررُ حقيقة تكوينيَّة؛ وهي احتواءُ الأرض بإذن ربِّها على ما يكفي خلقه جميعًا من القوت، سواءً للسائلين؛ ما دام الليل والنهار. لكنَّ كفاية القوت لا تعني تساوي رزق العباد. ولو كان المولى سُبحانهُ يتحدَّث عن طوبيا (فردوسٍ أرضيٍّ) لا كبد فيها ولا نَصَب؛ لتحدَّث عن مساواةٍ في الأرزاق وليس في الأقوات. فالرزقُ هو كُلُّ ما

---

(١) ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ سورة فصلت؛ الآية ١٠ .

يُرزقه الإنسانُ ولو كان فائضًا عن حاجته. أمَّا القوت فهو ما يُقيم أوده ويحفظُ عليه حياته. فكُلُّ قوتٍ رزقٌ، وليس كُلُّ رزقٍ قوتًا. والرزق أشمل لتعلُّقه بعطاء الربوبيَّة ونموِّهِ بالسعي الذي يعكس الفروق الفرديَّة، لكن القوت أضيق لتعلُّقه بامتثال الغنيِّ للشريعة الإلهيَّة، وعدم احتكاره للأقوات أو المغالاة في أسعارها، فضلًا عن أداء زكاتها. إذن فالحديثُ عن النُّدرة كُفرٌ بالنعمة وتدليسٌ على الأفهام وتكريسٌ للإفقار، ورُبَّما كان الحديث عن الأثرة والاحتكار وسوء التوزيع أكثر تفسيريَّة وأقرب للحق. لكنْ حتى فكرة سوء التوزيع نفسها تقتضي مركزًا كامنًا تتحقق من خلاله العدالة المنشودة بدافعٍ قسريٍّ برَّاني؛ لا يُنصفُ إلا بظُلمٍ! أمَّا الإسلامُ فإنه يتحدَّث عن الفعل الإنسانيِّ الذي يُحرِّكُه وازعٌ جوَّانيٌّ؛ فعلُ ضميرٍ حيٍّ لا يبخس الناس أشياءهم التي قدَّرها الله لهم بالميلاد. إنَّ كفاية القوت هو أهمُّ تجلِّيات سلامة التصوُّر التوحيديِّ في المجتمع، وانتفاء استعباد العبيد للعبيد، وإعادة توجُّه الكُلِّ إلى ربِّهم الحقِّ. فقد أرسل الله رسلهُ بالتوحيد، ليقوموا بين الناس بالقسط. ورضي الله عن أبي ذرٍّ الذي يُروَى أنه قال: عجبت ممن لا يجد قوت يومه؛ كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه!

٢٦٨- العمل أم نتيجته ... ما هو حافز المسلم للكد والاجتهاد؟

يُخبرنا دجّالو «علوم الإدارة» ومشعوذو«التنمية البشريّة» و«الدعاة الجُدد»؛ أن «النجاح» المادّي، بتحقُّق الأهداف التاريخيّة؛ هو كُل شيء. وأن نجاحك دليل رضا «الإله» عنك!! ومن ثمّ كان تعلُّق المضَللين بنتائج أعمالهم أمرًا طبيعيًّا، باعتبار النتيجة فردوسًا أرضيًّا! إن الحافز عند هؤلاء هو النتيجة المرجوّة، فإذا بذلوا قصارى ما يستطيعون، وباءت تلك الجهود بالفشل؛ فإنهم يأزمون لأن النتيجة لم تكن على ما يشتهون. و قد «يستسلم» بعضهم لـ«القدر»؛ مُعتبرًا ذلك من الإيمان!

الإسلام على العكس من ذلك يحُضّ على العمل، ولا يعبأ بالنتيجة؛ بل يجعلها خارج حساباتك. فالعمل فقط هو مناط التكليف، والنتيجة مُعلقة بالمشيئة الإلهية الطليقة. إنه حتى لا يُعلق ثوابك/ عقابك كُليًّا بعملك؛ بل يُعلقهما أصلًا بلطف الباري.

إن مقدار الجهد المبذول هو مناط التكليف؛ أن تنشغل بإثراء ذاتك بتوجيهها كُليًّا في جلّ حركاتها إلى الله، أما النتيجة و«النجاح» فلا ضامن لها لتعلقها بالمشيئة، وإن كنا نستعين بالأسباب التي قد تؤدي للنتائج بإذن الله وقد لا تؤدي، ليظل التحقق غير حتمي، وهو جوهر الكبد الإنساني في الحياة الدنيا. لكن المفهوم المزوّر لـ«النجاح»؛ يجعل الإنسان عبدًا لذاته وهواه باسم «النجاح» و«خدمة الإنسانيّة»!
إن الإسلام يخبرنا أن «نجاحك» الدنيوي لا قيمة له في ميزان الحق، ومن ثم في ميزانك؛ لأن «النجاح» نتيجة معلّقة بأمر خارج عن إرادتك. أما العمل، فهو كل ميزانك وجهدك ... بل ووجودك. فأجرك معلق بالعمل ومدى اجتهادك فيه، ونيتك في أدائه، وإخلاصك في أدائه.

إن الحافز في الإسلام مناقض لحوافز «الإدارة» و«التنمية البشرية» و«البرمجة العصبيّة» ابتداء؛ فإذا كان الحافز في الأخيرة هو «النجاح» الدنيوي والصعود الاجتماعي، فإن الحافز في الإسلام هو مراقبة الله: *أن تعبد الله كأنك تراه*[1]. قد ترغب بـ«النجاح» المادّي لأن الإنسان خُلق ضعيفًا، ولأنك مفطور على حُبّ النجاح. وقد تتمنّاه وتعمل لأجله أحيانًا كثيرة، لأن الإنسان ينسى ويغفل. لكن يجب أن تتذكّر دائمًا أن هذا ليس هو الأصل؛ بل هو الانحراف الاستثنائي الذي قد يغفره الله لك بإذنه.

إن الحافز في الإسلام هو الإيمان القلبي المنشئ لعمل تتوجه به إلى الله مُسلمًا، لا أن تسعى «لتطوّيع» الإله لرغباتك وأهدافك. إن هذه الشعوذة تُناقض الإسلام وتنقُضُه ابتداء !!

٢٦٩- أعمى يقودُ بصيرًا لا أب لكمُ قد ضلَّ من كانت العميان تهديه!
(بشار بن بُرد)

(١) روى البخاري في كتاب الإيمان -من حديث طويل- عن أبي زرعة، عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس، فأتاه جبريل؛ فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث»، قال: ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»، قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

٢٧٠- تصدُر الموسيقى الشرقية التقليدية عن وجدانٍ مختلف كليًا، وجدان مثقل بالدين والأسطورة؛ وهو وجدان يؤمن ابتداء بالقضاء والقدر وليس لديه ذلك الدأب الإلحادي لإعادة تشكيل العالم وفق نموذج نظري موهوم. لذا فهذه الموسيقى تعبر عن العالم وتعكسه كما هو، ولا تسعى لاختلاق عالم افتراضي كما تفعل الموسيقى الغربية الكلاسيكية. ولا يمكن إدراك الطبيعة اللاعقلانية/ الروحية للموسيقى الشرقية، إلا بتذوق الموسيقى الفارسية التقليدية. فهي نقيض الكلاسيك الغربي؛ من حيث كونها أقرب لنبضات غير منتظمة لقلب وجل! إنها تعكس بهاء العالم كما خلقه الله ...

٢٧١- إذا ادركنا أن الفن في حقيقته وفي التحليل النهائي دين؛ أي أنه صورة من صور العبادة التي تجعل العلاقة بين الفنان وعمله ذات طبيعة دينية، بل وتجعل المنتج النهائي دينًا حقيقيًا. فعلى العكس من ذلك نجد أن رقص وموسيقى بعض الصوفية دينٌ انفصل عن مصدره الأصلي؛ فأمسى فنًا. أو دين جديد مستقل بذاته. وإذا كان الأول فنًا/ عبادة ضلت طريقها إلى الله في رحلة بحثها عنه، فإن الثاني عبادة/ فن ضلت طريقها حين اطمأنت إلى أن معرفتها بالله نهائية لا تشوبها شائبة، ولا يمكن أن تتغير. الأول رغبة في المعرفة مع التمركز حول الذات، والثاني عزوف عنها وتمركز حول الذات، وإن بدا العكس. ويبدو أن بروز الذات في هذه الرحلة وهيمنتها؛ هو سبب الضلال في الحالين!

٢٧٢- صحيح أن الشك أول الإيمان، لكنه كثيرًا جدًا ما يكون أول الكفر. ورُبّما كانت الطمأنينة التي يرثها البعض، مع وراثته لدينه بغير تمحيص؛ خير له من شكٍ يُضيع عقله ويدمر حياته. إن الإنسان مُكلف بالوصول إلى الله، لكنه سبحانه قد منّ على الغالبية براحة تعفيها من عناء التساؤل والبحث؛ فورثوا ما أورثوه وقالوا ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[1]. إن الإنسان يُحاسب بقدر معرفته، لذا فكلما زادت المعرفة ثقُل الحساب وازدادت صعوبته. وهؤلاء الذين خلطوا بإيمانهم

(١) سورة الأعراف؛ آية ١٦٩.

شركًا صغيرًا عن جهل ورعونة، خيرٌ ممن اغتروا بالمعارف فسقطوا في شركٍ أكبر! إن المعرفة ليست فقط مسئولية، بل هي نكبة في كثير من الأحيان؛ وذلك لغلبة الهوى مع كثرتها. لذا، فقد أشفقت منها السماوات والأرض والجبال، وحملها الظلوم الجهول!

٢٧٣- شَوْقٌ إلَيكِ، تَفيضُ منهُ الأدمُع وَجَوًى عَلَيكِ، تَضِيقُ منهُ الأضلعُ.
وَهَوًى تُجَــدّدُهُ اللّيَــالي، كُلّمَا قَدُمتْ، وتُرْجعُهُ السّنُونَ، فيرْجعُ.
(البحتري)

٢٧٤- يُمكن اعتبار الكاتب والمفكّر المصري أحمد أمين؛ رأس الجيل الذي مثّل آخر المؤمنين وأوّل الهيومانيين العلمانيين (المُلحدين). مثلهُ في ذلك مثل دانتي إلليجري وتوماس مور وغيرهم. والإلحادُ، بعكس ما قد شاع في أوساط المتفيقهين؛ ليس هو الإنكار البسيط لوجود الألوهيّة، فهذا عمليًا مُستحيل، وقد صرَّح الرجل في نهاية مُذكّراته بإيمانه؛ والذي يغلب عليه الطابع الغنوصي للعقلانيين. لكنّ الإلحاد الذي نقصده هو إنكار الحاكميّة الكُليّة للوحي الإلهيّ على الوجود الإنسانيّ، وذلك كما استُخدم اللفظ في القرآن، فهو إنكارٌ لبعض أسمائه وصفاته سُبحانه، أو هو إنكارٌ لبعض الوحي وحُجّيته انصرافًا لغيره، أو إنكارٌ للآيات بجُملتها.

وإلحاد أحمد أمين وطه حسين ومحمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم وعباس العقاد هو من النوع الأوّل؛ إنكارٌ (غير واعٍ في أكثر الأحيان) لطلاقة القُدرة تأثُّرًا بصورة الإله ومفهوم الألوهيّة في الفلسفات الغربيّة، وإعلاءٌ لـ«العقل» على الوحي تأثُّراً بفعلة «النهضة الأوروبيّة». لكن هل كان رحمه الله واعيًا بأنه ينقُض بعض عُرى إيمانه بغير أن يدري؟ الله وحده أعلم، وإن كُنتُ أُرجّح أنه -وكُل جيله- لم يكونوا واعين بذلك، بل رُبّما قلّد بعضُهم «أُستاذهم» لُطفي السيّد جهلًا ثم استمرأ ذلك أو استكبر الرجوع عنه، أو رُبّما لم يجد بديلًا مُستساغًا في ذلك العصر المضطرب.

ومن مظاهر ذلك الإلحاد -حسبما ذكر في مذكّراته- تشاؤمه المفرط وحُزنه العميق وانشغاله رُبّما بالشرّ الذي لم يقع، وهو الانشغال الذي يُظلم النفس ويؤزّمها؛ ذلك

أنّهُ ما من مُصيبةٍ تقع إلا وتنطوي على لُطفٍ إلهيّ يُخفف وطأتها ويعدُ بتجاوزها، لكنّ الانشغال بالمصيبة قبل وقوعها هو انشغالٌ بلا لُطف كما قال شيخنا الشعراوي رحمه الله. المظهرُ الثاني هو عدم ثقته بنفسه وبما يعتقد، أيًّا كان، وهو الأمر الذي جعلهُ فيما يكتُب ويعتنق من أفكار؛ رهنًا بآراء الآخرين ومدحهم أو قدحهم، وقد أورد حادثًا له مع عاطف بركات مُدير مدرسة القضاء الشرعي في آخر الكتاب، ليُدلل به على ذلك. الأمر الثالث نقيضٌ للأوّل، وهو التفاؤل السطحي الساذج الذي تقتضيه المنظومة العقلانيّة المادّية في بدايتها. فهو قد يتفاءل تفاؤلًا طفوليًّا ساذجًا لا أصل له، ليرتد به إخفاق النسق العقلاني المادّي لتشاؤمه العميق. ومثالُ ذلك نصيحته الحماسيّة لفيصل ملك العراق، آنذاك؛ بإدخال التعليم العالي وتعميمه بالعراق، فهو خيرٌ كُلّه، ولا ضير من زيادته عن الحاجة! وهو لا ينطلق من معرفة بحال العراق ولا بحال التعليم العالي في أوروبا والغرب؛ بل هي عاطفةُ من عانى ليحصُل على تعليم شبه عال في مدرسة القضاء بعد فشله في دخول دار العلوم!

لقد ذكرنا إلحاد أحمد أمين شبه العقلاني، لأَنّهُ على إيمانه العميق بوجود الله ورحمته وتصديقه بأن الإنسان مفطورٌ على «الشعور بإله» إلا أَنّهُ ابن عصره؛ واحدٌ من الجيل الذي حاول أو اعتسف المحاولة للتوفيق بين العقل المادّي والوحي، بتأثير الهزيمة النفسيّة. وقد فشل الجيل كُلّهُ في ذلك، برغم كُلّ ما خلّفوا من كتابات «إسلاميّة»، فشلوا ليُفرِّخوا جيلًا أكثر إلحادًا، ولو بشكلٍ لا إراديّ. على الجُملة، فإن الرجُل في مُذكّراته يبدو صادق اللهجةِ لا يتصنّع ولا يكذب، لدرجة كشفه لبعض السذاجات التي قد يخجل غيره من ذكرها.

لقد أورثته الفلسفةُ مرارةً لعجزه عن وضعها موضع التنفيذ، كما أشار في غير موضع؛ كما زادت حساسيّة الأديب تشاؤمه الغامض من المستقبل؛ التشاؤم الذي لم يكُن يعرف أن مصدره هو نسقه الفلسفي المادّي. رحمه الله وعفا عنه.

٢٧٥- ما قل وكفى، خير مما كثُر وألهى؛ قاعدة ذهبية ليس في المال فحسب، بل في العلم أيضًا. إذ من العلم ما يحجب عن الحق، ويُلهي عن العبودية لله بطلب

الشهرة والعلو في الدنيا بالعلم، وذلك تحت غطاء «شرعي» هو: الدعوة إلى الله. وهذه من تلبيسات إبليس!

وعلى كل متعلم -وكلنا متعلم من المهد إلى اللحد- أن يعرف متى وأين يكُف وعم يكُف، كما عرف أين وكيف يبدأ وبم يبدأ، حتى يعرُج ولا يُحجب.

اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا يحدونا على درب العبودية لك وحدك، ولا يحيد بنا.

٢٧٦- إن إدراك الطبيعة العلمانيّة لبعض الميول والسلوكيات والممارسات الإنسانية، يقتضي من المفكر والأديب قدرًا من علمنة الذات وترشيد الآخر؛ حتى يستطيع الوقوف على طبيعة الظاهرة محل الدراسة، ومصدرها وطبيعة تجسدها في الواقع. وإن كان هذا المفكّر أو الأديب مؤمنًا، فهو في الغالب الأعم يكون أقرب للتصوّف؛ وذلك لتعويض الجفاف الروحي الذي يُسببه له تفكيك الواقع وتحليله.

٢٧٧- ليس بالخُبز وحدهُ يحيا الإنسان. كما أنه بدونه لن يحيا أصلًا!

٢٧٨- قد لا يجلب لنا سعينا السعادة، لكنّ السعادة مُستحيلة بغير سعي.
(بنيامين دزرائيلي)

٢٧٩- ليس هناك أشدَّ خطورةً ممن ليس عنده ما يخسره!

٢٨٠- إذا كُنت كُلَّما عثرت على المُفتاح، غيَّر أحدهم القفل في غفلةٍ منك؛ حماقةً أو حسدًا ... فتعلَّم كيف تكسر الباب!

٢٨١- «لا يكمُن الفشل في السقوط بحدِّ ذاته، بل في عجزنا عن القيام ثانيةً لمواصلة الرحلة!»؛ ريتشارد نيكسون.
ولا يُنبئك مثلُ خبيرٍ!

٢٨٢- نحنُ نفتقد من نُحبُّ في أوقات الرضا، لكننا نفتقد من يحبوننا في لحظات الألم.

٢٨٣- «مما لا شكَّ فيه أنَّهُ لا يُمكن إلحاق ضررٍ كبيرٍ بالإسلام، باعتقال شيوخه وعُلمائه، وحظر مُمارسة شعائره، ومُصادرة كُتبِه. فالمسلمون يستطيعون الصلاة فُرادى في أيّ مكان إذا ما اقتضى الأمرُ ذلك، وفي هذا تكمُن أحد أسرار قُدرة الإسلام على المقاومة طويلة المدى تحت الحُكم الشمولي. وهو ما يُفسِّرُ، مثلًا؛ بقاء ملايين المسلمين الصينيين على دينهم، برغم ماوتسي تونغ وثورته الثقافيَّة. لكن من المؤسف أن الإسلام ليس منيعًا بنفس الدرجة في مواجهة التسلُّل الخبيث لتكنولوجيا الحضارة الغربيَّة التي تنال من قوَّته، بالتهامه تدريجيًّا من الداخل. ذلك أن للمجتمع الصناعي الغربي تأثيرًا سامًّا على كافَّة الأديان، بترويجه للقيم الماديَّة النفعيَّة المحضة: تحقيق أقصى ربح، عبادة الزيادة الدائمة للإنتاج، أسطورة التقدُّم اللانهائي ... إلخ، وتحييد القيم الأخلاقيَّة، ووصم كُلِّ مظاهر الحياة بطابع عقلانيٍّ ماديٍّ». (مُقتطف من كتاب مُراد هوفمان: يوميَّات ألماني مُسلم)

٢٨٤- من دُرر الشيخ محمَّد الغزاليّ رحمه الله؛ قوله: إن الله ﷻ وتعالى ربَّى مُحمَّدًا ﷺ؛ ليُربِّي به العرب، وربَّى العرب بمُحمّدٍ ﷺ؛ ليُربِّي بهم العالم.

٢٨٥- تُشرِقُ الفرصة كالشمس، فإن كان لديك من الخيال ما يُمكِّنُكَ من شهود ذلك الشروق ومعاينته في مُنتصف الليلة السابقة عليه، فأنت لست «قائدًا» نافذ البصيرة فحسب، أو مُجرَّد «رجُل أعمالٍ» مفطور؛ بل مُفكِّر عظيم بالقدر ذاته!

٢٨٦- كان خليل الرحمن، وأبو الأنبياء وإمام الملَّة الحنيفية، فتًى يافعًا حين حطَّم الأصنام وسَخِرَ منها. لكن ثبات السُّنن الكونيَّة بعد ختم الرسالات النبويَّة اقتضى مكابدة أحفاده بغير التعلُّق بخوارق العادات، وبدلًا من المعجزة التي ساقها الله لإبقاء أبي إبراهيم عليه السلام حيًا في قلب النار، فقد صار احتراقُ أحفاده في نيران النمارِدة الجُدد؛ طريقهم للحياة ... وللخلود. اللهم صل على إبراهيم وعلى أحفاده الأماجد.

٢٨٧- إذا دعاكَ للقصدِ إليه؛ رزقكَ حُسن التوكُّلِ عليه.

٢٨٨- آفةُ العلم التخصُّص، وما ذلك إلا لأن المتخصصين يرون ضرورة رسوخ الكاتب أو الباحث في تقليدٍ أكاديميٍّ أو علميٍّ أو ثقافيٍّ وضعيّ. إنَّ هذا الرأي قد يشي ظاهره بالرحمة، لكنَّ باطنه غالبًا ما يطوي عذاب التقليد والتمذهُب، واجترار مقولات كهنة ذلك التقليد بعد أن يُستعبد الباحث لآليَّات «الكبار» ومناهجهم وأطروحاتهم، فيعمَد لإعادة إنتاجها «تيسيرًا» على نفسه! ورُبَّما كان هذا الرأيُ راجعًا لكثافة التقاليد والمذاهب والمناهج التي حجبت الإنسان عن الوحي، فظنَّ فيها المركزيّة، وحلَّت في لاوعيه محلَّ المصدر. على العكس من ذلك، فإن التجديد دائمًا ما يكون مصحوبًا برفضٍ للمناهج القديمة التي أسنت بانفصالها التدريجيِّ عن المصدر، وبتوقُّف الجدليَّة بينها وبين الوحي الإلهيّ. لذا، فإن التجديد الحقيقيَّ هو التمكُّن من الآلة المتعارف عليها؛ لاستخدامها بشكلٍ ابتكاريٍّ في تطوير منهج مُطرد يتجاوز ما حُبس فيه الكهنة. والباحثُ في ذلك يضعُ تقليدًا جديدا، تقليدًا ينبغي لمستخدميه الانتباه لمراحل تطوُّره، حتَّى إذا ما تكلَّس وحلَّ محلَّ المركز؛ نُبِذَ للمصدر/ المركز، لإعادة الكرَّة ... وهكذا إلى أن يشاء الله.

٢٨٩- تأثُّرًا بتشوُّش وانحراف تصوُّرات الحركات الإسلاميَّة؛ يظُن بعض الباحثين، حتَّى غير المنتمين لهذه الحركات؛ أن «منهج الحركة الإسلاميَّة» هو منهج حركة التنظيمات، والمفضي للدولة/ الطوبيا التي يُسيطرُ عليها هذا التنظيم أو ذاك. وهُم في ذلك ينطلقون -لا شعوريًا- من افتراضٍ بأن الإسلام دينٌ سكونيٌّ، وأن هذه الحركة الطارئة، كالحراك الحزبيِّ؛ سياسيَّةٌ في دوافعها وتجلِّياتها، ليُحصروا كما حُصر الغربيُّون، ومن حذا حذوهم؛ فيما سمَّوه بـ«الإسلام السياسي». وكأن الإسلام يُمكنُ ألا يكونَ سياسيًّا! لكن على النقيض من ذلك كُلِّه؛ كان تصوُّر سيِّد قُطب واضحًا جليًّا لا لبس فيه. فمنهج «الحركة الإسلاميَّة» عندهُ ليس منهج التنظيم، ولكنَّهُ منهج الفعل الإنساني داخل التاريخ؛ منهج حركة كُلِّ المؤمنين للتحقُّق داخل التاريخ، وليس حركة تنظيمٍ بعينه. إنَّهُ في ذلك يلتزمُ جادة التوحيد؛ حركة المجتمع المسلم المنفتح بالوحي، وليست حركة تنظيمٍ/ حزب منغلق

بالأيديولوجيا سعيًا للسُّلطة. إذ الحركة بالوحي داخل التاريخ ليست حِكرًا على من تسمَّوا بـ«الإسلاميين» فحسب؛ بل هي فرضٌ على كُلِّ مُسلمٍ، بمُجرَّد قبوله لصحيح الإسلام. إن ارتباط الحركة الإنسانيَّة بالوحي لا يُقيِّدها، بل يوجِّهها ويكبح جماحها، بما أنَّهُ ارتباطٌ بمركزٍ ربَّانيٍّ مُتجاوز؛ ارتباطٌ مشروطٌ بديمومة الاجتهاد في رحاب ذلك الوحي، وفاءً بالاحتياجات الفعليَّة للحركة الإنسانيَّة للمؤمنين وليس استباقًا لها. إنّ ارتباط الحركة بالوحي يعني الإذعان للحاكميَّة الإلهيَّة الغيبيَّة على عالم الشهادة، لتقويم شذوذ عالم المُلك وانحرافه. إنَّهُ «منهج» المجتمع المسلم في أيّ زمانٍ ومكانٍ. قد يُفضي إلى دولةٍ، وقد لا يُفضي، فليس ذلك هو المناط. إذ مناط التكليف هو الحركة به داخل التاريخ سعيًا للتحقّق بالعبوديَّة/ الدعوة؛ مُجرَّد الحركة بعد تمثُّل المنهج الإلهيّ والإخلاص في تمثُّله. إن المؤمن يُحاسَب على صدق عقيدته وتحقُّقها في نفسه، ثُمَّ على حركته بتلك العقيدة سعيًا لتحقُّقها في الأرض. أمّا ما عدا ذلك، بإطلاقه، فموكولٌ لطلاقة المشيئة الإلهيّة؛ فإن شاء مكَّن له في أرضه، وإن لم يشأ فلا راد لمشيئته سُبحانه.

٢٩٠- إن بدرًا الكُبرى في جوهرها عملٌ تربويٌّ ربَّانيٌّ رفيع المستوى. يقول سُبحانه في سورة الأنفال التي أنزلت في هذه المناسبة المباركة: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]. لقد خرج النبيُّ الأعظم ﷺ وصحبه ليقطعوا طريق قافلة تجارية لقُريش. خرجوا يطلبون غير ذات الشوكة، ليستعيضوا عما سُلبوه بهجرتهم في سبيل الله. لقد أراد المؤمنون، في لحظة ضعفٍ إنسانيٍّ؛ المغنم سهلًا بعد طول الاضطهاد. لكن الله سُبحانه -وهو القاهر فوق عباده- أراد أمرًا أكثر أهميةً من استرداد بعض المتاع والمال المسلوب؛ أراد اختبارًا عظيمًا للمؤمنين، اختبارًا يُحق به الحق ويُبطل الباطل ويقطع دابر الكافرين. بل وأن يجعل ذلك هو الدافع الأساسيَّ، وربَّما الوحيد؛ للغزو في الإسلام. إنّه يُمدُّ الجماعة المؤمنة بالملائكة تشُدُّ عضدها،

(١) سورة الأنفال؛ الآية ٧ .

ويأمُر النعاس أن يُغشيهم أمنةً من عنده في قلب الفَزَع، ويُنزل عليهم ماءً؛ ليُطهرهم به ويربط على قلوبهم ويُثبت به أقدامهم في أرض المعركة المغبَّرة. فيلقى المسلمون قُريشًا بثلث العدد الذي جاءت به، وليس الثُلث كالثلث. فالمسلمون جوعى فُقراء؛ لا يملكون دوابًّا تكفي لحملهم، بل لا يملكون دوابًّا تكفي لحمل بضع عشرات من العدد الذي نيف على الثلاثمائة. وقُريشٌ جاءت بخيلها وخيلائها؛ تذبح وتطعم. إن الشرك مُتخمٌ كامل العُدَّة والإيمانُ فقيرةٌ وسائله الماديّة بما لا يُقاس.

إن الله يُعلم البشرية أن المؤمن مُقتدرٌ بالإيمان، وليس بالقُدرة الماديّة والإمكان. إن الله تعالى هو من يُنزلُ النصر، وما على المؤمن إلا أن يُعدَّ ما استطاع، والله هو الناصر. يقول سُبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. إنها شهادةٌ على النمط الذي أرادهُ الله ﷻ أن يستقر في قلوب العصبة المختارة. ذلك النمط الذي غفل البعضُ عنه بعدها في حُنينٍ؛ فأيقظهم سُبحانهُ مُقرِّعًا: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[2]. إنَّهُ يؤكِّد تهافُت قيمة العُدَّة إن لم يسبقها إيمانٌ بأن النصر منه ﷻ. إنَّهُ ليس بعد هذا الدرس درسٌ في صدق التوكُّل عليه.

٢٩١- تسعى الماديَّةُ الرأسماليَّة والاشتراكيَّة لإسقاط السمات الشخصيَّة للإنسان، وتفريغه وتجويفه وتنميطه واختزالُه في الوجود البرَّاني؛ لتيسير استعباده في دوَّامة الإنتاج والاستهلاك. وهو الأمر الذي لا يُمكن تحقيقُه إلا بزيادة مُعدَّلات العلمنة على المستويين الكامن والواعي، وبشكلٍ متوحِّش. لكن مع انتهاء دورة النظام المادِّي، وتآكُل شرعيَّتِهِ وسقوط ديباجاته المجوّفة تحت وطأة جوع الهويَّة الفطري؛ فإن كُلَّ آليَّات العلمنة وأدواتها ينعكس دورها كُليًّا، لتُصبح روافع ومُكثِّفات، بل ومُحددات للهويّة المفتقدة (تجربة انهيار الكتلة الشيوعيَّة). ورُبّما كان ذلك داخلًا

(١) سورة الأنفال؛ الآية ١٧.

(٢) سورة التوبة؛ الآية ٢٥ .

تحت قول ربّ العزّة سُبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾(١).

٢٩٢- رُبَّما كان تمركُز شعر نزار قبَّاني حول الأنثى مُجرَّد مجازٍ عضويٍّ يتوارى خلفه. يتجلَّى ذلك في قصيدة «الحزن»؛ والتي تغنَّى بها كاظم الساهر، باعتبارها أُغنيَّةً عاطفيَّةً! إن هذه القصيدة أُنشودةُ تمجيدٍ للهويَّة القوميَّة العضويَّة؛ كإلهٍ. واستخدام الشاعر للمرأة كصورةٍ مجازيَّةٍ عضويَّةٍ يتفق مع الديباجات والأدبيَّات القوميَّة العضويَّة ذات الطبيعة الوثنيَّة، والتي تجعلُ من الأرض أُمًّا وامرأةً لا يتحقق الشعب إلا فيها، ولا تتحقق هي إلا به. إنَّ هذا تصوُّرٌ رومانتيكيّ في جوهره؛ تصوُّرٌ حلوليٌّ أُسطوريٌّ صادرٌ عن نسقٍ مُنغلق بالشرك. ومن ثمّ تسهُل قراءته وتوظيفُه، إذا أحللنا الأُنثى المحبوبة/ المشتهاة محلَّ الأرض على النحو المشتهر.

٢٩٣- من الفوارق المهمَّة بين التصوُّرات الطوباويّة (نسبةً للطوبيا وهي تعريب يوتوبيا Utopia) والتصوُّر الإسلامي؛ أن المُخلِّص (الماشيح/ المهدي) في التصوُّرات الطوباويّة هو مركز النسق الأيديولوجي المنغلق بالشرك، وأن التبشِير بالطوبيا (الفردوس الأرضي) يكون من خلال العُنف المفرط (الموجَّه للذات أو للآخر)، ومن ثمَّ فإنَّ تزايُد الشرور في الواقع يُعجِّل بظهوره، وببلوغ العُنف درجة لا إنسانيَّة لاقتلاع تلك الشرور البرَّانيَّة بحربٍ كونيّةٍ متوهَّمةٍ تُنهي كُلَّ الحروب! إن وظيفة المُخلِّص هنا هي إيقاف التاريخ وإنهاء التدافُع لتحقيق الطوبيا «الخيِّرة» الآن وهُنا، فالشرور في ذلك التصوُّر لا تكون إلا برَّانيَّة؛ ذلك أن الإنسان بريءٌ أخلاقيًّا، وضحيَّة ظروفه «الموضوعيَّة» الماديَّة! وبعبارةٍ أُخرى، فإن التصوُّرات الطوباويّة تنطوي على جبريَّةٍ تاريخيَّةٍ ماديَّةٍ كامنةٍ؛ فنسقها المادِّي يفرض عليها شكلًا من أشكال الحتميَّة التي لا تستطيع دفعًا لاطرادها. لتُعادي التاريخ والإنسان الربَّاني.

أمّا المُجدد في التصوُّر الإسلامي، فوظيفتهُ أصلًا هي كسر كافَّة الأنساق الأيديولوجيَّة المنغلقة بانفصالها التدريجيِّ عن الوحي الإلهيّ؛ وذلك لإعادة نهر

(١) سورة الأنفال؛ الآية ٣٦.

التاريخ إلى مجراه بإعادة الاجتهاد/ الجهاد واستمراره في رحاب المركز المتجاوز. إن المُجدد يتعامل مع الأنساق المعرفيَّة الإنسانيَّة باعتبارها اجتهاداتٍ تاريخانيَّةٍ تؤكِّد ديمومة الكبد الإنساني داخل التاريخ. وهو ليس مركزًا لأي شيءٍ بل مُجتهد يخطئ ويُصيب، ويؤمن بأن الاجتهاد البشري ليس نهائيًّا ولن يكون كذلك أبدًا، وأن الوحي الإلهيَّ هو المركز النهائي والوحيد. وأنه برغم تفاوت الاجتهادات، في ظلال المركز، فيما لم يرد فيه نصٌّ؛ قُربًا وبُعدًا، فإنها تظلُّ آراءً احتماليَّةً بدرجةٍ ما، وفهمًا تاريخانيًّا لمركزٍ متجاوز للتاريخ. إن المُجدد يصدُر عن تصوُّرٍ بأن الخير والشرَّ كليهما جوّانيٌّ مفطورٌ في جبلَّة الإنسان، وأنهُ قادرٌ على الاختيار بينهما، وتحمُّل تبعة اختياره، فهذا هو جوهر التكليف.

٢٩٤- القرآنُ نصٌّ إلهيٌّ لا تاريخيٌّ (فوق التاريخ). أُوحي به ليكون فاعلًا داخل التاريخ، بل ويُقوِّمه كُلّما انحرف مساره. إن القرآن ليس بدايةً للتاريخ، ولا نهايةً له. وكونه لا تاريخي ابتداءً هو ما يجعل له ذلك الأثر العميق والفعاليَّة الربَّانيَّة الدائمة.

٢٩٥- لا أذكُر صاحب هذه المقولة، لكنَّها تستحقُّ الكتابة بماء الذهب: إلى الذين يسعون لإخراج الناس من عبادة القبور إلى عبادة أولياء الأمور، ومن سعة الإسلام إلى ضيق الأفهام، ومن عدل الإسلام إلى كفالة اللئام؛ أقرضوا الله قرضًا حسنًا ... وانقرضوا!

٢٩٦- إذا نظرنا من زاوية الدرس الكلامي، كآلة؛ فإن نقد الفكر الغربي ليس إثباتًا لذاتٍ متوهَّمةٍ كما تفعل المدرسة الرومانتيكيّة ما بعد الكولونياليّة، ومن ثمَّ فهو ليس لبنةً في مشروع بناء الذات. وإنّما يقوم ذلك النقد بدور الجهاد في تقويض وإزاحة وإزالة الأنساق الأيديولوجيَّة الشركيَّة (أو الأصنام المعرفيَّة) التي تحجب التوحيد عن الإنسانيَّة، وذلك لإقامة الحُجَّة الرساليَّة على بني آدم بإسقاط وتهشيم كُلِّ الطواغيت؛ تمهيدًا للبناء، والذي قد لا يتمُّ أصلًا. فقد تُعُبِّد المؤمنون بإسقاط الطواغيت وإقامة الحُجَّة، وما عدا ذلك؛ فموكولٌ لمن لا يُسألُ عمّا يفعل، وهُم يُسألون.

٢٩٧- أبغض المستشفيات والأطبّاء وركود المرض مُنذُ حداثتي. وقد ظننتُ لفترة بأنها «نيتشويَّة»[1] تحتقرُ الضعف الإنساني وتشمئزُّ من رائحته. لكنني اكتشفتُ مؤخّرًا أن تلك الكراهية نابعةٌ مما يترتَّبُ عليه المرض؛ من إيقافٍ تامٍّ للتدافُع والكبد الإنساني. فحياة المرضى -أعاذنا الله- خصوصًا نُزلاء المشافي؛ تُوقِفُ كُلَّ حياتهم البرّانيَّة بل وأحيانًا تلك الجوَّانيَّة، التي قد يوقفوها هُم طمعًا بأن ينعموا بفردوسيَّة حالة الركود اللاتاريخي، ليموتوا وأنفاسُهم تتردد في صدورهم. وأبدًا لم أشعر ببُغضٍ مُشابِهٍ للموت، برغم أنّهُ نهايةٌ للتاريخ وقيامةٌ للميِّت؛ إذ رُبَّما كان يقيني بحياةٍ أُخرى بعده، ولو كنت لا أعرف كنهها؛ هو ما يجعلني حتَّى لا أخشاه. بل ويهبني التفكير فيه سكينةً وراحةً!

٢٩٨- رُبّما كان ذوو الميول الطوباويّة الجارفة أقلَّ تمسُّكًا بالشفاء ورغبةً فيه؛ إذا ما مرضوا.

٢٩٩- اشتهر عن المؤرخ وفيلسوف التاريخ البريطاني، أرنولد توينبي، وصفه للغرب بأنهُ يختلق عدوًّا لإشباع حاجته النفسيَّة. ففكرة الصراع والتحدِّي هي لُبُّ فلسفته في البقاء. وتفسيرُ ذلك عندي أن الغرب يتبنّى أنساقًا معرفيَّةً مُنغلقةً بالشرك. تلك الأنساقُ لا يُمكنها قبول فكرة هيمنة التوحيد على الكون والحياة، مع بقاء أنساقهم الشركية، بتعدُّدها، في هامش الوجود البرَّاني، وباعتبارها اختيارات شخصيَّة يجب ألا تتعارض مع النظام العام. إذ طبيعة الرؤية الكونيَّة المشركة هي رؤية العالم كجُزر مُنعزلة مُتصارعة، شظايا مُتناحرة لا يجمعها جامعٌ إلا القهر الوحشي والعنف الدموي؛ لتحقيق الطوبيا المرجوَّة. إن هذه الأنساق لا يُمكنها تحقيق أيَّ تعايُشٍ جوّانيٍّ، ومن ثمَّ تسعى لتحقيق «تعايُشٍ» برَّانيٍّ بإيجاد عدوٍّ برَّانيٍّ مُشترك يصرفها عن صراعاتها الأيديولوجيَّة، بصراعٍ أكبر. وقد صدق توينبي في وصف ذلك بأنه لُبُّ فلسفة البقاء، لكنّه ليس لُبَّ فلسفة بقاء الغرب فحسب، بل لُبُّ فلسفة بقاء أي ظواهر وأنساق شركيّة وتجاورها بغير صراعٍ. إنَّ الأزمة لا تكمُن

(١) نسبة إلى فيلسوف القوَّة: فريدريش نيتشه.

في لُبِّ فلسفة الغرب للبقاء، بقدر ما تكمُن في التنظير له باعتباره حالة الطبيعة/ الفطرة! إن مرجع ذلك التصوُّر هو طمس الوجود الجوَّاني للإنسان تمامًا، واختزاله في وجودٍ ماديٍّ برّانيٍّ. ومن ثمَّ، فإن محاولة التحقُّق لا تكون من خلال مكابدة النفس، بالتزام المنهج الربَّاني في الكبد داخل التاريخ؛ طمعًا ببعض الإشباع القلبي لتهدئة الشعور وضمان استمرار الكَبَد الدنيوي بأقل قدر من الاحتكاك. بل تُختزل المسألة بتركيبيَّتها في عمليَّةٍ برَّانيَّةٍ تمامًا؛ الصراع مع الآخرين لإنهاء التاريخ، وتحقيق الطوبيا البرَّانيَّة. إن هذا الصراع يُرسِّخ العناصر المُشركة في الوجود المتشظّي، ويُطيل عُمر الأنساق الأيديولوجيَّة، بما أنَّهُ يُجنِّبها أي صدام جوَّانيٍّ حقيقيٍّ قد يُقوِّضها.

٣٠٠- من الفوارق المهمَّة بين التصوُّرات الطوباويَّة والتصوُّر التوحيدي أن الطوبيا تسعى -نظريًّا- وعن طريق القهر البرَّاني؛ تسعى للنفاذ لأعماق الإنسان وفضائه الجوَّاني، ومحو وعيه التاريخي وذاكرته الإنسانيَّة ليُصبح صفحةً بيضاء تمامًا يستطيع القائم بترشيد الواقع أن يخُطَّ فيها أيًّا من التُّرَّهات التي تَعِنُّ له؛ ابتداءً من نُقطة صفرٍ متوهَّمةٍ. ولعلَّ محاولة ماوتسي تونغ المسمَّاة بالثورة الثقافيَّة، والتي راح ضحيّتها عشرات الملايين؛ أحد أبرز الأمثلة المعاصرة. على العكس من ذلك، فإن الإسلام يسعى لتقويض الأعراض البرَّانيَّة فحسب، مؤمنًا بأن زوالها سوف يؤدّي، ليس لأن يُصبح الإنسانُ صفحةً بيضاء، بل لأن ينتقل الشرك الذي سوَّد تلك الصفحة إلى هامشها، فتتحسَّن قُدرة الإنسان على الاستقبال مُفسحةً الطريق للوحي، ليبدأ من الفطرة التي فطر الله الناس عليها. إذ إن الإنسان ليس صفحةً بيضاء بريئةً!

٣٠١- ليس للكثرة من اعتبار في النواميس الإلهية. لا كثرة المؤمنين ولا كثرة الكفار. وقد تنزل القرآن في مواطن كثيرةٍ ليكسر هذا التوهُّم في نفوس النبيِّ والمؤمنين؛ مثلًا:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (سورة التوبة؛ الآية ٢٥).

﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ (سورة البقرة؛ الآية ٢٤٩).

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ (سورة الأنعام؛ الآية ١١٦).

﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ (سورة يوسف؛ الآية ١٠٦).

... وغيرها الكثير.

بل إن القرآن يربط الكثرة، في القاسم الأعظم من استنكاره لها؛ بصفات سلبية تنتقص من الإيمان وتفصم عُراه. بل وتكشف انحدار الإنسان للشرك وعبادة الجموع وما درجت عليه من العادات، وإكسابها صفة العبادات.إن التدبُّر في هذه الآي يفتح الباب للتأمُّل في أمورٍ ثلاثةٍ:

أولًا: حُجيّة الإجماع عند الأصوليين.

ثانيًا: القول بتركيبية الإنسان ولزوم اجتماع الإسلام والجاهلية في كل نفسٍ؛ وأن مناط التكليف هو السعي لتغليب التوحيد المفطور والمصدّق بالتنزيل على الشرك الذي يجنح له الطين. وأن الإسلام والجاهلية ليسا حالاتٍ صفريّةٍ نهائيةٍ؛ بل حالاتٌ مُركّبةٌ مُتغيّرةٌ.

ثالثًا: تقويض الأوهام السياسية الساذجة عن مصدر «شرعيّة» حُكم «الأغلبية»، وقيمته المتوهَّمة!

٣٠٢- «كان أبو ذرٍّ الغفاري يُعلن برأيه في مجامع الناس بالشام، ويُندد بالأغنياء غير مُكتفٍ منهم بإخراج الزكاة، ويقول: يا معشر الأغنياء؛ واسوا الفقراء. بَشِّر الذين يكنزون الذهب والفضَّة ولا يُنفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار؛ تُكوى بها جباهُهم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء لمعاوية -وهو أمير الشام من طرف عُثمان- ما يلقونه من الناس. ولو لم يُبادر عثمان باستقدام أبي ذرٍّ إلى المدينة، لاتسع نطاق الفتنة بالشام.

وقد خالف أبو ذرٍّ إجماع الصحابة بنظريّته السابقة مع قيام الدليل القطعي من النقل المتواتر، والنصوص القرآنيّة الكثيرة المتضافرة على خلاف رأيه. وكان خلافه

هذا في مسألةٍ من كُبريات المسائل، ومع ذلك تركوا له حُرّيّة النظر، ولم يلق منهم أدنى ضغطٍ، ولا أقل تحقير، فكانوا بذلك مُنفذين لما جاء به الإسلام من احترام الآراء، وحرية النظر والتفكير.

وأبو ذر بمذهبه هذا، أول اشتراكيٍّ في المال؛ كان شاذًّا بين الصحابة مُخالفًا لإجماعهم. ولم يتعرَّضوا له في نظره واجتهاده إلا عندما خشوا من بثّه الفتنة على الناس». (مقتطف من عبدالحميد بن باديس: رجال السلف ونساؤه)

وتعليقي هو: تتجلّى في النص السابق بعض السمات المميزة لمدرسة التهويل والتهويش التي ورث الشيخ ابن باديس رحمه الله تعاليمها من القاضي ابن العربي صاحب كتاب «العواصم من القواصم»، وقد كان من أوائل من حققوا كتابه المذكور، وله نشرةٌ مشهورةٌ في الجزائر. هذا التهويش الذي يعتمد على ضخامة كلام مرسل ومتناقض في إثبات خطأ مذهب أبي ذرٍّ رضي الله عنه. وإن كُنّا نوافق الشيخ في خطأ مذهب صاحب رسول الله ﷺ، ولكن من طريقٍ آخر.

انظر مثلًا قوله: «وقد خالف أبو ذرٍّ إجماع الصحابة ... مع قيام الدليل القطعي من النقل المتواتر»، فإن صحّت مخالفة أبي ذرّ للدليل القطعي المتواتر، فكيف «لم يتعرضوا له في نظره واجتهاده إلا عندما خشوا من بثه الفتنة على الناس»؟ وكيف لم يشتهر رأيٌ «علمي» واحد يخطىء أبا ذرٍّ ما دام قد خالف دليلًا قطعيًّا؛ حتى بُعث من خلف ابن باديسٍ في مصر وسوريا والجزائر وإندونيسيا من يُنظِّر لاشتراكية الإسلام؟ ولم كان جلُّ فعل ذي النورين رضي الله عنه هو استدعاؤه من الشام، ونفيه إلى الربذة عقبها للتهدئة (سياسة شرعية)؟!

ألم يكن في المجتمع من صحابة رسول الله ﷺ من يُصحح اجتهاد أبى ذر؟ أم أنهم رأوا فيه اجتهادًا مُعتبرًا، وإن خالفهم؛ وأن مسألة مخالفة الدليل القطعي المتواتر (الذي تعمَّد ابن باديس ألا يورده) من ابتكارات ابن العربي وابن باديس غفر الله لهما؟!

يبدو أن الصحابة لم يفهموا دعوة أبي ذرٍّ على أنها «اشتراكيَّةٌ» في المال كما يذهب الشيخ، بل يبدو لي أنه يرُد بدعة تأصيل «اشتراكيَّة الإسلام» ببدعة مخالفة «اشتراكية»

أبي ذرٍّ للجمهور؛ مُسلِّمًا بنسبة صاحب رسول الله لهذا الهراء! والأرجح عندي أن دعوة أبي ذرٍّ الأغنياء لمواساة الفقراء بأموالهم وجدها الصحابة فضلًا لا يجوز حمل الناس عليه ما أدَّوا حق الله. وأن هؤلاء الصحابة -وعلى رأسهم عثمان- عرفوا أن قدرة المجتمع على دوام السمو لتلك الدرجة من الفضل التي خبروها على عهد رسول الله ﷺ لا يمكن أن تدوم، وأن التوحيد الاجتماعي في نقصٍ لازم، وهو ما كان أبو ذرّ غير واعٍ به و غير قادرٍ على احتماله. والله أعلم.

٣٠٣- الأصدقاء ثلاثة أنواع: حسناتٌ وهؤلاء ندرةٌ، وسيئاتٌ وهؤلاء أكثريةٌ، وتكفيرٌ عن السيئات وهؤلاء كنار جهنم أو أشد حرًّا !!

٣٠٤- ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[1]. فوالله ما لبث يوسف في السجن إلا لكلماتٍ خرجت منه للذي ظن أنه ناج منهما، فإن الله لا يرضى لخُلصائه سوى كمال الوجهة.

٣٠٥- يتجلَّى تفرُّد شخوص الراشدين الأربعة في أختامهم. فقد كان خاتم الصدّيق: لا غالب إلا الله. وكان خاتم الفاروق: كفى بالموت واعظا. وكان خاتم ذي النورين: لتصبرن أو لتندمن. وكان خاتم الإمام: الله الملك، وعليٌّ عبده. وقد كان ﷺ يعي ذلك منهم، ويعي أنهم على اختلافهم، فإنما هُم طليعة الدعوة إلى الله؛ كُلٌّ في موضعه وكُلٌّ برؤيته الخاصّة، وكُلٌّ في لحظته التاريخيَّة المتفرِّدة، ليؤدي دورًا لم يكُن ليؤديه غيرُه.

وتكتمل الصورة النفسيَّة والوجدانيّة لهؤلاء السادة من أصحاب النبيِّ، بحوارٍ شهير دار بينه وبينهم، يكشف عن جوهر شخوصهم وأهم معالمها، وإليك الحوار:

نظر ﷺ إلى صاحبه الصديق، وسأله: «أتُحب من الدنيا شيئا يا أبا بكرٍ؟»، قال: نعم .. أحب لأجلك ثلاثًا .. قال: «وما هي؟» قال: نظري إليك، وجلوسي بين يديك، وإنفاق مالي عليك. ثم نظر إلى عمر، وسأله: «وأنت يا عمر، أتحب من الدنيا

---

(١) سورة يوسف؛ الآية ٤٢.

شيئًا؟»، قال: نعم .. أحب لأجلك ثلاثًا .. قال: «وما هي؟» قال: أمرٌ بالمعروف ولو كان سرًّا، ونهيٌ عن المنكر ولو كان جهرًا، وقول الحق ولو كان مرًا. ثم نظر إلى عثمان، وسأله: «وأنت يا عثمان، أتحب من الدنيا شيئًا؟»، قال: نعم .. أحب لأجلك ثلاثًا .. قال: «وما هي؟» قال: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وركعات بالليل والناس نيام. ثم نظر إلى علي، وسأله: «وأنت يا علي، أتحب من الدنيا شيئًا؟»، قال: نعم .. أحب لأجلك ثلاثًا .. قال: «وما هي؟» قال: إكرام الضيف، والصوم في الصيف، وضرب أعداء الله بالسيف.

وإذا كان بعضُ أصحاب «صنعة» تخريج الحديث من أصحاب الرؤى الماديَّة الآليَّة قد ضعّفوا هذه الرواية، فإن وقائع التاريخ وصفات الصحب الكرام وسماتهم الخلقيَّة والنفسيَّة التي تنضح بها سيرُهم العطرة؛ تؤكِّد الرواية جُملةً وتفصيلًا. صلى الله عليهم وعلى من ربَّاهم.

٣٠٦- سبحان القائل: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[1]... فهو الأمن في هيئة النُّعاس، وهو الاطمئنان في صورة النوم الذي يوقف التاريخ مؤقتًا؛ ليُنجينا من الغم وتسكُن به النفس، فعسى أن نكون من المؤمنين. فله الحمد في الأولى والآخرة.

٣٠٧- شاع في العقود الأخيرة، وبسبب ما يُسمَّى بـ«المدرسة السلفية» المعاصرة، وتحديدًا منذ الشيخ الألباني -رحمه الله- أن الكتاب يكفي للمتعلم شيخًا. ولم يقتصر ذلك على ما يُسمَّى بالعلوم الشرعيّة بطبيعة الحال؛ فامتد في الجيل الحالي إلى ما يُسمَّى بالعلوم الإنسانيَّة.

الكارثة الكامنة في ذلك ليس في كون الكتاب هو شيخك، لكن في كونه شيخك بغير آلةٍ سليمةٍ تسبُر بها غوره؛ بغير امتلاكٍ لناصية اللغة. لذا، فإن كل قارئٍ يُمكنه إضفاء المعنى على ما يقرأ، بل واعتبار المعنى الذي استنبطه نهائيًّا. ولعل ذلك أحد الأسباب الرئيسية للسيولة المفاهيميّة عند هذا الجيل؛ بأطيافه.

---

(١) سورة آل عمران؛ الآية ١٥٤ .

إن أكثر نُقّاد الحالة السلفيَّة من اليساريين والليبراليين وأطياف الإسلاميين المختلفة هم من نفس النوع، والذي يُمكن اعتبارُه مقلوبًا للحالة السلفيَّة. بمعنى أن هؤلاء قد تلقّوا معارفهم بنفس الطريقة التي تلقّى بها السلفيُّون معارفهم، وذلك في محاولتهم، المحمودة الباعث والكارثيَّة المآل، لتجاوز منظومة التعليم المتهالكة التي تُفرز أميين لا يُجيدون أصلًا كتابة أسمائهم بشكلٍ صحيحٍ!

إن تدهور اللغة الأم يُساوي الجهل المطبق، فباب إدراكِ الوجود والعالم، بل وإجادة اللغات الأجنبيَّة؛ هو التضلُّع في اللغة الأم، ولنا في الطهطاوي وطه حسين أسوةٌ «حسنةٌ»!

وقد عرفت شبابًا مُخلصًا من التيَّارات كافَّةً، إسلاميَّةً وعلمانيَّةً؛ يعتبرُ ما قرأه فتحًا لا يأتيه الباطل من بين يديه، وأنه نهاية التاريخ وذروةٌ للمعرفة، وأن اللجوء لمرشدٍ يوجِّه له قراءاته هو نوعٌ من الوصاية غير المقبولة!

إن هذا الخلط بين الوصاية الفكريَّة والاستعانة بمن سبق على الدرب هو أحد تجليات تشوُّه اللغة ومن ثمَّ تشوُّه إدراك الوجود. فالاستعانة بأستاذ تُسهم في تجنُّب البداية الصفريَّة الطوباويَّة، وتفادي الوقوع في التيه بلا مركزٍ، و تُعين على تأسيس منهجٍ راسخٍ ومُستقلٍّ للنظر. والاستعانة بشيخٍ أو أستاذٍ أو معلِّمٍ لا يعني ترديد مقولاته إلا للببغاوات فحسب، أمَّا أصحاب العقول الحُرَّة فيتعيَّن عليهم أن يفقهوا استخدامات اللغة، ثم يُلمُّوا بفهم السابقين لدلالاتها، (لأن اللغة -خصوصًا العربيَّة- كائنٌ حيٌّ يعيش داخل التاريخ؛ مُحمَّلٌ بدلالاتٍ كثيفةٍ ومتقاطعةٍ)، وذلك قبل أن يؤسسوا منهجهم الخاص، وإلا فسنظلّ ندور في الدائرة الطوباويّة العبثيَّة: نقرأ ولا نفهم، وإذا فهمنا لا نستفيد، وإن استفدنا لا نُفيد.

أعرف جيّدًا أن أكبر أزمات جيلنا، والأجيال التالية؛ هي المعلِّم القدوة، وبرغم النُّدرة الشديدة لهذه النوعيّة، إلا أنها موجودة، فقط يحتاج الأمر بحثًا جادًّا. إن القراءة بدون خريطةٍ إدراكيّةٍ مؤهلةٍ لتلقّي ما تقرأ، والتفاعُل معه، وتجاوزُهُ (بمعنى البناء عليه وعدم التقوقع فيه)؛ لهي أخطر على الأمَّة من الجهل. فتوهُّم العلم أفظع وأفدح أثرًا من الجهل المعترف به!

والله نسأل أن يُعلِّمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علَّمنا.

٣٠٨- إن قبول «الآخر» لا يعني قبول أصنامِه، بل يعني قبول التكريم الإلهي الذي شُرِّف به كإنسانٍ؛ حُرِّيَّتُهُ في اختيار الشرك الذي ارتضاهُ لنفسه. تلك الحُريَّة التي صانها مانحها حتّى من قهره ﷻ، فلم يُكرهه على الإيمان، ولو أراد لأنفذ قضاءه سُبحانه. ومن ثمّ، فقبول الآخر عندنا ليس تسامُحًا، وإنَّما هو عدلٌ تعبَّدنا الله به. إنَّهُ عبادةٌ من صميم العبادة وذكرٌ لله من صميم الذكر. تسليمٌ مُطلق بالمركز المتجاوز، وهو الجوهر للتوحيد. أما التسامُح فمُجرَّد منَّة بشريَّة وتنازُل رخيص؛ شركٌ كامنٌ يستبطن كون المُتسامِح مركزًا بذاته، يملك ويمنع وبيده مقاليد الخلق!

٣٠٩- التنظيم (أي تنظيم) بتعريفه يقتضي تحديد أهدافٍ دنيويةٍ وذلك ليستقطب اتباعًا، على عكس التيّارات الاجتماعية/ الفكريّة المفتوحة. وفشل التنظيم في تحقيق أهدافه الدنيوية (السياسيَّة والاقتصاديَّة... إلخ)، ينهش قُدرة العضو على احتمال تسلُّط القيادة الهرميَّة؛ إذ يُصبح ذلك بلا ثمنٍ. إلا لو كان تنظيمًا يعد أعضاءه بالجنة الفوريّة ... كالحشاشين الإسماعيليَّة!

٣١٠- يتشابه تنظيم الإخوان المسلمين المعاصرين مع الكنيسة الكاثوليكيَّة في الكثير. ولكن أهم أوجه الشبه هو البنية التنظيميَّة الهرميَّة الوثنيَّة وطبيعتها، وانعكاس ذلك على تصوُّرات المنتمين للتنظيم. فالبنية تفرض نفسها على التصوُّر، وتُعيد تشكيله بعد فترةٍ. وفي حالة الإخوان؛ فقد حدث حلولٌ كاملٌ للإسلام في التنظيم، كما حدث الحلول الكامل للإله في الكنيسة من قبل. وكما أن الخلاص في الكاثوليكيَّة لا يتم إلا داخل الكنيسة، فإن الخلاص عند الإخوان لا يتم إلا داخل التنظيم. فلا مسيحية خارج الكنيسة، ولا إسلام خارج الجماعة/ التنظيم.

على الجانب الآخر؛ يُشبه التيَّار السلفي البروتستانت بشكلٍ واضحٍ، وعلى الكثير من المستويات. فمن الرؤية البيوريتانية (التطهُّرية) التي تُشيِّئ الإنسان وتصوّراته، إلى الولع بالحساب المادّي الكمّي للحسنات التي تُمهّد الطريق إلى الآخرة، وكأن الإنسان يعرف قيمة «التحويل» على وجه الدقَّة، ومن ثمَّ طبيعة «المقعد» الذي حجزه لنفسه في الفردوس!

لكن الأهم والأخطر هو الرؤية الحلوليَّة التي تصم كل التصوُّرات الإنسانيَّة في لحظات ارتكاس الفطرة، ولو اختلف موضع الحلول. فالحلول في السلفية (مثل البروتستانتية) يتم في مراكز متعددةٍ ولا نهائية (بعكس الإخوان/ الكاثوليك)؛ في كل «المؤمنين»، ليُصبح كُلٌّ منهم كنيسةً قائمةً بذاتها، وذلك اتساقًا مع تصوُّر الخلاص الفردي الذي يغلب على مُعتنقي أفكار هذا التيَّار.

والسؤال الآن في ضوء هذه النبذة عن التصوُّر الحلولي للتيَّارات الإسلاميَّة الرئيسية؛ كيف ستتعامل هذه التيّارات مع الإسلاميين المستقلين المعارضين لها؟!

ولا أقول مع الليبراليين أو الاشتراكيين أو الأناركيين أو القوميين.

إن الأطياف الأخرى -عدا الإسلاميين- ليس لها شعبيةٌ حقيقيةٌ في الشارع المصري، ومن ثم فلا خوف منها. وسيتعامل معها الإسلاميون الذين وصلوا للسلطة بمزيج من الانبطاح الفكري والانتهازية؛ بسبب عدم قدرتهم على الحوار الجاد. لكن السؤال الخطير هو: هل سيُعتبر الإسلاميون المعارضون لتصوُّرات الحُكّام وسياساتهم، خوارج وتكفيريين مُتطرفين يسعون لنقض الإسلام وهدم حكم الشريعة؟! أم أن الكنيسة -عكس نمطها التاريخي- ستتحمل «المنشقين» عليها، وستصبر على من ينتقدون اندماجها الانتهازي مع «البورجوازية»؟!

٣١١- أحيانًا تشتهي طعامًا لا تحتمله أمعاؤك، لسببٍ أو لآخر. وأحيانًا تشتهي الخلوة في الوقت الذي لا يمكن لروحك أن تحتملها، برغم أنك زاهدٌ في لقيا البشر... في ذات اللحظة!

عجبًا لأمر الإنسان ... ذلك المجهول!

٣١٢- .... ومن العصمة أنه كلما توثَّن السبب في حسِّك؛ كُسِر بدويٍّ يوقظ قلبك الغفلان، لتعود إلى المسبب تائبًا مُستغفرًا من شركٍ خفيٍّ كاد يودي بك. أن يُصرف عنك هواك؛ ليحتجب عنه قلبك بإرادتك.

بهذا المعنى؛ فإن القهر الإلهيّ لا يعمل إلا في مجالك البرَّاني تاركًا لك فضاءك الجوّاني، فإن رضيت فلك الرضا، وإلا فعليك السخط مُصاحبًا لنفاذ القضاء.

وهذا اللطف الإلهيُّ حافلٌ بالمعاني والدلالات؛ فرُبّما كنت خيرًا مما تظن، وربَّما يكون خيرك فقط بحاجةٍ لهزَّةٍ توقظه. إن هذه الهزّات هي «فُرصٌ جديدةٌ» تُعرض عليك يوميًا كإنسانٍ، فهلا انتبهت قبل أن ينقضي أجلك!!

٣١٣- كُلَّما ابتعدت الأمَّة عن الوحي زمانيًّا واغترب لسانها عن لسانه؛ احتاجت لنصوصٍ وكلامٍ بشريٍّ يحمل إليها مقصوده، أو يُعيدها إليه. الأوَّل (الذي يحمل لها مقصوده) يحلّ محلّ الوحي تدريجيًّا، ويُصبح دينًا عند المتأخرين من كل فرقة/ مذهب. والثاني (الذي يُعيدها إليه) يعيش بمقدار قُدرته على إعادة الأمة للوحي كُلما شردت عنه. فالنصُّ البشري إحدى اثنتين: إمَّا يحول بينك وبين الوحي، وإمّا يُخلّي بينكما.

وكل نصٍّ بشريٍّ لا يُعيدك للوحي الإلهي، فلا يُعوّل عليه.

٣١٤- ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

حينما يتحدَّث القرآن عن الفطرة، فإنه يتحدَّث عن شيء مُحدَّدٍ؛ عن مركزٍ واضح: فطرة الله التي فطر الناس عليها. فهي ليست فطرة الطبيعة، ولا فطرة الصُّدفة، ولا فطرة العادات الاجتماعيّة. بل هي فطرة الخالق الخبير فحسب؛ فطرة الله.

إن المجتمع الجاهلي قد يلتقي مع هذه الفطرة في مساحةٍ مشتركةٍ، لكن يظلُّ تصوّره بعيدًا عنها بعد أن مُسخت فطرته الربَّانية الأصليَّة التي فُطر عليها. إنه يعرف بعض أحكامها، وقد يلتزم بها طواعية لدوافع ماديةٍ نفعيّةٍ بحتةٍ، لكنّه يفتقد للمركز؛ لمصدر الإلزام الذي يحتفظ للفطرة بجوهرها الربَّاني، ويجعل انتكاستها قابلةً للعلاج، بمحاكمتها لذلك المركز الإلهي.

إن شرط إدراك الفطرة الإلهيّة وطبيعة تكوينها وحركيّاتها مُرتبطٌ كُليًّا بإقامة الوجه للدين؛ الدين الحق وليس أي دينٍ آخر. فساعتها، وساعتها فقط؛ يُمكن للإنسان أن يُدرك مغزاها وقوانينها.

(١) سورة الروم؛ الآية ٣٠.

إن شروط إدراك النواميس الإلهيَّة في النفس المجبولة من نفخةٍ إلهيةٍ، غير شروط إدراك النواميس الإلهيَّة في الطبيعة المجبولة من الطين. فالأولى مرتبطةٌ تمامًا وكُليًا بمعرفة الله وإسلام الوجه له ﷻ. أما الثانية، بارتباطها بـ«إعمار الأرض»؛ فهي مكفولةٌ للمؤمن والكافر. إن إعمار النفس فلا ينفصل عن إعمار ما بينها وبين أصلها. يقول سُبحانه في سورة النحل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]. إن هذا الهدى مُتعلِّقٌ بكشف القوانين الإلهيَّة في النفس والمجتمع، إنه الهدى الحق. إن مخالفته لا تؤدي للضلال عن الغاية الربَّانيَّة المرسومة فحسب؛ بل قد تؤدي لما هو أخطر كما يتبدّى في الآية التي تليها: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[2]. أن يُفترى على الله الكذب بسبب عدم الإيمان، فيتفكك المركز؛ ويُنسب للدين الحق ما ليس منه كما قد يحاجج بعض الجهال: أيَّ دينٍ تريدون؟ الأشعري أم السلفي أم المعتزلي أم الشيعي؟

إن الذين لا يؤمنون بآيات الله قد يشملهم المُعَمَّمُ صاحب الحرفة الوعظيَّة؛ فربّما كان مرتزقًا لا حظ له من الإيمان، وقد يفضُله زاهدٌ لا حظَّ له من العلم. يفضُله في أي شيءٍ؟ في الاقتراب من الفطرة؛ بل في الالتصاق بها والاستجابة لإيحاءاتها الربانيَّة.

إنه لا يمكننا الحديث عن الفطرة مع أصحاب التصوُّرات الماديَّة من المشركين، بل يجب البدء أولًا بدعوتهم إلى الله؛ يجب دعوتهم لمعرفة الله، ولإخلاص الوجه له. حينها سيُدركون هم وحدهم معنى الفطرة، سيُدركونها بغير مُعلم. سيدركونها لأن التوجُّه لبارئها يعني اليقين في المركز؛ في أنه لا تبديل لخلق الله ... لا تبديل للفطرة، فهي جوهر الدين القيِّم، ونقطة البدء في معرفة الله.

يقول المولى ﷻ في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا

---

(١) سورة النحل؛ الآية ١٠٤.

(٢) سورة النحل؛ الآية ١٠٥.

غَٰفِلِينَ﴾[1]. وقد سمَّى الإمام عليٌّ عليه السلام ميثاق البرزخ الذي ذُكر في الآية بميثاق الفطرة؛ أي ناموس استقامة النفخة الإلهيَّة في أداء دورها في الحياة الدنيا على أكمل وجه، رغم اختلاطها بالطين. إنها فطرة الله، ويجب ردها إليه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٣١٥- أنا كائنٌ لا عقلاني، فلا أقيسُ أموري بعقلي بل بشعوري. لذا فغالبًا ما أكون راضيًا عن مصيري ولو كان مأساويًّا؛ فقد اخترته بملء إرادتي. ليس بمعيار المصلحة أو المنفعة الماديَّة، بل بمدى إثرائه لشعوري. ورُبَّما كان هذا هو سبب رفضي للعقلانيَّة الماديَّة، بجفافها اللاإنساني؛ وتجلّياتها المُقبضة. من العلمانيَّة الإلحاديَّة إلى التديُّن «التطهُّري» الجافّ. فالإيمانُ عندي شعورٌ فيَّاضٌ؛ شعورٌ يُثري الوجود ويُضفي عليه الجمال، ويفعمه بالأمل في غدٍ مُغيَّب.

إن الإيمان هنا ليس تصوُّرًا رياضيًّا محدود العناصر محتوم النتائج، بل هو ذخيرةٌ لا نهائيَّة تجعلنا نوقن بشكلٍ «غير عقلانيٍّ» (أي لا علاقة له بالعقل)؛ أن هذه الحياة القصيرة ليست كل شيءٍ، وأن الآخرة ليست حتميَّةً عقلانيَّةً منقطعةً عمَّا قبلها، بل هي استمرارٌ شعوريٌّ ربَّانيٌّ للوجود الإنسانيِّ.

هذا الفيض الوجداني قد يولِّد «عقلانيته» الخاصَّة، ويُبرر الميتافيزيقا الشخصيَّة من خلال مقولات وجدانيَّة/ شعوريَّة؛ ليُصبح «العقل» تبعًا للشعور. وهذا هو الفارق عندي بين الإنسان الربَّاني المركَّب والإنسان/ الشيء (ذي البعد الواحد). إن الأخير قد يعرف بعض أشكال الإيمان عن طريق عقلانيته الماديَّة وما تُجرِّده من أدلةٍ ماديَّةٍ، فهي عقلانيةٌ نمت وتشكلت بعيدًا عن الوجدان، وإن أثراها الوجدان فيما بعد، لكن يظل إيمانه العقلاني البارد مُرتبطًا باطراد نسقه الفلسفي وقدرته التفسيريَّة. أما إيمان الأول فهو لا يرتبط بنسقٍ عقلانيٍّ ما قبلي، بل يولد نسقه الخاص من خلال شعوره بعالم الغيب الذي حُجِبَ عنه.

سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والرُّوح.

---

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٧٢ .

٣١٦- من الفوارق المهمَّة والمحوريَّة بين التوحيد والشرك؛ أن التوحيد يفتح أمامك آفاق المجال التاريخي، بل ويجعلك تستشرف ما بعده. فثمَّة غدٌ أفضل في الأفق. قد يكون محجوبًا عن ناظريك، لكنَّك تُدرك وجوده ولو بشكلٍ مُبهم. ومن ثمّ فأنت لست سجين الواقع المادِّي المُقبِض بحاضره. لست سجين الأسباب والصيرورة. إن التوحيد بهذا يرتبط في الوجدان الإنسانيِّ بالتفاؤل والقُدرة المتجددة على تجاوز الحاضر مهما بلغ بؤسه وانحطاطه. أما الشرك، فإنه يحبسك تمامًا وكُليًّا في الحاضر؛ في الآليَّات والأدوات والقوانين التي لا تُجسِّد ولا تتعامل سوى مع الواقع: الآن وهنا. ولذا كان الشرك مُرتبطًا بالتشاؤم حول مصير الإنسان ومستقبله، فقد تعلّق خلاصه بأسبابٍ ماديَّةٍ فحسب؛ أسبابٍ توثَّنت وحجبت المُسبب، فحبست الإنسان وملأت روحه بالعبثيَّة. إن قطع ما بين الأسباب والمسبب قد أشقى الإنسانيَّة، وسوف يظلُّ يُشقيها كلما انتكست فطرتها.

٣١٧- في عالمٍ يحكُمه البغاء، يهتمُّ بمؤخرة ممثِّلة سينمائيَّة أكثر من اهتمامه بمن يقتلهم الجوع والعبوديَّة للعبيد؛ في مثل هذا العالم الجاهلي الذي سقطت شرعيَّته الأخلاقيَّة يُصبح الحديث عن «القيم الإنسانيَّة» و«حقوق الإنسان» مُجرد ورقة توت تُستر بها عورة الحضارة المومس ... ودعوة يوميَّة للتقيؤ على هذا الدنس!

٣١٨- الطاغوت غبيٌّ، فهو لا يطغي على وعي عبيده إلا بعد أن يُمسخ وعيه وضميره.

٣١٩- لم يتحدث القرآن عن «عقيدة»، وإنما تحدث عن مراتب: إسلام وإيمان وإحسان. وهذه طبيعة المنهج الإلهي، فهو ليس منهجًا نظريًّا أنزل للدراسة النظرية والاستيعاب ثم التطبيق؛ بل أنزل للتجسيد الحي في أناسي مباشرةً. إن القرآن يتحدث عن معرفة الله باعتبارها صيرورةً مفتوحةً بدءًا بإسلام الوجه له ﷻ وليس انتهاءً بعبادته كأنك تراه، فهي «نهايةٌ» مفتوحةٌ للاجتهاد ... اسجد واقترب. وهذا غير «العقيدة» التي ينعقد عليها القلب في صورةٍ نهائيةٍ وتُشَكِّل تصورًا سكونيًا ميتًا. إن كل عقيدةٍ، وإن اشتملت على بعض الأصل؛ فهي ليست الأصل ولا هي الإسلام.

إن الإسلام هو رحلة العروج الدائمة، داخل التاريخ من المهد إلى اللحد؛ إلى الله. إنه ليس رحلة «معرفة» مُجرَّدة لله؛ بل رحلة حياة تسعى للاستقامة على أمره.
إن الحياةُ أسمى من الفكر.

٣٢٠- اللهم إني أسألك صدق الأولياء، وإخلاص المجاهدين، وحُبَّ العارفين، ورضا الصدِّيقين، ومعيَّة المُخلصين، ومنزلة الشهداء، وصحبة الأنبياء. اللهم إني أحب من أطاق العمل في سبيلك وهو يطلُبك حتى ارتضيته، فأعنِّي على نفسي التي علمت منها ما علمت حتى تُطيق العمل في طلبك؛ فترتضيها وتقبلها القبول الحسن. آمين.

٣٢١- في مرحلة الصبا تحلُم بتغيير العالم.
وفي مرحلة الشباب تكتشف أنه هدفٌ أكبر من عمرك وطاقتك، فتحلُم بتغيير بلدك.
وفي مرحلة النُضج تُدرك أنه يتعيَّن عليك البدء بأهلك ومَن تعول.
وفي مرحلة الشيخوخة تتمنّى لو كنت بدأت بنفسك، فقد اكتشفت أنك أنت العالم، وأنت هو الكون الأكبر، وأنت الخليفة.
أنت هي المعجزة. ليس على طريقة مشعوذي «التنمية البشرية» وأخواتها، ولكن على طريقة الصوفيّة الكبار. اسلك سبيلهُ، ولا سلوك بغير معرفةٍ، ولا معرفة بغير وحيٍ.
إن السالك هو العارف، وهو المعجزة ...
المعجزة التي لا تتحقق أبدًا في التاريخ، لكنها دائمًا في طور التحقُّق ... ألم يُخلق الإنسان في كبدٍ؟!

٣٢٢- منذ فترة وأنا أفكر بشكلٍ غير جادٍّ في وضع الأقليَّة الناصريَّة في دولة «الخلافة» الإسلاميَّة المظفرة وعاصمتها مصر، وهل تُصنَّف كأقليَّةٍ عرقيّةٍ أم دينيَّةٍ. فستختلف آليَّات التعامل معها في كلا الحالتين. فإن كانت أقليَّةً عرقيَّةً أمكن احتواؤها. أما إن كانت أقليَّةً دينيَّةً وثنيَّةً، فلا يُمكن دمجها إلا بشروطٍ صعبةٍ للغاية؛

لأن الإسلام يحرم عبادة الأصنام للأديان التالية على البعثة المحمَّديَّة ... وإن كان بعض الظرفاء قد جوَّز معاملتهم معاملة «عُبَّاد البقر»!

٣٢٣- الشعور أسمى من الفكر، والحياة شعورٌ دفَّاقٌ. فإن هيمن عقلك على شعورك، فأنت «حيٌّ» كآلةٍ. وإن هيمن شعورك على عقلك، فأنت حيٌّ كفراشةٍ!

٣٢٤- حيّرني سلوك الإسلاميين في الثُّلث الأخير من القرن العشرين، ولفترةٍ طويلةٍ. عنتريَّات رعناء في مواطن التأنّي والحوار العقلاني، واستخذاءٌ وانبطاحٌ وبراغماتيَّة في مواطن المواجهة والصمود والثبات. عُنفٌ في مواطن الدعوة، وتداعٍ في مواطن العُنف. وبعد بحثٍ وتأمُّلٍ طويلين؛ وجدت أنها سمة كافَّة الأنساق الأيديولوجيَّة أيًّا كانت. فالأنساق الأيديولوجيَّة صلبةٌ بطبيعتها؛ تسعى للتحقُّق الكامل وتخشى التحطُّم الحتمي بسبب لا إنسانيَّتها، وما ينتُج عنها من تشظٍّ اجتماعيٍّ بسبب مُفارقتها للوحي. ونجد لذلك السلوك اطرادًا واضحًا عند البلاشفة، وفي الثورة الإيرانيَّة، وفي التجربتين الناصريَّة والبعثيَّة، وذلك على سبيل المثال وليس الحصر. فالنسق الأيديولوجي زئبقي في تناقُضاته واستماتته العبثيَّة لإطالة عُمره القصير؛ فهو يتهرَّب من المواجهة الحقيقيَّة متوهِّمًا الانكسار، وقد يكون ذلك مناقضًا للظروف الموضوعيَّة تمامًا، والتي ربما كانت أكثر من واعدة (كما في حالة ٥ يونيو ١٩٦٧م على سبيل المثال)، و«يتصدَّر في الهايفة» كما يقول عامّة المصريّين، والحالات أكثر من أن تُحصى!

٣٢٥- لقد اختار ماكبث (بطل مسرحيّة شكسبير الشهيرة) مصيره في اللحظة التي كبَّل فيها نفسه بنبوءة الساحرات!

٣٢٦- المرأة ... كل المرأة؛ لا تعرف توسُّطًا ولا اعتدالًا في المشاعر. وسواء كانت أمًّا او أختًا أو زوجةً أو ابنةً ... أوغير ذلك؛ فأنت عندها قدّيسٌ أو زنديقٌ، ولا ثالث لخياراتها!

ويا ويل من زندقته المرأة وأخرجته من حظيرتها، فهو أكفر من مُسيلمة، ولو «حجَّ» البيت كل صباح!!

ويا ويل الناس ممن قدَّسته المرأة وتعبَّدت في محرابه، فهو في عينيها «بشر الحافي» ولو كان راسبوتين!!

إن المرأة التي تُقدِّسك تلاحقك كظلِّك ... إلى قبرك.

وتلك التي تُزَندِقَك تلاحقك لعناتها إلى قبرك ...

وليس ثَمَّ فارقٌ حقيقيٌّ بين الحالين ... فويلٌ لابن آدم من ابنة حوَّاء في كل الأحوال!

٣٢٧- إن الطريق إلى الله ليس طريق راحةٍ ودعةٍ، ولا طريق رضا الناس .. إن الطريق إلى الله طريق مكابدةٍ ومعاناةٍ؛ طريق ألمٍ وعناءٍ .. إنها ليست الطريق إلى العلو الدنيوي، ولا إلى النصر الماديِّ .. وإنما هي طريق العروج إليه، وفي العروج إليه يجب التخفُّف من كل شيءٍ شئنا أم أبينا .. إنك لا تعرُج بثقل الأرض ولا بأغراض الطين، ولا تعرُج بهوى النفس ولا بأحلام التمكين .. وإنما تعرج وحيدًا مُفردا خفيفًا متجرِّدا .. إنها قطعًا غير الطرق التي يختطها البشر لتبدأ على الأرض وتنتهي على الأرض .. إنها طريقٌ تبدأ على الأرض لتنتهي في السماء، أو لتعود إلى السماء .. إنها الطريق التي تُعيد العبد إلى معبوده والحبيب إلى محبوبه، فلا تسمو به فحسب بل تسمو به وبحياته الدنيا على قصرها؛ لتجعله أهلًا للعودة .. إلى ظلال العرش.

٣٢٨- اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك ... وهل تحتمل أن يُنزَّل عليك أيها المهزوم المهزول؟

هل تحتمل الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال؟

هل تحتمل ما أثقل كاهل الأنبياء والرسل؟

إذن أر الله منك طاقةً؛ أنذر عشيرتك الأقربين ... لعلك تستطيع!

٣٢٩- قال البعض: «يُشرق الله في قلوب الباحثين عنه»؛ تعالى. والصواب أن قلوب الباحثين عنه هي التي تُشرق بالمشاهدة. فالأصل لا يُشرق وإلا كان ممكنًا

غروبه، وإن غرب فهذا يعني غيابه، وهو لا يغيب ﷻ. بل نحن نغيب عنه. صلى الله على محمدٍ الهادي.

٣٣٠- يبدو أن داء «دُلَّني ماذا أفعل» مُستشرٍ بشكل يفوق التوقُّعات، ورُبما لا يفوقه سوى داء «ما البديل» ... !

٣٣١- ولا يُبكيني ويُمزِّق حشاي شيءٌ كالباحث عن الله ... من حيرة أبي إبراهيم ﷺ، مرورًا بسخط نيتشه الهائل على الأصنام التي نُصِبَت مكان الحقِّ، وغُربة كامو في رحلة البحث ... وانتهاءً بشابٍّ غضٍّ ينتمي أهله للإسلام اسمًا، لينشأ الشابُّ غريبًا يتخبَّط في دياجير الجهل، وقد لا يصل ... اللهم أنت الهادي إلى سواء السبيل.

٣٣٢- الفارق بين رؤية الإسلام للعالم ورؤية الإمبريالية الغربية، كالفارق بين السما والعمى ... فالأولى تكتشف الإنسان وطاقاته الجوَّانيَّة المذخورة، وتكشف الطبقات الجيولوجية التي كون تراكُمها ميراثه الثقافي، وعلاقتها بالفطرة وتجليات انتكاسها. أما الثانية فهي تغزو عالمه البرّاني المادي وتحوسله وتوظّفه. ولن تكون منحة الإله كتخبُّطات العبيد.

٣٣٣- ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

إنه موقفٌ مسبقٌ ذلك الذي يُعبِّرُ عنه قوم فرعون. ليس موقف باحثٍ عن الحق، وإنما موقف المتألِّه الذي يخشى على مصالحه. إنه موقف العند والاستكبار كما يتبدَّى في لفظتي: مهما، وما. قال الخليل: الأصل «ما». «ما» الأولى للشرط، والثانية زائدة توكيدٌ للجزاء. وقال الكسائي: أصله «مَه»؛ أي اكفف ما تأتنا به من آيات.

اكفف آياتك يا موسى؛ فلن تسحرنا عما نحن فيه من عبوديَّةٍ للباطل؛ أي لن تصرفنا أو تلفتنا بآياتك.

---

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٣٢.

إن صدق موسى لا يعنيهم كما قد يظنُّ البعض، فقد صمُّوا آذانهم ابتداءً. لقد استسلموا تمامًا لداعي الهوى، ولن يفارقوه حتَّى يتعرّضوا للآيات التي أنزل بها موسى. إن هذا التأفُّف المتكبِّر ليس تأفف استغناء، كما قد يبدو للوهلة الأولى، بل هو تأفُّف خوفٍ. إنهم يخشون تبعات إقامة الحجة؛ يخشون الثمن.

إن هذا الخوف من التعرُّض للحق سمةٌ غالبةٌ عند أكثر أهل الشرك، فهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم. لا يدركون تمامًا كيف رسخ هذا الشعور في أعماقهم؛ لكنه هناك. يدفعهم للهروب. إنهم يهربون من أنفسهم في حقيقة الأمر، وليس من البلاغ النبوي. وهم يعلمون أنهم لو فرُّوا من وجه البلاغ أو قاوموه، فسوف يبقى هناك شيءٌ ما يؤرقهم. شيءٌ في أعماق ضمائرهم ... شيءٌ سماه الإمام عليٌّ عليه السلام: ميثاق الفطرة.

٣٣٤- سألته: لم لا تطلبني؟

قال لو لم أطلبك، لما كنت. لكن الكون كونان؛ كون الخروج مني إليك، وكون الشهود منك إليَّ. فاخرج منك تجدك مطلوبي.

والمعنى أنه سُبحانه صوَّرك وأخرجك للوجود بغير اختيارك، لكنَّ شهود الحقّ مرتبطٌ كُليًّا باجتهادك كسالِكٍ. إن جوهر هذا الاجتهاد هو دوام السعي للخروج منك؛ للخروج من الجبر الطينيِّ إلى الاختيار الإنسانيِّ/ الربَّانيِّ ... هذه الحركة الدائريَّة الدائمة لا تخرُج أبدًا عن نطاق المشيئة الإلهيَّة، ولو خالفت في بعضها المحبوب الإلهيَّ.

٣٣٥- المباني سجن المعاني. وكل مبنًى سطا على معنًى؛ فقد اختزله في الشائع من الاستخدام وقتله ... أو قتل من وقع في غواية تجسيد ما لا يُقال!

الصوفيّة أنموذجًا ...

٣٣٦- أكبر «مؤامرةٍ» على الإسلام؛ هي جهل من ورثوه بحقيقته!

٣٣٧- العالم ليس غريبًا ... بل فيه أنت غريبٌ.
كم سيمُرّ من الوقت عليك لتتبين ذلك؟ ... قد لا يُكشف أصلًا!
لم أنت غريب؟ ... لأنك لن تحظى أبدًا بسلامٍ فردوسيٍّ كاملٍ في هذا العالم ...
وسلامك؛ هل يتحقق أبدًا؟ ... قد ... لكن ليس بهذا العالم ... عالم موكول أصلًا بمُفارقته ... بإرادتك أو رغمًا عنك ... في الأولى خيرٌ لك، والثانية القدر المقدور!

فعليك مفارقته وجسدك فيه ... أن تنبذه وراءك ظهريًّا والنفس تصطليه.

فإن كان لا بُدَّ مما ليس منه بُدٌّ، فليكُن في يدك وليس في قلبك ... فإنه في يدك قد يُعمر قلبك وفي قلبك سيُخرِّبُ الأكوان.

فلم قُذفت في هذا العالم؟ ... ألأشقى بغُربتي؟! ... بل لتعرف معنى الغُربة، وتُحاول العودة ... إلى أين؟ ... إلى القبس الذي يسكُنك، فمنه تعرُج وبه تعود.

فلم لا أوقف نهر التاريخ لأعود هنا، والآن؟! ... إيقاف النهر يعني الجفاف لباقي البشر؛ أن يجري الدم في شريان التاريخ ... دون الإنسان!

ستحوم حول الوهم الساكن في أحشائك .. ستجول على أشلاء ملايين الخلق... لكنك لن تعود. لن يؤذن لك!

وهل أحتاج إلى إذنٍ؟! ما هذا العسف؟! ... أريد العودة، فلم أنتظر الإذن ممن لا يعبأ بي وبآلامي؟! إن العودة فيها حياتي، سأولد فيها.

تولد؟ أوتعرف معنى العودة؟ أوتعرف إلى أين العود؟ أم أنت الظالم في ثوب الحالم؟

سأعود إلى ... إلى ... سأعود، و ... يكفي أني سأعود! سأعود لأمنح بعض المعنى لهذا الغرّ الموءود! سأعود إلى الفمّ اللافظ؛ فهناك سأجد المعنى حتمًا!

أوتعرف كيف تعود إلى الفم اللافظ؟ أوتضمن أن العود إليه من الممكن؟؟
يا رفقة هذا الدرب الموعود ...
لا يُمكن أن تتلمَّظ فُوَّهةُ الفم اللافظ لبُصاقٍ عائد!
كيف لهذا الفمِّ المدعو أن يتقبَّل بعض رُفاته؟!
ستعود ... لكن ليس إلى الفمّ اللافظ ...

سيعود الطينُ إلى الطين فهذا معقولٌ ... فسيصبح طينك بعد شهورٍ للأرض غذاء ... ستعود ... لكن ليس إلى الطين فحسب لأنك ما أنت بطينٍ محضٍ.

لو طينًا كنت فحسب لما كانت بالعود تنوء الأحلام ... هل تحلُمُ تُفّاحة بالعود؟ أم تحيا منضدةٌ على أمل عثورٍ بالمعنى؟!

سيعود الطين إلى الطين ... ويظلّ القبس يحوّم حول القنديل ...

أوقلت «قنديل»؟! أوكل عنائي لأجل العود ل"قنديل»؟! أوجنيٌّ الأسطورة أنا، فأعود إلى القنديل؟!

مشكاةٌ فيها مصباحٌ ... وزجاجة مصباح المشكاة تتلألأ كالدُرّ المكنون ...

سيعود الطين إلى الطين، ويعود النور إلى النور ...

سيعود الطين إلى الطين، وتعود أنت إلى النور ...

لكنك قلت «قنديل»!

قنديلٌ أو مشكاة ... لست الشجرة؛ لكنك ظلٌّ للفرع الأنور ...

سيعود القبس يُحلّق ويُحلّق ... لن تتلقّاه المشكاة كما تتلقى الأم رضيعًا ضلّ ...

لكن سيعودُ القبسُ ليرعى ضوء المشكاة ...

لن يَغدو شعاعًا في المشكاة ...

لن يَغدو شعاعًا في المشكاة ...

لن يغدو نور المشكاة ...

لكن سيظل يقبس من نور المشكاة ...

كيف؟

هذا ما أخفاه ... سُبحانه.

٣٣٨- نحن لم نعرف الله بالعقل كما يدّعي المثل السائر زورًا؛ بل عرفناه بميثاق الفطرة الذي تحدث عنه القرآن: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾[1]. هذا الميثاق هو ما أُرسلت الرسل وأُنزلت

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

الكتب لإعادة البشرية إليه؛ إلى الأصل والعهد الأول. هذه «المعرفة» الوجدانية الفطرية لا تصدر عن العقل، بل عن الشعور. ولا ينفي ذلك إمكانية معرفة الله بالعقل في حالاتٍ شاذةٍ، ولكنها معرفةٌ ناقصةٌ عوراء ككل معارف الفلاسفة. ولذا يكون الإيمان الناتج عنها باردًا لا حرارة فيه.

كل إيمانٍ لا يحدوه شعور حار فليس بإيمانٍ، وإنما هو «اعتقادٌ» نظريٌّ فلسفي/ كلامي لا تعرج به إلى الله، ولو دفعت به عن «شريعته» بعض الجهالات.

٣٣٩- للبوح غوايةٌ لا يستطيع الكثيرون مقاومتها، برغم عجز اللغة في مقامات العرفان. وقد سقط في ذلك الفخ كثيرون من كبار الصوفية والعارفين، وحتى من المتكلمين.

في مقاماتٍ بعينها يكون الذوق هو أقصى ما يُمكنك أن تبلغه، ويكون البوح خطيئةٌ وخيانةٌ تفقد بها بهجة الإدراك ولذة التذوق. ورُبما لهذا كان بعض الصوفية يخشى الكتابة ويرى الإملاء أقصى ما قد يجترحه ... وعلى مضضٍ.

٣٤٠- في مثل هذا اليوم، السابع من نوفمبر عام ٦٤٤ ميلادية والموافق غُرّة محرّم الحرام عام ٢٤ من هجرة المصطفى العدنان؛ احتضن ثرى المدينة المنورة ثاني الوزيرين والشيخين أمير المؤمنين الفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين الهادين المهديين؛ سيدي أبو حفص عمر بن الخطاب العدوي القُرشيُّ ﷺ. خادم رسول الله وشُرطيُّه و جلوازه؛ كما كان يحب أن يصف نفسه. وقد لقي ربَّه شهيدًا بعد ثلاثة أيام من تلقيه عدة طعناتٍ غادرةٍ وهو يُناجي ربَّه، ليلحق بالأحبة ويدفن إلى جوارهم.

وبقتله كُسر الباب؛ لتُقبل الفتن تترى كقطع الليل المظلم. بقتله ظهرت الحكمة الإلهيّة في كون الخلافة الراشدة هي النموذج الذي ينبغي السعي إليه، ولا يأثم المخلص الذي لا يصل إليه، فهي ليست مقامًا نهائيًا؛ بل حال الأمة الساعية لإدراكه في عروجها إلى المولى جل في علاه.

٣٤١- قاعدة مهمَّة: تمكين الكفار والمنافقين قد يفتن بعض المؤمنين، لكنه يفتن أكثر المسلمين والذين في قلوبهم مرضٌ.

أما عن الأسباب، فمنها مثلًا:-

أ- ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (سورة آل عمران؛ الآية ١٥٤) .

ب- ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. (سورة آل عمران؛ الآية ١٤١).

والمآل:-

أ- ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. (سورة آل عمران؛ الآية ١٥٧).

ب- ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾. (سورة آل عمران؛ الآية ١٤٢).

عجيبٌ أمر آل عمران ... عجيبٌ أمرها من أسرةٍ مباركةٍ، ومن سورةٍ مباركةٍ.

٣٤٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: *«مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»*.[1]

كان الأمر كذلك، وكان المآل بهذه الشناعة؛ ليبقى حجاب الغيب مستورًا. فإن هتك هذا الحجاب وكشف ما قد يأتي به الغيب ومحاولة تغييره قبل وقوعه؛ يُعطل الفعل الإنساني التاريخي الطبيعي، ويجعله فعلًا متجاوزًا للتاريخ ومن ثم غير خاضع -نظريًّا- للتقييم والحساب الأخروي.

إن هذه الرغبة ذات الطبيعة «الدينية» في كشف الغيب، والمحاولة «الدينية» لهتك حجابه؛ هي في جوهرها نزوع إلحادي، بمعنى إنكار التكليف والتاريخ واليوم الآخر ولو بشكلٍ غير واعٍ. فإن جوهر ما أنزل على محمد والنبيين -صلوات الله عليهم- من قبله هو الحث على العمل بغير معرفة النتائج الأكيدة ولا انتظار تحققها، وما الإيمان باليوم الآخر سوى مؤشرٍ على التسليم بإبهام

(١) أخرجه أحمد والأربعة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٠٤٧.

النتائج، وانتظار ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾[1]. ولعل آية سورة الأعراف السالفة الذكر كاشفة في هذا الموضع؛ يقول ﷻ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾. إن انتظار التأويل/ التحقُّق النهائيّ يجعل مهمَّة الرسل مكمِّلة للتكليف ومبيّنة لأحكامه؛ بكشفٍ محدودٍ للغيب يسمح للفطرة بالاستجابة لبارئها، ولا يُبطل الفعل الإنساني كما يفعل التنجيم والكهانة.

إن من ينسى يتعين عليه تحمل التبعات، فهذا هو جوهر التكليف/ المسئولية. وإذا كان القدر المحجوب يقع بإذن الله طاويًا رحمته ﷻ في ثناياه، فإن المعرفة «اليقينية» بذلك القدر قبل وقوعه تؤزم النفس بانتظار البلوى؛ انتظارًا غير مشمولٍ برحمة الله التي تصحب المصيبة ذاتها.

إن هذه المعرفة نزوعٌ إلحاديٌّ لأنها تُغلِقُ كل منافذ الأمل الذي قد يستشرفه الإنسان في الغيب المحجوب؛ لتحبسه في قفص المادية العبثي ... بلا أملٍ. فقد انكشف له الغيب، وأُحكِمَ السجن، ولم يعد ثَمَّة مفر.

٣٤٣- وها هو الفارس الشريف المخضرم، الذي لم يقل بعد إسلامه سوى بيتًا واحدًا، لبيد بن ربيعة بن مالك العامري؛ يُبين عن جاهليَّةٍ لا يستطيع أكثر المسلمين السمو لمستواها:

ألا تَسْألانِ المَرْءَ ماذا يُحَاوِلُ ... أنَحْبٌ فيُقضَى أمْ ضَلالٌ وباطِلُ
حبائِلُهُ مبثُوثَةٌ بسبيلِهِ ... ويَفْنى إذا ما أخطأتْهُ الحَبائِلُ
إذا المرءُ أسْرَى ليلةً ظنَّ أنهُ ... قضَى عَمَلًا والمَرْءَ ما عاشَ عامِلُ
فَقُولا لَهُ إن كانَ يَقْسِمُ أمْرَهُ ... ألَمَّا يَعِظْكَ الدَّهرُ، أُمُّكَ هابلُ
فتَعْلَمَ أنْ لا أنتَ مُدْرِكُ ما مضَى ... وَلا أنتَ مِمّا تَحْذَرُ النَّفسُ وَائِلُ
فإنْ أنتَ لم تَصْدُقْكَ نَفسُكَ فانتسبْ ... لَعَلَّكَ تهديكَ القُرُونُ الأوائِلُ

---

(١) سورة الأعراف؛ الآية ٥٣.

فإنْ لم تَجِدْ مِنْ دونِ عَدْنــانَ باقيــًا ودونَ معدٍّ فلتزَعْكَ العَـــوَاذِلُ
أرى الناسَ لا يَدرُونَ ما قَدرُ أمرِهِمْ بلى : كلُّ ذي لُبٍّ إلى اللهِ وَاسِـلُ
ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهُ باطِـــــلُ وكـلُّ نعيم لا مَحَـالةَ زائِــــلُ
وكلُّ أُناسٍ سوْفَ تَدخُلُ بَينَهُــــمْ دُوَيْهِيَةٌ تصفَرُّ مِنها الأنامِــلُ
وكلُّ امرئٍ يَوْمًا ســيعلمُ ســعيهُ إذا كُشِّفَتْ عندَ الإلَهِ المَحاصِــلُ

٣٤٤- كما انتقلت الحضارة الأمريكيّة من البربرية إلى الانحطاط دون المرور بالإنسانيَّة، فإن بعض «المثقّفين» ينتقلون من «شُكري مُصطفى» إلى «نصر أبو زيد»؛ دون المرور بالإسلام. وسبحان من يخلق ما لا تعلمون!

٣٤٥- وَقَدْ عَلِمَ القَبَائِلُ مِنْ مَعَــدٍّ إِذَا قُبَبٌ بِأَبطَحِهَا بُنِينَـــا
بِأَنّا المُطْعِمُـــونَ إِذَا قَدَرْنَـا وَأَنّا المُهْلِكُوْنَ إِذَا ابْتُلِينَـــا
وَأَنّا المَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَــــا وَأَنّا النَّازِلُوْنَ بِحَيْـثُ شِينَا
وَأَنّا التَارِكُـونَ إِذَا سَــخِطْنَا وَأَنّا الآخِذُوْنَ إِذَا رَضِينَـــا
وَأَنّا العَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَــــا وَأَنّا العَازِمُوْنَ إِذَا عُصِينَـــا
وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْـوًا وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِرًا وَطِينَا
أَلاَ أَبْلِغْ بَنِي الطَّمَّاحِ عَنَّــــا وَدُعْمِيًا فَكَيْفَ وَجَدْتُمُونَـا
إِذَا مَا المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَـــــا
مَلأْنَا البَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّــــا وَظَهرَ البَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَــفِينَا
إِذَا بَلَغَ الفِطَـامَ لَنَـــا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَـــاجِدينَا

يا لهذه العزّة؛ لله درُّ عمرو بن كلثوم. كانوا رجالًا في الجاهليَّة، رجالًا في الإسلام. كانت العرب في جاهليتها لا تُستعبد ولو لبعضها البعض، فخلف من بعدهم خلف استحبوا العبودية لمن غلب، وتحنَّثوا بالجاهليَّة وظنُّوها إسلامًا. فأنى لنا بهذه الجاهليَّة «النضرة»!!

٣٤٦- قبل الحادي عشر من سبتمبر (٢٠٠١م)؛ كانت الأدبيّات «الإباحيَّة» تُنظِّر للاستهلاك «الإسلامي» على استحياءٍ. أما اليوم فقد تحوَّل الموضوع بقدرة

قادرٍ إلى مُسَلّمةٍ لا شية فيها ... الاستهلاك عصب النمو والتطوُّر الاقتصادي، وبعد فترةٍ ستُضاف إليها «الإسلامي»، كما أضيفت للكثير من عورات الشرك وعوارض الإلحاد ... *حذو القذّة بالقذّة*[1]؛ صلى الله على محمدٍ.

٣٤٧- الفنُّ الحقيقيُّ أزمةٌ روحيّةٌ. والفنان الصادق كائنٌ مأزومٌ يبحث عن إجاباتٍ، فإذا استراحت نفسه لبعضها؛ ذبُلت القدرة الفنيَّة في روحه التي نالت قدرًا من اليقين. وهذا الذبول في حد ذاته إدراكٌ منه -ولو بشكلٍ غير واعٍ- لجوهر الظاهرة الفنيّة التي تستنطق الوجود بمادتها وفي محيطها. فهذه القدرة لا تذبُل إلا ليحلَّ محلَّها اليقين ... أو الموت. فالأسئلة لم تعد بعدُ مؤرقة، بل ذابت وابتلعها الفضاء كما يراه الفنان: محض عدمٍ، أو ذروة الوجود.

أما من يحيا طوال حياته فنانًا، فهو بين اثنتين: إما عاش مأزومًا حتى قضى، أو يرتزق بـ«فنه» بعد أن زالت أزمته. والأول قد يعيش مأزومًا لأنه يسأل الأسئلة الخاطئة أو يطرحها بشكل خاطئٍ، ومن ثم فلا ينال إجابةً، أو ينالها ولا ينتبه لذلك. ومن ثمَّ فإنه يقضي حياته «فنانًا». وحتى لو لم يكن إبداعه كله على ذات المستوى، فإنه لا ينقُصه الصدق في غالب الأمر؛ سواء صدق الأزمة أو صدق الجهل بوجود الحل، أو حتى صدق الجهل بوجود الأزمة ذاتها.

أما من يعيش ليرتزق بفنه، فهو غالبًا ليس بفنانٍ. أعني أن إبداعه لا ينطوي على القدر الأدنى من الصدق الفنيّ، فهو محض مُقلدٍ أو بهلوان أو حتى صانع ماهر؛ لكن صناعته ذات الجمال الظاهري تفتقد للروح، فهي كالزَّبَد؛ يفور قبل أن يختفي.

إن الظاهرة الفنيَّة أو التوهُّج الفني ليس بحالةٍ عقلانيَّةٍ ولا هي بحالةٍ خاضعةٍ للعقل، وإن كانت تتأثر بمُعطياته وسِجَالاته وحالته. لكنها تعبيرٌ لا واعٍ عن الأزمة التي يكون العقل فيها سببًا أو طرفًا رئيسيًا. وبرغم ذلك كله، فإنها لا تُعبِّرُ عن

---

(١) عن شَدَّاد بْن أَوْسٍ، حَدَّثَهُ عَنْ حَدِيثِ رَسُولِ الله ﷺ: «لَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ». رواه أحمد: ١٧١٣٥، وإسناده فيه نظر، ومعناه صحيح ثابت عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»، رواه البخاري ومسلم.

العقل ولا بِلُغته؛ بل بِلُغِة الروح والوجدان. إن الظاهرة الفنيَّة ليست هي الدليل الأهم على أن الإنسان ما هو بعقلٍ محضٍ فحسب، بل على أن مكونات الكينونة الإنسانية لا تنفصل عن بعضها البعض، وهي الدليل الأصدق على أن التعبير عن أكثر الأزمات العقلانية شراسة قد يكون تعبيرًا لا عقلانيًّا.

٣٤٨- لقد حوى المجتمع النبوي قاعدين ومُخلَّفين ومُثبِّطين ومنافقين، لكنهم كانوا الاستثناء الذي يؤكد القاعدة. ولا يَكثُر هؤلاء إلا في المجتمعات المريضة، التي حقّ عليها العذاب ... نسأل الله العافية.

٣٤٩- إنما مَثَلُ الإسلامين (بأطيافهم) والدولة الحديثة، كمثلِ سجين تصرَّف بانضباطٍ نموذجيّ، لفترةٍ خالط فيها سجّانيه في ذلك السجن المفتوح على مصراعيه. فمنهم من كسب ثقة السجَّان، ومنهم من ينتظر. وكل ذلك في سبيل تخطيط وتنفيذ هروبهم من ذلك السجن «المفتوح». وإلى حدٍّ ما؛ أمكن للكثيرين منهم اكتساب ثقة «الحرس». بل وسُمح لبعضهم بالتعاون معه ما داموا لا يُمثّلون تهديدًا لمواقعه ودوره على المدى القصير.

لكن الكارثة كانت في طول الأمد، وتطاول الصبر على الذُّل. فقد صدَّق كثيرٌ من الإسلاميين أنهم من هؤلاء الحرس. وفي أول فرصةٍ لاحت لترقية «المسجون» إلى «سجَّان»؛ قَبِلَ الحمقى. برغم أنهم سيعيشون حياتهم معزولين أيضًا كالسجناء!

إن معركة الإسلاميين الحقيقية والرئيسية والأهم ليست مع «العلمانيين» ولا مع «الفلول» ولا في سبيل الثورة «استمرار الثورة» ولا من أجل «تطبيق الشريعة»، ولكن مع نفوسهم المهزومة التي اعتادت الأسقف الواطئة والمواءمات السخيفة.

إن التحدي الحقيقي هو أن يحاولوا الخروج من السجن الذي نسوا أنهم لا زالوا فيه ... نفسيًّا على الأقلّ!!

٣٥٠- شتان بين العبوديَّة لله والاستعباد للعبيد ...

فإن كان العبد لا يرضى عنك إلا بتمام موافقتك إياه وكمال امتثالك لأمره. فإن الرب ﷻ يرضى عن العبد بإخلاصه -الذي لا يعلمه سواه ﷻ- في الامتثال لأمره، ولو غلبت عليه بشريته وضعفه. فإنه سُبحانه يقبل القلب قبل العمل.

٣٥١- من حكمة الأذان إعداد الإنسان للوقوف بين يدي خالقه، فالأذان جميل الصوت يفتح الله به قلبك؛ لتشعر أن الدعوة لك ... بشكلٍ شخصيٍّ ومباشرٍ. لبيك ربي...

٣٥٢- كانت وحدة الأذان أحد المعاول التي شقت قلب ليبولد فايس، وقطعت به خطوة على طريقه نحو محمد أسد. نفس الأذان في كل مكانٍ. نفس النداء الشجي المبارك الذي جعله يشعر بوحدة الوجهة رغم تنافُر السياسة ووهن التياسة.

٣٥٣- القيمة دائمًا أكثر تركيبيَّةً وأهميَّةً من الثمن. فالقيمة تنطوي على أبعادٍ غير ماديّةٍ؛ أبعادٍ إنسانيَّةٍ لا عقلانيَّةٍ. وللحُريَّة ثمنٌ ... فإن لم تكُن تعرف قيمة الحُريَّة؛ فستنكُص على عقبيك ساعة دفع الثمن.

٣٥٤- ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[١].

إن هذه الآي المعجزة ترسم بدقَّةٍ حدود مسئوليَّة الإنسان -من حيث هو إنسان- على هذه الأرض، في كل زمانٍ ومكانٍ. إنه مسئولٌ عن أفعاله مُقيّدٌ بهذه الفعال التي مُنح حُريَّة اختيارها ابتداءً. فلا جبرية تاريخية ولا حتمية مادية (اجتماعيّة أو بيولوجية) تسوقه.

إن الآية التي تسبق هذا المقطع وتلك اللاحقة عليه يُكملان الدائرة الأكبر: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٢]، وقوله ﷻ في الآية الثانية والأربعين: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ

(١) سورة النجم؛ الآيات من ٣٩ إلى ٤١.

(٢) سورة النجم؛ الآية ٣٨.

﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[1]. إن مسئولية هذا الإنسان الربَّاني مرتبطةٌ كُليًّا بـ«فرديَّته» على مستويي الالتزام والوفاء، ولو أخل المجتمع كله. فهو الستار الفاعل وهو المستخلف الممهَل. وبما أن المسئوليَّة يجب أن ترتبط بجزاءٍ يوفَّاه صاحبه بعد حينٍ، فإنها يجب أن ترتبط كذلك بـ«جهة» تقاضٍ وتقييمٍ. إنها متاليةٌ قرآنيَّةٌ ترسم طريق المستخلف بوضوحٍ لا تشوبه شائبةٌ: سعيٌ، تقييمٌ، جزاءٌ. وإذا كانت المتالية تبدأ من الإنسان (خليفة الله في الأرض)، فإنها تنتهي إلى مآلها الوحيد: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

إن هذه المتالية تُشكِّل نسقًا مُتكاملًا يضفي المعنى على الوجود الإنسانيِّ، وافتقاد أحد عناصرها يجعل الإنسان يتخبَّط في دياجير الجاهليَّة. فقد يبحث عن التقييم والعرفان والإشادة والتقريظ من الخلق، لأنه يأتي الفعل ليُعجبهم. وهو في حال انتكاس الفطرة هذه قد يعبُد -لا شعوريًّا- من يُضفي عليه من الصفات ما يحفظ عليه قدرته على الاستمرار.

إن هذه المتالية مُرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بالتوحيد، ولا يُمكن أن تتحقق قبل صدق المكابدة على طريق التوحيد في النفس والمجتمع. اللهم إنا نعوذ بك من الشرك ما ظهر منه وما بطن. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ.

٣٥٥- للقدس طريقٌ واحدٌ وحيدٌ هو البندقيَّة ...

وهذا الطريق لا يمُرُّ عبر المنظَّمات والهيئات والجماعات والأنظمة المتواطئة سياسيًّا، والتي تُتاجر بكل شيءٍ لمصلحتها. فالطريق الحقيقي والوحيد هو إسقاط الأنظمة الخائنة التي تقوم بالدور الرئيسي كحائط صدٍّ، وعراب للخيانة منذ تأسيس الكيان الصهيوني. بل ومن قبل تأسيسه. إن طريق البندقيَّة يبدأ بإزاحة من منعوها عنا وضيَّعونا في مسارب السياسة ونجاساتها التفاوضيَّة، ليحصلوا على السلطة الحرام والمال الحرام ...

إن المقابل كبيرٌ، فلا يفزعن إخواننا من الثمن الذي قد يضطرون لدفعه. إن المقابل هو تمهيد الطريق إلى القُدس ... تمهيده لنعبُر عليه جميعًا إلى هناك ...

(١) سورة النجم؛ الآية ٤٢.

ومن لم يلق الله في تونس، أو في عمّان، أو في دمشق، أو في بني غازي، أو في القاهرة ... فسيلقاه في القدس ... في مسرى النبيّ الأعظم ﷺ ... و ... هذا وعدٌ!

٣٥٦- هذا مقالٌ قصير للشاعر الفحل أحمد مطر، وقد آثرت إيراده كما هو بدون تعليق، فهو غنيٌّ عن كل تعليق:

للكاتب الإيطالي «إيتالو كالفينو» قصةٌ قصيرةٌ جدّاً من أعماله المبكرة عنوانها «الرجل الذي نادى تيريزا» .. وتكاد القصة كلُّها تتلخص في العنوان نفسه، فهناك رجلٌ واقفٌ على ناصية الشارع أمام مبنًى سكنيّ، ينادي بأعلى صوته «تيريزا»، ومع مرور الوقت يتجمع حوله حشدٌ من الفضوليين الذين يؤازرونه بالمناداة لعل علوَّ صوتهم مجُمعين سيجعل «تيريزا» تسمع النداء فتظهر.

وبعد وقت طويلٍ، يخطُر لأحد المحتشدين أن يسأل المنادي عما إذا كان متأكدًا من أنها موجودةٌ في البيت، فيجيب بالنفي. ثم يسأله آخر عما إذا كان قد نسي مفتاح البيت، فيجيبه قائلًا: كلا.. مفتاحي معي، لكنني لا أقيم هنا! عندئذٍ يسأله أحدهم بدهشة: إذن، لماذا أنت تنادي «تيريزا» هنا؟، فيجيبه ببساطةٍ متناهيةٍ: يمكننا أن ننادي أي اسمٍ آخر .. أو فلنجرب المناداة في مكان آخر إذا شئتم!

وواضحٌ جدًّا من هذه الإجابة أن الرجل كان يعبث ليس إلا، ومع ذلك فقد ظل الحشد يزداد، وظل النداء يرتفع؛ إلى أن داخل المحتشدين التعب والملل، فراحوا ينصرفون تباعًا، بمن فيهم الرجل العابث. لكن الأخير، بعد أن قطع مسافةً طويلةً، تناهى إلى سمعه صوتٌ وحيدٌ مرتفعٌ، آتٍ من الناصية، لرجلٍ مازال واقفًا هناك ينادي: «تيريزا»!

المغزى الذي تطرحه هذه القصة هو المغزى نفسه الذي طرحته تجربتي الشخصية قبل ما يقرب من أربعين عامًا، فقد وقع لي أنا أيضًا أن أفعل، في فترة مراهقتي؛ ما فعله ذلك الرجل العابث في قصة «كالفينو».

حدث هذا عند وصول عصابة «البعث» ثانية إلى الحكم عام (١٩٦٨م). ففي غروب أحد الأيام الأولى لنزول ذلك المد الشيطاني على البلاد، كنت أتمشى على

الرصيف المقابل لشط العرب، مع مجموعة من الأصدقاء، عندما زفر أحدهم متسائلًا: كيف أمكن لهؤلاء أن يأتوا ثانيةً؟ لقد كانت تجربتنا معهم في عام (١٩٦٣م) مصبوغة بالدم الذي لا يزال طريًا في الذاكرة، وكانت فترة مكوثهم التي لم تتجاوز الأشهر التسعة تعادل تسعة دهورٍ لفرط هولها، فكيف تَسَنَّى لهم بعد محقهم أن يعودوا بهذه السرعة؟!

وقال آخر: لا عليك، سيزولون بأسرع مما زالوا في المرة الأولى. إن آثار الكي ما زالت على القلوب. لن تجد أحدًا يؤيدهم، وستعصف بهم الجماهير التي لا تنسى.

ولأنني كنت قد قرأت في تلك الفترة كثيرًا من آراء بعض علماء الاجتماع العراقيين حول البنية «القطيعية» للجماهير، خصوصًا في المجتمعات المتخلفة؛ ووجدت تصديقًا لتلك الآراء في الشواهد التاريخية القديمة والحديثة التي طرحوها، فإنني سفَّهت القائل الآخر، وقلت بحدَّةٍ: إن جماهيرك تنعق مع كل ناعقٍ وتجري في أثر كل أفَّاقٍ، ويمكن لأي محتالٍ أن يقودها في الاتجاه الذي يريد، ثم يتركها لمصيرها. أما القلة الواعية، وهي دائمًا قلةٌ؛ فإنها ستُسحق تحت أحذية جماهيرك قبل أن تنطق، إذا هي حاولت تنبيه تلك الجماهير إلى خطورة الدرب أو كذب القائد.

ثم خطر لي، بما يشبه الجنون؛ أن أضع تلك الآراء موضع التطبيق الفوري، فطلبت من أصدقائي أن يعبروا معي إلى الرصيف المقابل، وحين وصلنا إلى شاطئ النهر، رجوتهم، عندئذٍ، أن يجاروني في كل ما أفعل أو أقول .. ثم إنني مددت ذراعي عاليًا، ورفعت إصبعي للسماء، فيما رأسي يلتصق برءوسهم، وقلت بصوتٍ تعمدت أن أجعله في متناول آذان المارة: هناك .. انظروا .. هل رأيتموه؟ اتبعوا طرف إصبعي.. أترون؟ شكله هُلامي ويتجه للأسفل. ولم يخذلوني، فقد ردد أحدهم بعفوية مصطنعة: نعم .. رأيته الآن. أعتقد أن سرعته قد خفت قليلًا، لكنه يبدو لي مثل الإسفنجة!

وصرنا نبتكر طرائق شتى لوصف ذلك الشيء الذي لا وجود له على الإطلاق. وفي غضون ثلث ساعةٍ تقريبًا كان عدد المارة الذين تجمعوا حولنا يكفي لإطلاق مُظاهرةٍ محترمةٍ، وكان الجمع يزداد بمرِّ الدقائق، والكل مُتجهٌ بنظره نحو الجهة

التي أشرت إليها، بل إن معظم الواقفين كان يرفع إصبعه ويشرح الشكل للواقف بجواره، بل إنني بأذني هذه التي سيأكلها الدود سمعت أحدهم يقول لجاره: إنه يتجه للأسفل. هو هلاميٌّ .. قد يكون مُذنَّبًا!

دعوت أصدقائي بهدوءٍ للخروج من المعمعة، وعدنا إلى حيث كنا على الرصيف المقابل، وعندئذٍ سألت صديقنا المتفائل: إلى ماذا ينظُر جمهورك هذا؟ ألا ترى أننا كان يُمكن أن نلتحق بهذه المظاهرة كالآخرين لو لم نكن نحن من صنعناها؟!

قال فيما هو يواصل الضحك مثلنا جميعًا: كلا .. نحن أعقل من أن نُتابع أمرًا دون أن نسأل عنه وعن كُنهه، وإذا لم نلقَ جوابًا معقولًا، فسنلوم جميع الواقفين على حماقتهم، ونمضي في طريقنا.

قلت له بثقةٍ بالغةٍ: أجزم أنهم سيورمون جسدك بالنعال قبل أن تمضي في طريقك، وأجزم أن أكثرهم قسوةً في ضربك سيكون آخر ملتحق بالمظاهرة .. أي أشدهم جهلًا بحقيقة الموضوع.

وسرنا، قاطعين طريقنا بالضحك، لنقطع بعدها عشرات الأعوام بالبُكاء المر!

ولا يزالُ بُكاؤنا المر مستمرًا بين من ينادي «تيريزا»، أو من يشير إلى الشيء الهلامي، وكلاهما يتجه بجماهير شعبنا.. إلى الأسفل!

٣٥٧- الوتر المرتخي لا يُصدر صوتًا ... وحده المشدود يعلو نغمه!

٣٥٨- كُن لا شيء في حضرته؛ تكُن كُلَّ شيءٍ بمعيَّته ... سُبحانه.

٣٥٩- من دُرر شيخنا محمد الغزالي رحمه الله: الحلال هو ما أحلَّه الله لك، لا ما حلَّ في يدك.

٣٦٠- لا أتعجّب ممن يحرصون على الوطن/ الإله أكثر من حرصهم على حرية وكرامة الإنسان، خليفة الله في الأرض؛ فالذل لا يُفقد الإنسان إنسانيته فحسب، بل ينحرف به عن جادة التوحيد وينحدر به إلى درك الشرك. يحرصون على المرعى والسياج الذي تتجمع عليه السائمة، برغم أن المرعى مسلوبٌ والسياج مفروضٌ.

يحرصون على ما فرضه عليهم الأجنبيُّ ورسَّخه الطواغيت، ويُفرّطون فيما أنعم الله به عليهم ابتداءً ...

إلى هؤلاء أُهدي أبيات أحمد مطر:

وطني هُنا

وطني أنا

ما بينَ خَفقٍ في الفؤادِ

وَصفحةٍ تحتَ المِدادِ

وكلمَةٍ فوقَ اللّسانِ

وطني أنَا: حُريّتي

ليسَ التُّرابَ أو المباني.

أنَا لا أدافِعُ عن كيانِ حجارةٍ

لكنْ أُدافِعُ عنْ كياني!

٣٦١- ... ولا يمكن أن تنفر الأمة جمعاء لنُصرة الحق، فلا يمكن أن تكون جميعًا على قلب رجلٍ واحدٍ، وعلى نفس المستوى الإيماني من الإحساس بمسئولية الاستخلاف. إنها طبيعة الإنسان، وطبيعة تكوينه الذي يؤثر الإخلاد إلى الطين. وهذا إنسانيٌّ جدًّا، فقد أخبرنا القرآن بخبر المخلَّفين في المجتمع النبوي. بل إن التخذيل والتثبيط للخارجين في سبيل الحق، على مرارته؛ هو حقيقةٌ إنسانيّةٌ يخبرنا القرآن والسيرة النبويَّة بأنهما كانا من عناصر المجتمع النبويِّ ذاته.

٣٦٢- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾.[1]

كم مرة رأيت هذا الناموس نافذًا في عمري القصير؟ أكثر من أن يُحصى. لكأنها صيرورةٌ لا تتوقف عن التحقّق كل لحظةٍ ... سبحان الله.

(١) سورة الأنفال؛ الآية ٣٦.

٣٦٣- لا يُوجَد شيءٌ اسمه فوضى مُطبقة بلا نسقٍ يحكمها؛ فالأدق هو جهلنا بالقوانين والأنماط. وهذا ينطبق بشدةٍ على الحالة التي نعيشها في دول «الربيع العربي». هناك نمطٌ غير ظاهرٍ للقاسم الأعظم؛ لكنه مطردٌ ... سبحان القاهر فوق عباده.

٣٦٤- وقد شغلتني في مرحلةٍ مُتأخرةٍ من نُضجي -ولا تزال- إشكاليَّة وجوديَّة محوريَّة: هل أنشغل بنقد قُبح فعال الخلق كما فعل المتكلِّمون، فتتأزم نفسي؟ أم أنشغل بالتسبيح بحمد الجميل ولُطف فعاله التي لا يضُرُّها قُبح فعال خلقه، مع التغاضي والتعامي عن فعال خلقه كما فعل بعض الصوفيَّة؟ ويبدو لي أن ليس ثمّة إجابة واحدة قاطعة للسؤال؛ نظريًّا على الأقلّ ... ولأكون أكثر دقَّةً، فقد اكتشفت أنني أجبت عليه عمليًّا وألزمت نفسي بإجابتي.

٣٦٥- الإنسان الطوباوي (وكُلُّنا ينطوي على بعضه) يفترض تعطُّل صفات الإله ونقص معلوماته، ناهيك عن جبروته ووحشيَّته. ولذا، فهو يُريد أن يفرض سلامه الخاص على العالم؛ السلام الفردوسي الذي يُوقِف حركة التاريخ ويحدُّ اندفاعه قسرًا. وغالبًا لا يُدرك البشر الذي يتبنون هذه الرؤية أن السلام البرَّاني لا يتحقق إلا بتحقُّق السلام الجوَّاني أولًا، أو يدركون ذلك لكنهم يعجزون عن تحقيقه (لأسباب شتَّى)، ومن ثمَّ فهُم يُريدون سلامًا مفروضًا من الخارج؛ سلامًا تفرضه قوّةٌ قاهرةٌ (قوَّة القانون في الدولة الحديثة مثلًا). فإن كان الإله في منظورهم عاجزًا عن ذلك؛ تعيَّن عليهم بذل الجهد والاضطلاع بـ«واجبات» الإله سواءً رفضًا له، أو زعمًا بأنه وكّلهم بذلك. وفي أصل ذلك يلتقي الطوباويُّون والمهدويُّون/ المشيحانيُّون والغنوصيُّون/ الحلوليُّون ... والملحدون!

٣٦٦- إن أهم ما يفعله الإنسان بحياته على الإطلاق هو أن يعيش اختياراته بالكامل، ولو كانت دراميَّةً أو مأساويَّةً. أن يحيا بالشكل الذي يُريده، مُتسقًا مع نفسه ومعتقداته. أن يحيا كإنسانٍ مُكلّفٍ واعٍ بحتميَّة سداد ثمن فعاله، فيمتلئ رضًا، ولا يندم على ما أنفق من عمره. فقد أفعم كأسه بيديه، وسيتحمَّل تبعة ذلك في الدنيا

والآخرة. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تُعوِّض الخُسر البرَّاني؛ التحقُّق الجوَّاني. أن يذوق الإنسان كُلَّ أنواع الشعور الإنساني، فيعرف نفسه المتقلِّبة، ويرى ربَّه الذي يُغيِّر ولا يتغيَّر ... سُبحانه.

٣٦٧- من الفوارق المهمَّة بين التوحيد والشرك؛ أن الموحِّد يختار التسليم الإرادي لربِّ العالمين سُبحانه، فهذا هو مناط التكليف. لكنَّ المُشرك يسعى لإعادة تشكيل إلهه الخاص ليُلائم خيالاته وأوهامه. إن الموحِّد متى عرف الإله الحقَّ لزم إرادته وتحقق بها. تحقق بصفة الواحد لصفته هو كمُستخلف. فهو على يقينٍ من الحكمة الكامنة، وإن عجز عن إدراكها. إنه جُزءٌ من يقينه في الفاعل اللطيف الخبير. أما المُشرك، فإنه متى عرف الحقَّ قال: ليته كان كذا وكذا، ولم لا يفعل كذا وكذا؟ ولم يترُك كذا وكذا بغيرحسمٍ؟ فهو يرفُض الصفة الفلانيَّة، ويتحفَّظ على الفعل العلاني، ويُبغض كذا وكذا، ويُهمل أمرًا ويقبل آخر. إنه يُريد إلهًا خاصًّا مُفصَّلًا على مقاس عقله وفكره القاصرين، ولا يقبل بالتسليم. وقد صان المولى سُبحانه إرادة هذا المشرك من قهره، وقد كان سُبحانه قادرًا على قهره على الإيمان، لكنَّهُ تركهُ ليُقيم الحُجّة على نفسه. فهو قد عرف الحقَّ، واختار هواه، ولولا هذه المعرفة لما أخذ وترك، ولولا الهوى لما ضلَّ عن الغاية المرسومة. والله يهدي إلى سواء السبيل.

٣٦٨- قدر الله عليه المرض في كربلاء، وهو ابن عشرين، لئلا يُستشهد في وقعة الطف، ويبقى شاهدًا عليها مُقيمًا للحُجة على الأمة مع عمَّته دُرة بني هاشم؛ الشريفة الطاهرة السيدة زينب بنت علي وفاطمة عليهم السلام.

وعندما أدخلوه ﷺ على ابن زياد سأله: «من أنت؟»،

فقال: «أنا عليُّ بن الحسين»،

فقال له: «أليس قد قتل الله عليَّ بن الحسين؟»،

فقال الإمام: «قد كان لي أخ يُسمّى عليًّا قتله الناس»،

فقال ابن زيادٍ: «بل الله قتله»،

فأجاب الإمام: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[1]،

فغضب ابن زياد وقال: «وبك جرأةٌ لجوابي وفيك بقية للردِّ عليَّ؟! اذهبوا به فاضربوا عنقه».

فتعلَّقت به عمّته السيدة زينب وقالت: «يا ابن زياد، حسبك من دمائنا»، واعتنقته وقالت: «لا والله لا أفارقه، فإن قتلته فاقتلني معه»،

فقال لها عليٌّ: «اسكتي يا عمَّة حتى أكلِّمه، ثمّ أقبل عليه فقال: أبالقتل تهدِّدني يا ابن زياد؟ أما علمت أن القتل لنا عادةٌ وكرامتنا من الله الشهادة؟».

٣٦٩- يرى أستاذنا علي عزت بيغوفيتش رحمه الله أن جودة القوانين والدساتير واحترامها، تتناسب عكسيًّا مع زيادة حجمها وتشعُّب تفاصيلها. ولولا ذلك مثلًا لما غيَّرت الوصايا العشر وجه التاريخ، برغم أن نصها في مجمله يحوي أقل من مائة كلمة.

وقد كان الدستور اليوغوسلافي هو أطول دساتير العالم في حينه (٤٠٦ مادّة)، ورغم ذلك كان الأكثر انتهاكًا على الإطلاق. في حين أن أقصر دستورٍ في التاريخ هو الدستور الأمريكي المكوّن من ٧ مواد و٣٦ تعديلًا تم إضافتهم على مدى ٢٠٠ عام من عمر الدستور؛ مما يشير لنظام قانوني مستقرٍّ ونادرًا ما يتم انتهاكه.

أما بريطانيا التي تُعتبر دولة القانون في العصر الحديث، فإنها لا تملك دستورًا رسميًّا بالشكل الذي تعارفنا عليه، بل عُرفًا دستوريًّا غير مكتوبٍ. لكن نيكاراجوا التي لا يعرف الكثيرون موقعها على الخريطة تملك دستورًا ضخمًا من ٣٣٦ مادّة، أما الجبل الأسود التي يبلغ تعداد سكانها ٥٠٠ ألف نسمةٍ فدستورها ذي السبعمائة ٧٠٠ مادة أكبر حجمًا من دستور الهند التي يسكُنها ما يزيد على البليون من أعراق وأديان ولغات لا تُحصى؛ يكونون ٣٠ وحدة فيدرالية.

لذا يخلص بيغوفيتش، بخلفيته كقانوني؛ أن الدستور القصير غالبًا ما يكون إشارةً على استقرار وديمومة النظام القانوني واحترامه.

---

(١) سورة الزمر، الآية ٤٢ .

وتعليقي هو: أن استقرار الدستور القصير مرجعه لسعة باب الاجتهاد للتقنين وعدم تقيُّده بتفصيلاتٍ مُعيقةٍ، بما أنه يُحدد أُطرًا عامةً اتفق عليها المجتمع. أما الدستور الضخم، فإنه يفتح الباب للتأويلات اللاهوتية التي ينفرد بها القانونيون دون غيرهم، باعتبارهم كهنة معبد الدولة ومُفسِّري النص «المقدس». وهو ما يؤدي بشكلٍ غير مباشرٍ لتحوُّل هؤلاء الكهنة لجماعة مصالح مُغلقة وفاسدة، ويؤدي لظهور ما عرفناه في مصر بـ«ترزيَّة القوانين»؛ الذين يُجيدون استغلال ثغرات النصوص الدستورية التفصيلية والمتشعبة.

إن الدستور الضخم التفصيلي الذي يسعى لئلا يترك شاردةً ولا واردةً إلا أحصاها هو مجرد وهمٍ لا يتحقق في الواقع، بل رغبة مرضية تكبِّل النظام القانوني وتزيد ثغراته وتجعل فرض سيطرة القانون مهمَّةً غايةً في الصعوبة، إن لم تكن مستحيلةً.

والعناية بالتفصيلات الدقيقة للدستور وبحجمه ستجدها دين الإسلاميين المتحزبين والمتمذهبين، ودين العلمانيين المعادين للدين على حدٍّ سواء. فإذا كان الأول يريد وضع كتابٍ مقدسٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ كتاب يضمن كل فرع وكل تفصيل يحفظ مذهبه ويقتل مخالفه. فإن العلماني المعادي للدين يريد تفصيلات كذلك تحفظ عليه كل شهوةٍ محرمةٍ وكل زندقةٍ مُجرَّمةٍ، وتصونه من أي عقاب قد يقع عليه بسبب استهانته بعقائد الآخرين.

والخلاصة في رأيي ألا نُنفق الكثير من الوقت في العناية بأي دستور حالي؛ فهذا غاية ما يستطيعه هذا الجيل الفاسد، وهو مرحلةٌ انتقاليةٌ لا بد منها. ومن ثم فعلينا ألا نحلُم بدولة قانون ولا باستقرار النظام القانوني في المدى المنظور. وألا نعوّل على هذا الدستور أو ذاك كثيرًا، ولا نُحمله ما لا يحتمل. فإذا كانت سلطة القانون واستقرار نظامه تُصان بالنصوص، فإنها أصلًا تنشأ في الضمائر والقلوب. وهذا التغيُّر الأخلاقي بحاجةٍ لجيلٍ، وربما أجيالٍ؛ ليترسخ.

٣٧٠- يتعامل الكثيرون مع القرآن باعتباره «موسيقى تصويرية» للمآتم وسرادقات العزاء. فهم يستغربون (ومنهم من يشمئز) استماع أي كائنٍ للقرآن في غير هذا الظرف!

وأنا من ناحيتي أستغرب انبعاث صوت مقرئٍ للقرآن من مسكن أحد هؤلاء، وأعتبره دليلًا على وفاة أحد أفراد الأسرة ... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٣٧١- محفورٌ في ثنايا الروح أن: من أراد الانضمام لقافلة مُحرري الإنسانية، فإن عليه تجرُّع مرارة الألم، فسعادته حلمٌ أو طرفة عين، ومعاناته هي القاعدة ... إنه المصير المحتوم. إن القاعدة يا رفيق الطريق تكمُنُ في تلظّينا بآلام الإنسان، في حين لا يشعر بآلامنا أحد ألبتة؛ فلا أحد بإمكانه أن يستشعر كمَّ الألم الذي يتوارى في طيَّات ابتسامة رضا مُحبةٍ عطوفٍ.

٣٧٢- اللهم إني أسألك ما سألك إياه عبدك وكليمك موسى عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾[1].

٣٧٣- نقِّل فؤادكَ حيث شئت من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ
كم منزلٍ في الأرضِ يألفهُ الفتـي وحنينــه أبدًا لأولِ منــزلِ
(أبو تمام)

٣٧٤- يُنسب للإمام علي عليه السلام قوله: اعرف الحق؛ تعرف أهله ... فلا يُعرف الحق بالرجال، و إنما يعرف الرجال بالحق ...

٣٧٥- كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحســبُ المنايا أن يكُنَّ أمانيـا
(المتنبِّي)

(١) سورة طه؛ الآية ٢٩ .

٣٧٦- كما أن المصائب لا تأتي فُرادى؛ بل دفعةً واحدةً ... كذا نطمع في رحمة الله أن تتنزَّل دفعةً واحدةً ... أن تنهمر كالسيل ... ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[1]...

٣٧٧- في مواضع عدة من سيرته؛ يتحدث محمد أسد عن رحلته إلى الإسلام باعتبارها «عودةً» حقيقيةً وليست رمزًا، لكنها ليست عودةً مشيحانيةً طوباويةً إلى فردوسٍ أرضيٍّ مُعيَّنٍ؛ بل عودة إلى أصل الإنسان: إلى ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[2].

٣٧٨- من وحي أحد أفلامي المفضّلة (August Rush) والذي لا أَمَلُّ مشاهدته أبدًا: للوجود موسيقاه الربَّانيَّة البهيجة. في دوران الكواكب، وفي تألق النجوم، وفي حفيف أوراق الشجر، وفي عبير الزهور، وفي ملاحقة أمواج البحر لبعضها البعض، وفي ارتشاف النحل للرحيق، وفي استقرار الجبال ... وفي سعي الإنسان لصيانة كرامته واسترداد التكريم الإلهي الذي سُلب منه، بتقويض الأصنام التي سلبته.

إن هذه الموسيقى المرتبطة بوظيفة عليا، هي التسبيح الذي تحدث عنه القرآن. فإن كنا لا نفقه تسبيحهم، إلا أننا نُدرِك أنهم يُسبِّحون. إن التسبيح هو الموسيقى الحقيقية التي تبعثها موجودات هذا الكون البديع. إن الموسيقى تسري حولنا في كل مكانٍ، وجلُّ ما نحتاجه هو أن نصيخ السمع؛ أن ندع هذا الفيض الربَّاني ينساب لأرواحنا، وسوف يتدفق ناعمًا كمنحةٍ فردوسيَّةٍ ... اذكروا الله.

٣٧٩- جاءه جدُّه المصطفى ﷺ في المنام ليلة العروج، ليلة عُرسه؛ ليلة عاشوراء وهو صائمٌ، فقال له: «*اليوم تُفطِر عندنا يا حسين*» ... عندنا؟ أيُّ عنديَّةٍ هذه؟! المصطفى المختار يقول عندنا؟!

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

---

(١) سورة نوح؛ الآيات ١٠، ١١.

(٢) سورة الروم؛ الآية ٣٠.

(٣) سورة الحديد؛ الآية ١٢.

٣٨٠- وقد كنت أتعجب وأستنكف وأشمئز من فكرة حجب «العلم» عن العوام والدهماء والسفلة، وأرى فيها تعاليًا غير مُبرَّرٍ يحجبُ الرسالة الخاتمة عن العالمين. لكني حين ميَّزت الفرق بين الوحي والنصوص التي كُتبت بهامشه وعلى حاشيته، لتكون معبرًا للأجيال أعجمية الذهن إلى الوحي. اكتشفت أن هذه النصوص ذاتها قد تحجب الوحي وتُضلل الدائرين في فلكها. بل إنها في الغالب الأعم تفعل ذلك. حين اكتشفت ذلك عرفت لم شاعت فكرة حجب «العلم» عن أبناء السفلة. وقد تزامنت هذه المعرفة مع تجربةٍ عمليةٍ أدركت فيها كيف يمكن أن يكون العلم فتنةً تضُر؛ خصوصًا إذا تعلمه أبناء السفلة. و«أبناء السفلة» ليست سُبَّةً ولا وصفاً طبقيًّا كما قد يذهب بعض الجهال. فهي لا تعني الفقراء، ولكن تعني أصحاب النفوس الوضيعة من المهزومين نفسيًّا والمتحدرين من بيئاتٍ مهزومةٍ لا خلاق لها. أصحاب نفسية الإماء والعبيد، ولو كانوا يرفلون في ديباج العتق. وكم من مُترفٍ هو من الدهماء السفلة، وكم من فقيرٍ هو من علية القوم وسادات الأمة.

٣٨١- لا يُمكن سنَّ قانونٍ لحماية ثورةٍ ... فالثورة أصلًا وبطبيعتها واستنادها على إلزام أخلاقي ذي طبيعةٍ ميتافيزيقية هي ضد فكرة الإلزام القانوني الوضعي على طول الخط. لكن يتم سنّ القانون لحماية المكاسب التي حصل عليها المجتمع وقبله من وصل إلى السلطة على أمواج الثورة ... هذا بدهيٌّ ولا يحتاج للشرح ولا للتبرير.

وانتقال المجتمع لهذه المرحلة يعني -ضمنًا- أنه لا يُمكن محاكمة الأداء القانوني الذي يُرسّخ الأمر الواقع، لا يُمكن محاكمته لمفهوم الثورة بمثالياته الميتافيزيقيَّة السائلة. فقد انتقل المجتمع من نسقٍ إلى آخر ذي خصائص مُختلفةٍ كليًّا.

إن القانون بحد ذاته مركزٌ لنسقٍ، كما الثورة أصلًا مركزٌ لنسقٍ آخر. ولا يُمكن الجمع بين المركزين في نسقٍ واحدٍ، كما لا يُمكن محاكمة نسقٍ وضعيٍّ ذي مركزٍ مستقلٍّ لآخر.

٣٨٢- قيل إن طائرًا أبصر بعض القردة، في ليلةٍ باردةٍ، غاب قمرها، يلتمسون نارًا من يراعة (وهي ذبابةٌ مضيئةٌ) فراح يصيح بهم: لا تطلبوا المستحيل، ولا تسألوا فاقد الشيء أن يعطيه .... وهم لا يصغون إليه.

ومر به ناسكٌ فقال له: لا تَبُحّ صوتك في نُصح من لا ينتصح، بل من يكرهون ناصحهم و يتبعون مضليهم.

قال الطائر: بل أُمِرنا بإرشاد مَن ضلَّ ولو كره.

قال الناسك: أخشى أن يُصيبك منهم شرٌّ!

رد الطائر: ضلالتهم وجهلهم هي الشر الأكبر ....

فذهب الناسك في طريقه وضاق الطائر ذرعًا بجهلهم، فنزل إليهم يُنَبّهُ إلى خطأ ما يرجون وعبث ما يستوقدون .... فأمسك كبيرهم به، ودق رأسه .... واستمر القردة ينفخون!

وكم من طائرٍ دقَّ القردة رأسه في هذا العالم، فكأنه ناموسٌ كونيٌّ والله المستعان.

٣٨٣- ما بين الذين يريدون ألا يُفكّروا وبين من يأبون إلا أن يُكفِّروا؛ ضاع العقلُ في حمأة الهوى.

٣٨٤- لولا الهوى لم تُرِق دمعًا على طللٍ ولا أرقت لذكر البان والعلم.
(البوصيري)

٣٨٥- قال الشاطبي رحمه الله في مقدمة كتابه الفذ؛ «الاعتصام»:

وَقَدْ نُقِلَ عَنْ سَيِّدِ العُبَّاد بَعْدَ الصَّحَابَةِ، أُويس الْقَرَنِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إنَّ الأمرَ بِالمعروفِ، والنهي عن المنكر لم يدع للمؤمنِ صديقًا. نأمرهمْ بالمعروفِ فيشتمونَ أعراضنَا، ويجِدونَ على ذلكَ أعوانًا منَ الفاسقينَ، حتَّى والله لقدْ رمونِي بالعظائمِ، وأيمُ اللهِ لَا أدعُ أنْ أقومَ فيهمْ بحقهِ».

٣٨٦- يحترف الكثيرون من أصحاب التصوُّرات الباطلة المبدأ الخبيث الذي رواه القرآن عن امرأة العزيز. مبدأ توريط المتقوّلين من ضعاف النفوس، والذين يُمثّلون تهديدًا واضحًا لأئمة الكفر.

تبدأ الحلقة من حيث وصفها القرآن: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]. لقد انحرفت هذه المرأة عن الحق بفعلها الشائن. هكذا انتقدتها نساءُ ذات الطبقة المترفة، ليس لفعلها الشائن؛ بل لشيوع ذلك عنها، وربما لاستئثارها بالفتى دونهن.

أما المرحلة الثانية فهي التوريط الأدبي، أو كما يجسد ذلك المثل العامي «اطعم الفم تستحي العين": ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [2]. لقد أرادت ليس فقط إبهارهن وإقناعهن بأن الفتى يستحق؛ بل وانتزاع الاعتراف مِنهُن بالتمادي، وسكوتهن تحت تأثير الصدمة اللاتي قطعن أيديهن جراءها، فهي دليلٌ ليس على جماله عليه السلام فحسب، بل على تهافتهن أيضًا.

ونصل للحلقة الثالثة والأخيرة، فقد تورط النسوة أدبيًّا في الاعتراف بحقها، فأمست امرأة العزيز أكثر صفاقة وشراسة في طلب الباطل كأنه حقٌّ: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.[3]

﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ﴾ مبدأ لا تكمُن خطورته في كونه قمَّة التمركز حول الذات فحسب، بل في أنه صدٌّ منهجيٌّ عن السبيل. صدٌّ يتميَّز به شياطين الإنس على شياطين الجن. ولا تجد من شياطين الجنّ من قد ترميك بدائها وتنسلِ!

---

(١) سورة يوسف؛ الآية ٣٠.

(٢) سورة يوسف؛ الآية ٣١.

(٣) سورة يوسف؛ الآية ٣٢.

٣٨٧- كان شارلي شابلن يرى في المفكرين والعباقرة والفلاسفة أشخاصًا عاطفيين حالمين، وقد ساهمت صداقته بالفيزيائي ألبرت أينشتاين في توطيد هذه الفكرة. فهو يرى أنهم أصحاب طاقاتٍ وأمزجةٍ عاطفيَّةٍ جارفةٍ ومتطرِّفةٍ. ويرى أن هذه العاطفة المشبوبة، برغم ما يُبدونه من هدوءٍ نسبيٍّ؛ هي السبب الرئيس للطاقة العقليَّة الفائقة. وأنا معجبٌ بهذا التفسير إلى حدٍ كبير ... جدًّا جدًّا جدًّا!!

٣٨٨- وقد آضت أماسيّ حُلمٌ متَّصل باللقاء ... حلمٌ لا ينتهي ولا تصرفني عنه راحة اليأس ... يا خوف فؤادي من غد!

٣٨٩- قال لها: ثمت امرأةٌ كان الله يسوق لها رزقها على يدي منذ أعوامٍ. وتقطعت بنا السبل حتى أرسلها الله إليَّ بتقديره وعلى غير انتظارٍ مني. فكيف ترين ذلك؟ قالت: هو الخير كله ساقه الله إليك، فأبشر بسعة الرزق إن نالت المرأة حقها المقدور فيه، فما ساقها إليك إلا ليبلوك أتشكر أم تكفر. وما شكر نعمته إلا أداء حقه متى سألك. فقال: الحمد لله الذي زوجني بك.

٣٩٠- ماهى از سر بگندد نی ز دم   فتنه از عمامه خزد نی ز خم

(مولانا جلال الدين الرومي)

الترجمة: تفسد السمكة من رأسها لا من ذيلها ... فالشرُّ يبدأ من العمامة (ولابسها) لا من الخمر.

والمعنى: أن فساد المجتمع لا يبدأ من عند من يُعاقرون الخمر، محدودي التأثير أصلًا؛ بل من فساد الدين وانحراف العلماء أهل العمائم.

٣٩١- يحدث كثيرًا أن ننتقد فكرةً أو مسلكًا لأننا لا نستطيع الإقلاع عنها، برغم يقيننا بأنها خاطئةٌ/ مُبتذلةٌ/ مُحرَّمةٌ/ سَخيفةٌ. وربّما تقعُد بنا الهمَّة عن تغييرها في أنفسنا، لكننا لا نريد لغيرنا أن يقع فيها.

ويبدو لي أن المثل القائل بأن «فاقد الشيء لا يعطيه» صادرٌ عن رؤيةٍ ماديّةٍ للوجود والإنسان، أو قُصد به الوجود المادِّي وتم توسيع مجاله الدلالي. فأنت لا يُمكنك أن تُعطيني كيلوغرامًا من الدقيق لو لم يكن عندك. لكنك مثلًا قد تُعلمني الحلم بسفاهتك، والصبر بهلعك. إن الإنسان ينطوي على أسرار الوجود ولا يملكها؛ بل يكتشفها في الآخرين غالبًا قبل أن يكتشفها في نفسه. فربما كان انطماس بصيرة البعض مفتاحًا لمعرفة معنى البصيرة، كما قد يكون جلاء بصيرة البعض بابًا لانطماس بصيرة البعض الآخر.

٣٩٢- ترك جُلُّ من يسمُّون أنفسهم بـ«أهل السنَّة» ذكرى عاشوراء وسيرة الإمام الحسين بغير استرجاعٍ ولا استئناسٍ ولا استعبارٍ. ولا تجد أحدًا منهم ولا من متعالميهم يذكُر أحدًا من مجُاهدي آل البيت الأطهار؛ من الحسين إلى النفس الزكيّة مرورا بزيد عليهم السلام. وبرغم الحالة «الثورية» التي ترفل فيها الدول العربية، فلا يوجد إمام جمعة واحد قد «يجازف» بذكر آل البيت في عاشوراء، كأنهم يخشون نظام يزيد اللامرئي!! وقد كنت أحادث بعضهم بهذا الشأن بعد انقضاء الصلاة، فكانوا لا يُحيرون جوابًا، أو يتبرع «قوَّاد» منهم لاعتباره من «مواطن الفتنة»!

ولم يكتف «أهل العلم» و«حُراس السنة» بذلك، رغم إفراطهم في الحديث عن نجاة موسى عليه السلام وقومه في عاشوراء؛ بل أخذوا يَعيبون على الشيعة «غلوَّهم» في الحسين وآله! عجيبٌ أمركم ... أكلما خالط سوءٌ حُسنًا؛ تركتموه خوف «الفتنة»؟! فهلا تركتُم الصلاة خوف الرياء؟!

صدق المتنبّي: ... **إلا الحماقة أعيت من يداويها!**

٣٩٣- ... ويُروَى أن ضُفدعة لعوبًا نصحت لإحدى صواحبها قائلةً: لا تقصدي البحيرة الفلانيَّة ففيها يكمُن ضفدعٌ ماجنٌ عديم الحياء لئيمٌ؛ ذهبت هناك أول أمس فاغتصبني، وذهبت بالأمس فاغتصبني، وذهبت اليوم فاغتصبني، وسوف أذهب غدا لأحسم أمري معه وأنظر ماذا يفعل بي!

إن هذه القصَّة «الخرافيّة» تُفسّر كثيرًا من عبثيّة السياسة في الدولة «الحديثة»!

٣٩٤- **الله يُنجي فؤاده من غوائله لأنه قد تمادي في تجاهـــله.**

(البيضاوي)

٣٩٥- رُوِيَ في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه حديثًا فيه قوله ﷺ: ***إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.***[1]

ومعنى «يؤيد» أي ينصُر، والرجل الفاجر يشمل من كان كافرًا بالكُلِّيَّة ومن كان فاسقًا. وهو لا يعارض الآيات الصريحة في الولاء والبراء، ولا قوله ﷺ: ***إنا لا نستعين بمشرك***[2]، لأنه محمولٌ على من كان يظهر الكفر. وسبب ورود الحديث يوضح معناه، فإنه ورد في قصة الرجل الذي قاتل، وقال النبي ﷺ: ***إنه من أهل النار***، وظهر بعد ذلك أنه قتل نفسه لعدم تحمُّله الجراح.

إن المؤمن لا يستعين بمن يُظهر الشرك/ الكفر، وإن كان ذلك المشرك/ الكافر قد يُسخِّره الله تعالى لنُصرة الدين.

لماذا كان الأمر كذلك؟

لأن استنصار الفاجر الصريح يؤدّي لموالاته والبحث عن مصالح مشتركة وقاعدة من التصوُّرات التي تجمع بينه وبين المؤمن (أسطورة المشترك الإنساني مثلًا)، ومن ثَمَّ يسقط المؤمن في فخ المساومة على أصله، بل وقد ينتهي به الأمر بالتخلّي عن دينه لا إراديًّا في سبيل «النصر» المنشود!

إن استنصار الواحد الأحد وحده ﷻ ليس جوهرًا للتوحيد فحسب؛ بل إنه قد يؤدي -بمشيئة الله وإذنه- لتسخير الفاجر لنُصرة الدين الذي لا يؤمن به، بغير

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُنَيْنًا، فَقَالَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ يُدْعَى بِالإِسْلَامِ: «هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَلَمَّا حَضَرْنَا الْقِتَالَ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالًا شَدِيدًا، فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرَّجُلُ الَّذِي قُلْتَ لَهُ آنِفًا: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» فَإِنَّهُ قَاتَلَ الْيَوْمَ قِتَالًا شَدِيدًا، وَقَدْ مَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِلَى النَّارِ»، فَكَادَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرْتَابَ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنَّ بِهِ جِرَاحًا شَدِيدًا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الْجِرَاحِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»، ثُمَّ أَمَرَ بِلَالًا فَنَادَى فِي النَّاسِ: «أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَأَنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ». رواه البخاري: ٦٦٠٦، ومسلم: ١١١ .

(٢) عَنْ عَائِشَةَ قَالَ يَحْيَى: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَحِقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ لِيُقَاتِلَ مَعَهُ فَقَالَ: «ارْجِعْ». ثُمَّ اتَّفَقَا فَقَالَ: «إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ»، رواه أبو داود: ٢٧٣٢، وأحمد: ٢٤٣٨٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢٢٩٣.

أن يثلم للمؤمن اعتقادٌ. إنه يُسخَّر رغم كفره لأنه خاضعٌ بالعبودية، فالله ﷻ رب العالمين وليس ربًّا طائفيًّا للمسلمين فحسب. وهو في هذه الحال يُسخَّر بأمر الله وحوله؛ بما أنه خاضعٌ بالكُليَّة للقادر ﷻ. وشتان بين هذا التسخير وبين استنصار المؤمن للفاجر؛ والذي يُضيِّع الدين بتمييع التصوُّر في سبيل وهم نُصرته.

لم يجعل الله في معصيته نُصرةً له، لكن أكثر الناس لا يعلمون.

٣٩٦- وقد فسد الكثير من «ثورات» الربيع العربي بسبب تبديد الجهد في الحرص على «سلميَّة» الثورة، والتنظير لرفض «التخريب». فاستغلَّت الأنظمة الفرصة لتخريب كل شيءٍ وقتل من طالته أيديها، ونسبة ذلك إلى «الثوار».

إن الثورة حالةٌ دينيةٌ لاعقلانية، ولا يُمكن التحاور مع الناس عقلانيًّا في هذه الظروف بشأن رفض «التخريب»، لكن يُمكن للفاعلين الاجتماعيين على الأرض تقليل الخسائر عمليًّا بالقدوة الحسنة ونبذ «المخربين».

٣٩٧- منذ خمسة عشر عامًا أو أكثر قليلًا، لم يكُن «عيد الأم» قد صار مناسبةً استهلاكيَّةً في مصر. ثم دشنته «اليد الخفيّة» لقوى «السوق الحرّ» لتشجيع الاستهلاك؛ ليُمسي أحد أهم المواسم الاستهلاكيّة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وحين زادت السلع عن الحد؛ لحقه في أقل من عقدين: «رأس السنة» و«الكريسماس» و«عيد الحُب» ... وصولًا إلى «الهالوين» الأمريكي.

وغالبًا فإن الإمعات التي تنقل هذه العادات الاستهلاكيَّة البذيئة لا تعي مضامينها الفلسفيَّة والعناصر الوثنيَّة الطافحة في بعضها مثل «عيد الهالوين»، لذا فقد نجد مُعممًا أحمق يُضفي عليه الشرعية فيما بعد.

إن هذا الفيض من «الأعياد» غير المبررة ليس سوى محاولة لاستمرار خطوط إنتاج سلع تافهة في العمل على حساب الملايين من المغيَّبين المغفَّلين الذين تعيش أكثر شعوبهم تحت خط الفقر.

أجد التفسير التآمُري شديد المصداقية والواقعية في هذه الحالة. فحين يتبنى بلد متردٍّ في كل شيءٍ (من المرور إلى الصحة مرورًا بالتعليم) أعيادًا انتُزعت من سياقات

حضارية أخرى بغير مُبررٍ واضح ولا سببٍ ظاهرٍ ومفهومٍ سوى الاستهلاك؛ فإن هذا لا يعني سوى أنها مؤامرةٌ بالفعل.

مؤامرةٌ أقل أضرارها اقتصادية وأخطرها عقديَّة ...

٣٩٨- «ثورة» ٢٥ يناير المصرية، ككل الثورات في التاريخ؛ ماتت في الريعان: يوم تنحَّي مبارك. وكل محاولات الناشطين و«المثقفين» الطوباويين لرد الروح فيها إنما هي محض عبث؛ قبلة الحياة لجثَّةٍ باردة متكلِّسة. قبلة لن تُعيد الحرارة للجسد الميِّت، وإنما ستُرهق هؤلاء السذج نفسيًا وتستنزفهم عاطفيًّا. وأقصى ما يمكن أن تتمخّض عنه هو بعض الأدب العبثي والمقولات الفلسفيَّة التشاؤمية، والتي قد تصل في كثيرٍ من الأحيان إلى الإلحاد أو إلى ... التصوُّف الانسحابي!

وكل هذا طبيعي ومتوقع ومكرر في التاريخ والخبرة الإنسانيِّين. ولا يُمكن تفاديه في كثيرٍ من الأحيان. بل وحتى ظن البعض بأنهم قد يستطيعون إضرام ثورةٍ جديدةٍ من لحد ثورةٍ لما تتحلل بقاياها بعدُ؛ هو أيضًا أمرٌ إنسانيٌّ برغم عبثيَّته الشديدة، ولا عقلانيته، ومجافاته لحقائق التاريخ والطبيعة البشرية.

وبرغم كل ما سبق، فإن ما يحدُث هو مؤشرٌ إيجابيٌ برغم كل مردوداته السلبيَّة. دليلٌ على إمكانيةٍ كامنةٍ، وإن كانت مؤجلة لعددٍ مجهولٍ من السنوات. دليلٌ على أن قدرة الإنسان على التجاوز هي جوهر الفطرة الربَّانية حتى في حال انتكاسها.

٣٩٩- مقبلٌ على الموت، وكُلُّ همِّه ألا تنكشف عورته للخلق؟! أي نفسيَّةٍ هذه؟!!

أن يكون كُل هم الإمام الحسين عليه السلام صبيحة يوم العروج؛ ألا تنكشف عورته إذا لقي ربَّه شهيدًا كما بشَّره جدُّه ﷺ. فيلبس بُردة جدِّه الشريفة (التي بليت) فيما يلي جسده، لئلا تنكشف عورته حين يسعى غوغاء جيش ابن زياد لسلبه بعد أن يَلقى ربَّه!

فالبردة الشريفة لن تكون مطمعًا لمن أعمتهم الدنيا وساقتهم الأهواء لقتل أشرف أهل عصره. يا للبردة و يا للابسها الذي أشقى من بعده ... صلى الله عليك وعلى من ربَّاك.

٤٠٠- عقد جلال كشك أحد الفصول الهامة في كتابه العمدة «ثورة يوليو الأمريكية» تحت عنوان: «ثورتنا التي أجهضت»؛ قاصدًا الثورة الشعبيَّة التي كانت تعتمل في أحشاء مصر فأجهضها الانقلاب العسكري عام (١٩٥٢م). وقد احتجت عشرة أعوام ومئات الكتب لأعرف لماذا تُجهض الثورات دومًا. وأن «ثورتنا التي أجهضت» لم تكن استثناءً.

الثورات تُجهض دائمًا لأن البلدان لا تحبل بها إلا سفاحًا. وأول من يسعى للتخلص من السفاح هو والد الجنين؛ خصوصًا إذا وصل للسُلطة وأمسى مُتنفذًا... فهو يريد الحفاظ على منصبه. والحفاظ على المكاسب نقيض الثورة على طول الخط. لذلك تُجهض الثورات دائمًا وأبدًا.

وقد صدق أستاذنا بيغوفيتش حين قال: إن حياةَ الدين والثورة تدوم بدوام النضال والجهاد، حتى إذا تحققا؛ يبدأ الموت بالتسرُّب إليهما. ففي مرحلة التحقُّق في الواقع العملي يُنتجان مؤسساتٍ وأبنيةً، وهذه المؤسسات نفسها هي التي تقضي عليهما في نهاية الأمر. فالمؤسسات الرسميَّة لا هي ثوريَّةٌ ولا هي دينيَّةٌ.

ليظل كل جيلٍ من أجيال الإنسانية يحكي عن «ثورتنا التي أُجهِضت». فالإنسانية لم تُخلق للحفاظ على مثل هذا النوع من الأجِنَّة.

٤٠١- يجب إبقاء النوافذ مغلقة «حتى لا يطير الدخان»؛ فلو طار لأفاق المغيَّبون!

٤٠٢- لا أحب مناقشة الأعمال الفنية بحضور مؤلفها أو كاتبها. قد يجوز ذلك في الأعمال الفكرية، لكني لا أستسيغه في النثر الأدبي والشعر. فإن المجال المجازي الذي يتركه الأديب/ الفنان بينك وبين النص هو جوهر المكسب الذي يجنيه مُتلقي العمل الفني؛ لإعمال الخيال والاجتهاد للتأويل. أما مناقشة المؤلف في كل تفصيلةٍ كأنه يُناقش رسالة «علمية»؛ فأمرٌ بغيضٌ بالنسبة لي، وأراه مُناقضًا لجوهر الفن وآلية التلقي الفطرية. فهو تقييد الدال بمدلول النقاش وتكبيلٌ للنص الرحب أصلًا، واختزالٌ للعمل الفني في دراسةٍ أو بحثٍ باردٍ كغيره من الأبحاث الأكاديميَّة الميِّتة.

٤٠٣- والشهداء لا يسقطون؛ بل يصعدون... يعرجون إلى الفردوس... وحدهم القاعدون والمخلفون هم من يسقطون.

٤٠٤- يبدو أن جوهر الرؤية الماديَّة العلمانيَّة ليس واحدًا فحسب؛ بل إن تجلياتها مُتشابهةٌ كذلك. فبعد أن عَبَدَ الناصريُّون والقوميُّون والشيوعيُّون وأطياف اليسار اللاديني قوى الاقتصاد «المحركة للتاريخ» في منتصف القرن العشرين؛ إذا بالمعبد يُفتح من جديد في مطلع القرن الحادي والعشرين، ليتعبّد فيه بعض أصحاب اللحى... هل أبدو كمن يجهل إباحة الإسلام لـ«الملكيّة الخاصّة»؟!... لكني على يقين من تحريمه للاحتكار واسترقاق الأحرار.

٤٠٥- كثيرًا ما حيرني تحمُّل جيل السبعينيات للموضة المقززة: «الشارلستون»، والسوالف التي تملأ الوجه، والألوان التي تُشبِهُ ملاءات الأسرة. لكني بعد أن عشت لأرى الجيل الذي تتدلى سراويله الممزقة لتكشف أكثر مما تستر ... وتوظف بناته الحجاب ليُصبح أكثر عُريًا وإباحيةً ... أدركت كيف يتحمل كل إنسانٍ قذاراته بسعادةٍ، وبغير عقلنةٍ ولا تبريرٍ. ورحم الله جدتي التي كانت تقول: «لو جِبنا للمجنون مِيت عقل على عقله، ميعجبوش غير عقله»! والحمد لله على العافية!

٤٠٦- قصة «الغنيمة» في تاريخنا غريبةٌ، والدرس الذي تلقيه علينا -كذلك- أغرب!! لقد بدأت أولى هزائمنا بسبب الغنيمة، ولقد وقفنا مُرغمين عند آخر مدى وصلت إليه فتوحاتنا، بسبب الغنيمة كذلك!! فقصة الغنيمة ... هي قصة الهزيمة في تاريخنا.

كان قائد المعركة الأولى هو الرسول ﷺ ... وخالف الرماة أمره، وخافوا من أن تضيع فرصتهم في الغنيمة ... فكانت «أُحُد» وشهد الجبل العظيم استشهاد سبعين رجلًا من خيرة المسلمين ... بسبب الغنيمة ... نعم بسبب الغنيمة!!

وكان قائد المعركة الأخيرة، «عبدالرحمن الغافقي»؛ آخر مسلمٍ قاد جيشًا إسلاميًّا مُنظمًا لاجتياز جبال البرانس، وفتح فرنسا؛ والتوغل -بعد ذلك- في قلب أوروبا.

وهُزِم الغافقي ... سقط شهيدًا في ساحة «بلاط الشهداء» (بواتيه) إحدى معارك التاريخ الخالدة والفاصلة ... وتداعت أحلام المسلمين في فتح أوروبا، وطووا صفحتهم في هذا الطريق ... وكان ذلك لنفس السبب الذي استفتحنا به دروس الهزيمة ... أعني بسبب الغنيمة.

(عبدالحليم عويس؛ دراسة لسقوط ثلاثين دولةً إسلاميةً)

٤٠٧- الانتصار في معركة ... والحصول على مكسبٍ وقتي ... والوصول إلى السلطة .. هذه كلها ليست هي قضية التاريخ ... ولا معركة التقدم البشري ... بل هي عمومًا ليست من عوامل تحريك التاريخ إلى الأمام أو الخلف على نحوٍ واضحٍ وضخمٍ ... إن الانتصار في معركةٍ قد لا يعني الهزيمة الحقيقية للأعداء، فحين لا تتوافر العوامل الحقيقية للنصر ... يُصبح أي نصرٍ مرحليٍّ عملية تضليل، واستمرارا للسير الخطأ، وتماديا في طريق الوصول إلى الهزيمة الحقيقية ... هكذا سار التاريخ في مراحل كثيرةٍ من تطوراته ... كان النصر بداية الهزيمة، وكانت الهزيمة بداية للنصر!

وحين يصل إنسانٌ ما إلى الحكم ... دون أن يكون مُعدًّا إعدادًا حقيقيًا للقيادة، ودون أن يكون في مستوى أمته ... يكون وصوله على هذا النحو هو المسمار الأخير الذي يُدَقُّ في نعش حياته وحياة الممثل لهم ... !

والتاريخ في دوراته غريبٌ وهو يعلمنا أنه لا توجد قاعدةٌ ثابتةٌ للتحول ترتكز على أسسٍ متينةٍ، اللهم إلا قاعدة التغيير من الداخل المرتكزة على عقيدةٍ لها جذورها في أعماق النفس، ولها انسجامها مع حركة الكون ولها صلاحياتها في البقاء والانتشار والخلود! **(عبدالحليم عويس؛ دراسةٌ لسقوط ثلاثين دولةٍ إسلاميةٍ)**

وتعليقي هو: لو لم يَخُطّ عبد الحليم عويس سوى هذه الأسطر؛ لكفته ... رحمه الله وأثقل ميزانه، فقد كتبها بإلهامٍ وهدايةٍ ربّانيةٍ.

ولمن لا يعرف، فهذا مقتطف من كتابٍ نُشرت طبعته الأولى عام (١٩٧٨م). أي منذ ٣٥ عامًا !!!

٤٠٨- وأكثر الناس لا يدورون مع الحق حيث دار؛ بل يدورون مع أصنامهم من الأفراد. فإن قال فلان -الذي يثقون به- بحقانية أمرٍ؛ امتثلوا كالنعاج. وإن قال ببطلانه؛ أمنوا بغير نقاشٍ. إن الله لم يجعل الحق رهنًا بكثرة التبع. بل إنه خاطب رسوله وخاطبنا بعده: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.(١)

فليكُن لك شيخك ومعلمك وقدوتك؛ لكن ليكن لك أيضًا منهجك في النظر. فإن قلَّدتَ شيخك قلدته عن علمٍ وقناعةٍ وبصيرةٍ، وليس كتقليد الببغاوات. أما إن كنت عاجزًا عن تشكيل منهج للنظر؛ فلا تُجادِل ولا تُناقِش وتملأ الدنيا عويلًا ما دام «رأيك» هو اجتهاد غيرك. فأنت والسائمة سواءٌ. وقد رُفِع التكليف عن الدواب!

٤٠٩- وكل عالم/ شيخ/ مفكر/ داعية يضع حمله على دوابِ تُقلِّده بلا تُعقُّلٍ، فإنما يُضحّي بدعوته في سبيل كثافة الجمهور. إن الإخلاص مع الله يقتضي ألا تُلقن المريدين/ التلاميذ/ المحبين آراءك؛ بل أن تُعلمهم «منهجك» وكيف وصلت لهذه الآراء. بهذا فقط تُحفظ الدعوات وتنصلح الأمم.

٤١٠- من حديث أم المؤمنين عائشة عن مناكح الجاهليّة الأربع ؛ تقول: *«فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمُ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ وَدُعِيَ ابْنَهُ لَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ»*(٢)!

---

(١) سورة الأنعام؛ الآية ١١٦.

(٢) عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ اليَوْمَ: يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ. وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ العَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ، تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ، وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ البَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمُ القَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ، فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ «فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ اليَوْمَ»، رواه البخاري: (٥١٢٧).

وكم من دعيّ أُلحق ببعض القافة؛ فما امتنع النغل من ذلك ... صدقت الصدّيقة بنت الصدِّيق؛ عليها وعلى أبيها السلام.

٤١١- ولا أعرف كيف يتسلق إنسانٌ ما سُلّمًا كُفريًّا، ويظُنه قد يؤدّي به للإسلام!! إن النُصرة مُرتبطةٌ بالمنهج، ولا انفصال بينهما إلا في حسّ المهزومين المهزولين المضللين.

هل تُرجى المودة والرحمة في الزنا؟ أم هل يُرجى وجه الله في الانكباب على وثنٍ؟!

٤١٢- إن خطورة الدول القومية وضررها الأنكى ليس في أنها «أخذت ولم تعط»، وليس في أنها «سلبت الاستقلال القومي»، وليس في أنها «وَظَّفت الموارد» لصالح الاستعمار، وليس في أنها «قهرت المواطنين»، وليس في أنها كرَّست حالة «استضعاف القلة» ونظرَّت لخرافة «الأقليات» وقننت وضعها المنحط. ولا في سائر التُرّهات التي يلوكها الفلاسفة والأكاديميون الغربيون ونُقَّاد الدول القومية.

إن الكارثة الأكبر هي إزاحتها للإله لتحل محله، فهذا هو أصل الداء؛ وكل ما عدا ذلك عرضٌ له ونتيجةٌ. ليُصبح مبنى البلدية مركزًا للدولة/ السمدينة، ويحل محله السوق/ المركز التجاري في الثلث الأخير من القرن العشرين، بعد أن أزيح المسجد/ المعبد تمامًا إلى الهامش. إنه نمطٌ وثنيٌ بالكامل، ولا يُمكن «أسلمته».

إن الخروج من نسق الدول القومية يستلزم عودة حقيقية للتوحيد.

وهذه العودة لن تكون قطعًا على يد «ميشيل فوكو» ولا «تيموثي ميتشل» ولا «برتران بادي» ولا غيرهم. بل على يد الغزالي وابن تيمية وأحفادهم من المجددين.

إن الخروج من هذه الهوة لن يستنقذ عالم الإسلام من مستنقع التجزئة فحسب؛ بل سيستنقذ البشرية كلها ... وهذا هو جوهر الدعوة للإسلام ولب هدفها.

«... لنُخرج من شاء من عباده من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»[1]. قالها ربعي بن عامرٍ ﷺ منذ ألف وربعمائة عامٍ لرُستم قائد الفرس، وحريٌّ بنا أن نُدرك حمولتها اليوم.

٤١٣- إذا كانت نبوَّة يعقوب ﷺ ظاهرةً باهرةً في يقينه بالله في هذه الآية التي تُعلم الإنسانية -إلى يوم القيامة- معنى تجاوز الواقع برغم مرارته: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[2]. فهو يوقن في وعد الله برغم اجتماع المصائب عليه. إلا أنه قد أخلد بعض الشيء إلى بشريته وأبوته في الآية التي تليها: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[3]. وحتى في هذا الإخلاد القصير المؤقت بدت نيته واضحة وتصوره صافيًا كما ترسُم السورة ذلك بعدها بآيةٍ واحدةٍ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]. إنه لا يعترض على القضاء ولا يحتج عليه. بل يقبله ويشكو ألمه للقادر ﷻ . فهو وحده القادر على رفع البلاء.

---

(١) ..قَالَ سَيْفٌ عَنْ شُيُوخِهِ: وَلَمَّا تَوَاجَهَ الْجَيْشَانِ بَعَثَ رُسْتُمُ إِلَى سَعْدٍ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ عَالِمٍ بِمَا أَسْأَلُهُ عَنْهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ﷺ. فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جَعَلَ رُسْتُمُ يَقُولُ لَهُ: إِنَّكُمْ جِيرَانُنَا وَكُنَّا نُحْسِنُ إِلَيْكُمْ وَنَكُفُّ الْأَذَى عَنْكُمْ، فَارْجِعُوا إِلَى بِلَادِكُمْ وَلَا نَمْنَعُ تجارتكم مِنَ الدُّخُولِ إِلَى بِلَادِنَا. فَقَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما هنا وَطَلَبُنَا الْآخِرَةُ، وَقَدْ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا قَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ سَلَّطْتُ هَذِهِ الطَّائِفَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَدِنْ بِدِينِي فَأَنَا مُنْتَقِمٌ بِهِمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلُ لَهُمُ الْغَلَبَةَ مَا دَامُوا مُقِرِّينَ بِهِ، وَهُوَ دِينُ الْحَقِّ، لَا يَرْغَبُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا ذَلَّ، وَلَا يَعْتَصِمُ بِهِ إِلَّا عَزَّ. فَقَالَ لَهُ رُسْتُمُ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ أَمَّا عَمُودُهُ الَّذِي لَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَّا بِهِ فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَقَالَ مَا أَحْسَنَ هَذَا؟! وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟ قَالَ وَإِخْرَاجُ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ. قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضًا وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟ قَالَ: وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، فَهُمْ إِخْوَةٌ لِأَبٍ وَأُمٍّ، قَالَ وَحَسَنٌ أَيْضًا. ثُمَّ قَالَ رُسْتُمُ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلْنَا فِي دِينِكُمْ أَتَرْجِعُونَ عَنْ بِلَادِنَا؟
قَالَ: إِي وَاللهِ ثُمَّ لَا نَقْرَبُ بِلَادَكُمْ إِلَّا فِي تِجَارَةٍ أَوْ حَاجَةٍ. قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضًا. قَالَ: وَلَمَّا خَرَجَ الْمُغِيرَةُ مِنْ عِنْدِهِ ذَاكَرَ رُسْتُمُ رُؤَسَاءَ قَوْمِهِ فِي الْإِسْلَامِ فَأَنِفُوا ذَلِكَ وَأَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ قَبَّحَهُمُ اللهُ وَأَخْزَاهُمْ وَقَدْ فَعَلَ.
تاريخ الرسل والملوك = الطبري، ٣/ ٥٢٠، والبداية والنهاية: ٧/ ٣٩ .

(٢) سورة يوسف؛ الآية ٨٣ .

(٣) سورة يوسف؛ الآية ٨٤.

(٤) سورة يوسف؛ الآية ٨٦ .

صلى الله على يوسف وعلى أبيه يعقوب وعلى أبيه إسحق وعلى أبي وأبيهم إبراهيم. صلى الله على الشجرة المباركة الطاهرة ورزقنا الاقتداء بها.

٤١٤- إن مدلول الحاكمية في التصور الإسلامي لا ينحصر في تلقي الشرائع القانونية من الله وحده. والتحاكُم إليها وحدها. والحكم بها دون سواها .. إن مدلول الشريعة في الإسلام لا ينحصر في التشريعات القانونية، ولا حتى في أصول الحكم ونظامه وأوضاعه. إن هذا المدلول الضيق لا يُمثِّل مدلول الشريعة والتصور الإسلامي!

إن شريعة الله تعني ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية.. وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول الأخلاق، وأصول السلوك، وأصول المعرفة أيضًا. (سيد قطب، معالم في الطريق)

... وأصول المعرفة أيضًا؛ هذا هو لُبُّ الأمر. رضي الله عنك.

٤١٥- لا يُعرف الله بالنظر العقليّ ولا حتى بالأثر الميت، بل بالحياة في كنفه. فكلُّ نفسٍ يتردد فيك حياة بثَّها وحفظها. كل نفسٍ هو قبسٌ من نفخته الإلهيَّة التي لا تُدرك ولا توصف. وحياتك على الفطرة تعرُّف عليه ﷻ بغير معرفة كنهه. هنا، قاب قوسين أو أدنى؛ تقف اللغة خاضعةً عاجزةً ذليلةً فلا تزلّ، بل تخر ساجدةً في عرفانٍ صامتٍ ... الحياة أسمى من الفكر.

٤١٦- وقد يُزعجك/ يُضجرك/ يُقلقك تأخُّر الإجابة، فإذا نفذ القضاء المقدور... عرفت أنه نفذ في وقته بغير زيادةٍ ولا نقصانٍ، وأن التوقيت الربَّاني أقوم وأهدى.

٤١٧- في الطريق إلى زمان العُرس، إلى يوم عاشوراء؛ لا يمكن إلا أن تصحبني كلمات الإمام الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ليلة استشهاده:

«خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيرٌ لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عُسلان

الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشًا جوفًا وأجربة سغبًا، لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجر الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعةٌ له في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه وينجز بهم وعده»[1].

صلى الله على محمدٍ وعلى آله الطيبين الطاهرين.

٤١٨- وكما دأب البعض على الدفاع عن الأمويين بالحق وبالباطل. فيبدو أن البدعة ستمتد هذه الأيام للدفاع عن العثمانيين، بالحق وبالباطل؛ في وجه حملات التشويه الظالمة التي نالتهم منذ ظهور الدول القومية الحديثة وسقوط دولتهم. ولأن هؤلاء يردون باطلًا بباطلٍ، فسنجد قريبًا من يُدبِّج الكتب في «خُلق الأولياء» الذي ما شذّ عنه سلطانٌ ولا والٍ!

٤١٩- برأيي؛ ليست المشكلة في التمذهُب ذاته. أن تكون سلفيًّا أو شيعيًّا أو أشعريًّا أو حتى مدخليًّا. لكن الأزمة الحقيقية في لوازم كل مذهبٍ. وفي العصر الحديث بعد أن أمست الدولة إلهًا، وحُكامها سدنةً للمعبد الوثني؛ صار تبني موقف الدولة/ الإله/ المذهب أصلًا وعقيدةً. ولعل من يُسبغون القداسة على مواقف الدولتين الإيرانية والسعودية، ويتبنون مواقفهما الدنسة؛ نماذج واضحة.

٤٢٠- الحس الفني أسمى من اللغة. ومن امتلك حسًّا فنيًّا؛ سهل عليه توظيفه وإبرازه من خلال أي لغةٍ يتقنها، ولو لم تكن لغته الأم. شرط تمام إتقانها. وبرغم ذلك، فإن هناك مساحاتٍ تبقى مقصورةً على اللغة الأم بدرجةٍ كبيرةٍ. ومنها الشعر على سبيل المثال وليس الحصر.

---

(١) الأثر نسبه للحسين عليه السلام نجم الدين محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما الحلي في كتابه: «مثير الأحزان»، وعليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني فى كتابه: «اللهوف على قتلى الطفوف» . والرواية عندهم : «الحمد لله وما شاء الله، ولا قوة إلا بالله، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيرٌ لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشًا جوفًا وأحوية سغبًا، لا محيص عن يوم خط بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرُّ بهم عينه وينجز بهم وعده، من كان باذلا فينا مهجته، وموطنا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا فإني راحل مصبحا إن شاء الله».

٤٢١- ليس بمقدور الذكرى والحنين والشوق إحياء الموتى من البشر، لكن بمقدورها إحياء ميت القلوب. إنها لا تعيد الأحبة للوجود ثانيةً؛ بل تملؤنا بالمشاعر التي كنا نحملها لهم وتؤججها. إن الذكرى بالأصل حاجةٌ وجدانيةٌ لا عقلانية تُعيد للوعي التاريخي مضاءه.

وحين أمر القرآن المصطفى وكل الأنبياء من قبله بتذكير أقوامهم بما كان منهم في البرزخ الأول من اعتراف بالربوبية؛ حين أمر بهذا التذكير قرر أنه لن ينتفع به سوى المؤمنين ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾[1]، وذلك ليس فحسب لأنهم هم أصحاب القلوب الحيّة دون غيرهم؛ بل لأنهم هم الذين يرتبط الإحياء عندهم بالفعل الجوّاني (مناط التكليف) قبل الأثر البرّاني (المعلقة صورته بالمشيئة الإلهية)؛ فالأول منشئٌ للثاني، والقدر النافذ في المجال البراني ستار ما انعقد عليه القلب في الفضاء الجواني.

إنهم لا يحلمون بطوبيا يتوقف فيها التاريخ بعودة الأموات الأعزاء؛ بل يجعلون من ذكرى هؤلاء قوتًا يُعينهم على تحمل وعثاء التاريخ والكبد داخله. إن الذكرى مدرسةٌ تاريخيةٌ، وليست لحظةً فردوسيةً للخروج من التاريخ.

٤٢٢- أمسى الحديث عن خبرة الإخوان السياسية (طوال ثمانين عاما!) ينطوي على قدرٍ كبير من الأيقنة، وانعدمت مقدرته التفسيرية في ظل التخبُّط السياسي الشديد وتشوُّه إدراكهم للواقع؛ اللذين وصما كل تحركاتهم وقراراتهم منذ اندلاع الثورة.

في الوقت نفسه؛ لا يمكن اعتبار صعود الجماعة لسدة الحكم دليلًا على مثل هذه «الخبرة» التي أمست أقرب للأسطورة، وإلا جاز بنفس الوقت تفسير النسبة التي حصل عليها السلفيون في البرلمان بـ«تيجي مع الهُبل دُبل»؛ كما يقول العامة!

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٧٢.

لقد كنا نُمازح بعض أصدقائنا حديثي الزواج بـ«الطعن» في رجولتهم بسبب ردود أفعال أو مواقف معينة نراها لا تليق بالرجال، فيُشيرون إلى أطفالهم كدليل على الرجولة ... وكأن الرجولة في تعريف المجتمع أمست هي محض الذكورة. لذا، كنا نزيد من جرعة السخرية بحجة أن البعوض والحشرات والكلاب والخنازير قادرةٌ على التناسل هي الأخرى، فما الفارق الجليُّ الذي يميزهم عن هذه العجماوات؟!

ويبدو أن الإشارة لموضوع الخبرة السياسية ستصير إشارة من هذا النوع؛ دليل على حياة بيولوجية نشطة ... رُبما ... لكنها لا تشير إلى شيءٍ آخر! ولا عزاء للمكلومين ...

٤٢٣- والتفكير من داخل النسق لا يعني القبول به بالضرورة، بل محاولة التعامل معه بأدواته.

٤٢٤- حتى لو صحَّ أن ما حدث في مصر كان ثورةً حقيقيَّةً، وليس مجرد نقلٍ للسُلطة من فصيلٍ إلى آخر، فإن التاريخ يُخبرنا أن الثورات تنتهي بمُجرد اعتلاء أحد «المستضعفين» لسُدَّة الحكم!

ولا تستطيع كراهيتك للإخوان أن تنفي حقيقة تصنيفهم، ولو إعلاميًّا؛ في خانة «المستضعفين».

إن مشكلة هؤلاء الواهمين الذين يحلمون باستمرار الثورة بعد استعادة الدولة للكثير من توازُنها؛ أنهم يطمعون في حالةٍ ثوريّةٍ سرمديَّةٍ لا تنتهي، وهو ما يُناقض الطبيعة البشرية وتجربتها التاريخية على طول الخط. ولأن أكثر هؤلاء الطوباويين لا يحتملون العمل الشاق الطويل؛ فهُم لا يريدون استثمار ما حققوه برفع سقف الحريات؛ للعمل بين الناس وإحداث تغييرٍ اجتماعيٍّ أعمق. فهم يُريدون نتائج سريعةً ومكاسب سياسيةً أسرع. وهي مُراهقةٌ نفسيةٌ وسياسيةٌ.

إن الكتلة التي ستخرج سواء لتأييد أو لرفض سياسات «مُرسي»، في المدى المنظور؛ ستظل كتلةً صغيرةً محدودةَ التأثير. فالوصول إلى الكتلة الحرجة يستلزم وقتًا أطول، ونفسًا أطول، واحتقانًا أكبر. وهذا الأخير بالذات هو أهم عُنصر، وهو

لا يشتعل على فتراتٍ متقاربةٍ أبدًا. خلاصة الأمر؛ أن الإخوان ومرسي ليسوا واقعًا لا سبيل لنقده أو تجاوزه، بل إن هذا مُمكن بطبيعة الحال. لكن يلزمه الكثير من الذكاء والإخلاص والدأب، وهو ما يفتقده أغلب المتصدرين في المشهد السياسي[1].

٤٢٥- إلهي الرحمن الرحيم: لست بخائفٍ من الوحدة؛ لأني أستشعر معيَّتك تهديني السبيل. ولست بخائفٍ من خلقك؛ فكل دابةٍ أنت آخذٌ بناصيتها، وأنت خيرٌ حافظًا. ولست بخائفٍ من الرجيم؛ لأن قبسك الذي أودعتني إياه يوم نفخته في طيني لا زال يحذرني من عدوِّي الأزليِّ.

إلهي لا أخاف إلا عصيانك مُتبعًا شهواتي؛ منساقا لنفسي الأمَّارة بالسوء .. لأستحق غضبك .. إلهي .. لا أرتجف فرقًا إلا من غضبك، وأسألك أن تغيثني منه برحمتك التي وسعت كل شيءٍ.

٤٢٦- إذا ما تحقق أعظم أحلامك، فإنك لا تستطيع التحقُّق من مدى مُطابقة الواقع لخيالاتك!! إن الذهول الذي يتملكك لا يجعلك قادرًا إلا على أن تبتهل للذي منَّ عليك، أن يحفظ عليك علامة حبِّه لك، و رحمته بك، مُعاهدًا إياه ﷻ على أن تحفظ نعمته ما وسعك حفظ روحك بين جنبيك؛ دلالة عرفانك.

٤٢٧- يرى أستاذنا بيغوفيتش أن ما يبقى من الإنسان بعد وفاته هو «طيبته» فحسب. ولم أدرك معنى ذلك إلا حين وجدت نفسي أحب (أو أستمر في حب) بعض من أرفضهم كُليًا، وأرفض فِعالهم وتصوراتهم. أُحبهم بصدقٍ، فقط لأنهم طيبون. لا لأي شيءٍ آخر. أحبهم لأمرٍ لا علاقة له بالعقل، ولا بالمعايير العقلية ولا حتى بالمعايير «الشرعية» التي يعتبرها بعض أصدقائي السلفيين معيارًا للعمل القلبي!

ويبدو لي أن الحب من هذا النوع، وبهذا القدر من التجرُّد؛ هو بعيدٌ البُعد كله عن مجال عمل مفهوم الولاء والبراء. بل دليل عدم ارتباط العمل القلبي الجواني

(١) كتبت هذا قبل الانقلاب العسكري، ولازلت أرى صحته بدرجة كبيرة.

بالمفاهيم والمعايير القانونية ذات الأثر القانوني البراني مثل الولاء والبراء ... إنه محض استشرافٍ للفطرة الكامنة؛ ذلك الغرس الرباني الذي يُبقي فيهم ما يستحق الاحتفاظ بالعلاقة بالنسبة لي، بل وافتقادهم والحزن عليهم إذا ما غابوا أو أضيروا. إنه حبٌّ في الله ... في ذات الله.

٤٢٨- في مثل هذا اليوم، ٢٧ ديسمبر عام ٥٣٧ للميلاد؛ اكتمل بناء كنيسة «أيا صوفيا». التي اتخذها العثمانيون مسجدًا ثم حوَّلها الكماليُّون لمتحفٍ. هذا المبنى المسخ ليس شاهدًا فحسب على ثلاثة حقبٍ، بل هو شاهدٌ على النمط والتحول الذي وسم تلك الحقب.

ففي الحقبة المسيحية حلَّ الإله وتجسَّد في الكنيسة؛ لتمتلئ بالأيقونات المقدسة، وتُصبح هي مصدر الشرعية، فيُخصص مكان لتنصيب الإمبراطور الروماني خادم المسيحية. هُنا تُهيمن الكنيسة/ البابا على الدين والسياسة.

وفي الحقبة العثمانية يُحوِّل «الفاتح» المبنى إلى مسجدٍ، فهو الأمير «المظفر» الذي أخبر به النبي ﷺ؛ ليوظِّف «الكنيسة» الجديدة بعد أن ألبسها العمامة واتخذ لها «بابا» سمَّاه: «شيخ الإسلام». فالمسجد في حقيقة الأمر هو أحد أروقة القصر الإمبراطوري. ليُهيمن السلطان على الدين والسياسة.

وفي الحقبة الكماليّة يُزيح أتاتورك كلًّا من الكنيسة والمسجد، ويحول المبنى لمتحفٍ «ديني»؛ متحف يرمُز لقوة السلطة الجديدة التي نحَّت الدين تمامًا واختزلته في «قيمة» متحفيَّة: سُلطة الدولة القومية الحديثة. في هذا النمط لا يوجد مسجد ولا كنيسة، فقد انتقل المعبد إلى أنقرة ... إلى مقر أتاتورك؛ البابا الجديد و«شيخ الإسلام» الجديد.

فما هو ذلك الدين الجديد؟

إنه دين عبادة الدولة. فالدولة القومية هي الإله، وأتاتورك هو نبيُّه، و«المقرُّ الرئاسي» هو المعبد الجديد!

ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

٤٢٩- أنا أعذر كل الإسلاميين «المتطرِّفين» -التكفيريين والجهاديين- بجهلهم، لكني لا أعذر المتحزِّبين وعبيد الدولة. والسبب غاية في البساطة. فإن المتأمل في أنساق «المتطرفين» الفكرية؛ سيرصُد بسهولةٍ حجم الجهد «العلمي» المبذول في سبيل حل الإشكاليَّات المعاصرة في العالم الإسلامي، كما سيستشعر إخلاصًا حقيقيًّا تنبض به سطورهم وحركتهم، ولو وصم ذلك الإخلاص «سذاجة» في مواضع كثيرةٍ، وانتكست مجتمعاتهم بحلولهم الشاذة والقاصرة. ولا حاجة بنا للتأكيد على أنه «اجتهاد» خاطئ قد يؤجروا عليه بإذن الله، فهذه بدهيةٌ لا تغيب عن فَطِنٍ. لكن ما نحن بحاجةٍ للتأكيد عليه هو حقيقة ممارسة عمليَّة الاجتهاد داخل هذا التيار، وغيابها التام داخل التيار المتحزِّب من عبيد الدولة، والذي استسلم تمامًا للممارسة السياسية في حضن الدولة مُنذ أوائل الثمانينيات.

وإذا كان «المتطرفون» قد «ضلوا» بتكفير الحكام والرعية في آنٍ، فإن ضلالهم كان أكثر اتساقًا مع فطرتهم التي أدركت العناصر الكُفريَّة في بنية الدولة الحديثة، وإن ظلَّت أدواتهم القاصرة عاجزةً عن تحديدها، فاتجهت سهامهم للمجتمع المستضعَف، ولحكامه ... الكفار! في حين لم يتوقف المتحزبون وعبيد الدولة ولو لوهلةٍ، برغم الإشارات الكثيرة التي تلقوها والتي لا مجال لبسطها؛ ليتساءلوا إن كان ثمت خلل فيما يفعلون و«شرك» فيما يعتقدون.

إن «ضلال» المخلص أحب إليَّ من هدًى مزعومٍ لا يتميَّز فيه الإسلام عن الكفر بشيءٍ؛ اللهم إلا اللحى ... وحتى هذه قد سطا عليها أمثال «خالد يوسف»!

٤٣٠- يجب أن يضطلع أحد الباحثين الجادين في التاريخ بدراسة ظاهرة «القوَّاد» المعمم أبو الهدى الصيادي، راسبوتين الدولة العليّة والملقب زورًا بشيخ الإسلام؛ ودوره في سقوط الدولة العثمانية. فقد كان هذا المخلوق مُحترفًا في محاصرة المجاهدين والتنكيل بالمجددين تنكيلًا شنيعًا ... وما جمال الدين الأفغاني وعبدالله النديم وعبدالرحمن الكواكبي ... سوى أمثلة ... وقد عاش الرجل حتى هدم آخر حجر في الدولة!

تشعر كلما عثرت ببعض وساخاته؛ أن الرجل كان موكلًا بهدم كل محاولةٍ لإنقاذ المسلمين وإقالة عثرتهم. فكل جهوده تصب بشكلٍ حثيثٍ في هذا الاتجاه. وتبدو نظريَّة المؤامرة ذات مقدرة تفسيرية عالية في هذه الحال ... فأنا لا أستبعد استخدام البريطانيين والروس للرجل، في وقتٍ تغلغل فيه النفوذ الأجنبي والتنظيمات الماسونية في جسد «الرجل المريض» حتى نخروا عظامه.

وسواء كان الاستخدام بعلمه ورضاه أو بسبب جهله ودناءته ... فإن النتيجة واحدةٌ؛ إجهاض كل محاولات الإحياء التي قادها هؤلاء في تلك الحقبة، لضمان عدم إطالة عمر «الرجل المريض».

٤٣١- أنا كافرٌ بالاستحالة ... وما دام الأمر قد خطر بقلبك، فهو قابلٌ للتحقق بإذن الله. قد تفتقد للشجاعة أو حتى للمقدرة؛ لكن هذا ليس دليلًا على عدم الإمكان.

٤٣٢- البعض لا يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، فحسب؛ بل يخشون تقوُّلهم، وهذا أحط دركات الجاهلية. ولو خشي الأنبياء وورثتهم الخلق؛ لأحجموا عن البلاغ بأعذارٍ شتَّى.

٤٣٣- أيسر ما في الإسلام الزواج ... والآن هو كابوسٌ حقيقيٌّ!

ورغم ذلك لا زال بعض أهل الصفاقة وقلة الحياء والورع البارد «ينزعجون» من وصف «المجتمع الجاهلي»!!

إننا حتى لم نبلغ مرتبة المجتمعات الغربية الجاهلية، التي يُعتبر الزواج فيها أيسر من دخول المرحاض ... إن المجتمعات الجاهلية قمة سامقة لا نرقى إليها بحال!

٤٣٤- وحتى في الأنساق الطوباويَّة/ الشركيَّة، فإن البشر يُريدون الطوبيا (الفردوس الأرضي) ولا يُطيقون «هرمجدون» ونيرها؛ المعركة التي ستُنهي كل المعارك، والعنف اللاإنساني الذي سيقضي على كل النتوءات ويقضي علي نزوع الإنسان للعنف!!

ويبدو أن الإنسان مسالم محبٌّ للاستقرار (حزب كنبة!) «بطبعه»، بعكس اللغو الذي ذهب إليه فلاسفة السياسة الغربية ... فالذئبية تنحصر في قمة الهرم وأصحاب المصالح الكبار فحسب: فرعون وهامان وقارون وبلعم بن باعوراء... الملأ... أو هي مجرد تنظير لوهمٍ يُبرر وساخات السياسة المدنية/ العلمانية ولا أخلاقيتها!

٤٣٥- من أكثر الرحلات المدرسية التي لا زالت عالقة بذاكرتي حتى الآن؛ رحلتنا إلى مصنعي «مصر للألبان» و «بسكو مصر» في حيّ الأميريّة بالقاهرة.

كانوا يطوفون بنا المصانع ويستعرضونها، ويحدثوننا عن الاقتصاد «الوطني» وأهمية دعمه وتقويته؛ حتى تنهض صناعته على «غير مثالٍ سبق» ... في ذات الوقت، وبينما الإعلام يُطنطن عن الاقتصاد الوطني وكتاب عادل حسين الكلاسيكي «الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية» محط الأنظار؛ كان النظام السياسي يذبح شركات توظيف الأموال ويسرق أموالها ويوزع لحمها على مُنتسبيه، لحساب بعض البنوك الأجنبيَّة ورجال الأعمال الأوثق ارتباطًا بالنظام وبأميركا ... في ذات الحقبة وبينما كان جيلٌ كاملٌ من القوميّين والعلمانيين يستكملون تحولهم إلى الإسلام، كان الإخوان «يُجاهدون» لدخول البرلمان!

وبعدها بسنواتٍ قلائل دخلت المسرح لأول مرةٍ في حياتي لأشاهد مسرحية محمد صبحي «ماما أميركا» ... دخلته بعد أن انتهك براءتي كتاب جلال كشك اللاذع: «ثورة يوليو الأمريكية»؛ لأنتقل لطورٍ جديدٍ. أشد إيلامًا.

٤٣٦- ... وصحبة الصالحين تورث البركة. وحُبُّهم في الله وتولِّيهم طريق النُّصرة. فاللهم ارزقنا معرفتهم، واملأ صدورنا حُبًّا لهم. اللهم لا تحرمنا دعاءهم بظهر الغيب، ومُنّ علينا بقبوله وإجابته. إنك سبحانك وليُّ ذلك والقادر عليه. وصلّ اللهم وسلّم على رحمتك المهداة ونعمتك المزجاة، سيدنا محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

٤٣٧- وأكره الملوك وحواشيهم وعبيدهم وأنظمتهم كراهة التحريم. ولو كان الأمر بيدي لطبقت عليهم حد الحرابة ثم قليتهم جميعًا في زيت مغلي. من آل سلول إلى أمير «الكُفار» المغربي.

٤٣٨- ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[1].

نزلت هذه الآية الشريفة قبل ألف وربعمائة عام حين شكَّ ﷺ في القتال الذي اشتبك فيه صحبه الكرام في سرية شهر رجب، قبل بدرٍ الكبرى بشهرين فحسب. نزل ليقول له: يا محمد، إن القتال فيه عظيمٌ لكن صد المسلمين عن الإسلام والمسجد الحرام وإخراج أهل المسجد منه أكبر وأعظم وزرًا عند الله، والفتنة (أي الارتداد للشرك) أكبر من القتل أي من قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام.

فلما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس إلى مؤمني مكة: إذا عيَّركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام، فعيّروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت الحرام.

أُهدي هذه الآية إلى الإسلاميين الذين «تعففوا» عن الخروج لمواجهة من يعتدون على حُرمة بيت الله، وتركوا الدهماء يحصرون المصلّين في مسجد القائد إبراهيم، وتحججوا بحقن الدماء كما تحجج الغرب الكافر بذلك لمنع السلاح عن البوسنة المستضعفة! فكل الدم معصومٌ إلا الدم المسلم الحُرّ! ولو كان المحاصر مقرٌّ حزبٍ من أحزابهم أو بيت من بيوت مشايخهم؛ لنفروا على قلب رجلٍ واحدٍ، لكنه بيت الله وبيوت الله لا بواكي لها في البيئات الجاهليَّة، ولو ادعت الإسلام.

(١) سورة البقرة؛ الآية ٢١٧.

لكن نحمد الله أنهم لم يخرجوا، فربما كانوا ممن دخل تحت قوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾[1]، وربما كان قعودهم لحكمةٍ يعلمها الله، ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾[2].

٤٣٩- يقول سيدي العارف ابن عطاء الله السكندري: إن الحق ليس بمحجوبٍ، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ... إذ لو حجبه شيءٌ لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصرًا، و كل حاصرٍ لشيءٍ فهو له قاهرٌ، وهو القاهر فوق عباده سبحانه.

٤٤٠- خوف بعض حشرات النخبة من «تهمة» التكفير، التي يعتبرونها مُعلقة فوق رءوسهم؛ لا يعني بالضرورة أنهم كُفّار خطرون، وقد لا يعني أصلًا أنهم كُفَّارٌ ... وإنما قطعًا يعني أنهم جُبناء جدًّا جدًّا ... وأن خوفهم من تُهمة التكفير = خوفهم من حُريّة الاعتقاد، ولذا فهُم عندي أكثر فاشيَّةً وقذارةً من الإسلاميين بكُل مساوئهم. ولعل فسقهم الفاشي في أجهزة ومنابر الثقافة في مصر منذ الخمسينيات دال.

٤٤١- ليس ثمة حاجةٌ أكبر ولا أكثر أهميةً في زماننا، وفي كل زمان؛ من دعوة الناس إلى الإسلام. ولا أعني به دعوة الغربيين أو المسيحيين أو اليهود أو الهندوس، بل المسلمين ... أو من يسمون أنفسهم بالمسلمين.

وإذا كان القرآن يأمر الصحابة رضوان الله عليهم وهم من هم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾. مؤكدًا أن الإيمان ليس طوبيا نهائية يخلد إليها المؤمن، وإنما هو صيرورةٌ تاريخيةٌ مُتجددةٌ بالعمل. فما بالك بمسلمي هذه الأيام؛ الذين لا يعرفون ماذا تعني مركزية الوحي من قرآنٍ وسنةٍ؟!

---

(١) سورة التوبة؛ الآية ٤٧.

(٢) سورة التوبة؛ الآية ٤٦.

وما بالك بالذين لا يعرفون أن الإيمان يزيد وينقص بالعمل؟!
ويحسبون أن تلاوة الشهادتين مرّةً في العمر تُغني أبدًا؟
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1].

٤٤٢- الذين يهربون من ماضيهم وتاريخهم ويسعون لطمسه من ذاكرة الزمن لن يجدوا في مستقبلهم سوى الخواء والصغار والتفاهة، بل والفشل في طمسِ ذلك التاريخ الذي جعلتهم آراء الناس والإعلام يرونه عارًا. ولو كان عارًا حقًّا، فإن العار الأكبر هو التنكُّر له كأنه لقيطٌ، وليس ابنًا شرعيًّا لسياقٍ تاريخيٍّ وتعبيرًا عن أزمةٍ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ ... وعقديةٍ.

إنه لا معنًى لوجودنا الحالي إلا بأخطائنا وزلاتنا وسذاجاتنا الماضية والحاضرة والمستقبلية، فلولاها لما كنا أصلًا. ولولا ارتكاب الحماقات الكبرى لما تعلمنا. وكلما كانت زلاتنا كبيرةً؛ كانت الحكمة المستقاة منها كبيرةً في رجوعنا عنها بعد اقتناعٍ.

ولا أريد أن أضرب مثالًا ببعض الإسلاميين الذين نظَّروا للعنف السياسي وكانوا في طليعته، وهم الآن يُنظِّرون للانبطاح بعد ما ذاقوا الأمرَّين في المعتقلات، فهم مثالٌ لا أحب الخوض في تفاصيله، على صدقه وعظم دلالاته. فما هي إلا فتنةٌ نسأل الله أن ينجينا منها.

لكني أحب أن أقول لهؤلاء وغيرهم، من أبناء الأجيال السابقة علينا ومن أبناء جيلي والأجيال اللاحقة: إن طمس تاريخك لن يجعلك محبوبًا من الناس، ولا نجمًا اجتماعيًّا متوافقًا مع الرأي العام السائد، ولا إسلاميًّا «معتدلًا» يُشار إليه بالبنان في المنتديات لأنه يُسمع «الجماهير» ما يحبون. بل سيجعلك قردًا لا شخصية له. إذ التاريخ لا يُمكن طمسه، وإنما هي الشخصية التي تنطمس، ليتحول الإنسان إلى كل براني مجوَّف، يستجيب لأدنى إشارةٍ يُمليها عليه القائم بترشيد الواقع؛ من استعبده.

---

(١) سورة النساء؛ الآية ١٣٦.

لا تتنكَّر لتاريخك وتحوُّلاتك ما كانت عن اعتقادٍ حقيقيٍّ مخلص، فهي جزءٌ منك. وإن أصبحت ترى فيها ضلالًا أو بُعدًا عن الحق، فاعلم أنها «أنجاك» الله منها بها، فلولا وقوعك فيها، لما نجوت منها.

٤٤٣- كان الفرزدق صادقًا مخلصًا حين نصح لأبي عبد الله الحسين، الذي سأله عن حال أهل العراق الذين بايعوه: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك». كان أهل العراق، كأكثر بني آدم؛ يُجسّدون الضعف الإنساني الذي يُعجز صاحبه عن السمو على طينه، وذلك برغم طيب معدنه وطهارة أصله الربَّاني. إنهم يجسِّدون أحد الحقائق الإنسانيَّة اللصيقة، والتي يطيب لنا نسيانها أو تناسيها حين تشرئب منا الأعناق لاستشراف الموكب الحسينيّ الفريد، الذي زان الأرض بوطئه.

لا شك عندي في حبِّهم وإخلاصهم، لكني لا أشك أيضًا في أن حبَّهم للدنيا ورغبتهم فيها كانا أكبر. ويبدو أن هذه المسألة ليست واضحةً في ذهن الكثيرين. ليست أزمة المسلمين هي عدم معرفتهم بالإسلام وبالحق؛ بل بتصرُّفهم وحركتهم على أساس أنه ليس هو الحق الأوحد الذي يجب أن يُطوَّع كل أحدٍ وكل شيءٍ لخدمته ونصرته. وليس العكس.

كان أهل العراق هم القاعدة البشريَّة الطبيعيَّة التي ورثت حياة آدم منذ الأزل، وكان الحسين وأهله وأنصاره المعدودين هم ورثة روح آدم ونوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدٍ صلوات الله عليهم. كانوا هم القادرين ليس على العودة إلى الأصل النوراني فحسب، بل والتثبث به إقامةً للحجَّة على بني آدم.

إن وراثة هذا الروح النوراني إمكانيةٌ إنسانيّةٌ كامنةٌ أبدًا في كل بني آدم. لكن من منا يقدر على تبعاتها؟!

«ومن يُطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟» صلى الله عليكم آل بيت المصطفى. صلى الله عليكم وعلى من ربّاكم.

٤٤٤- الرومانتيكيَّة ليست نسقًا قائمًا بذاته؛ بل هي الحركة بين الأنساق الأيديولوجيَّة/ الشركيَّة سعيًا لتجاوزها، بسبب اكتشاف عجزها المُفضي لتحطُّمها.

أي أنها محاولةٌ ماديَّةٌ للتجاوز في إطار المادَّة. ورُبَّما لهذا السبب تباينت تجلياتها في تاريخ الأدب. فهي نوعٌ من أنواع الإيمان الميتافيزيقي بالمادَّة حيث تقلُّ فيه العناصر الماديَّة الصلبة لحساب سهولة القُدرة على الحركة بين الأنساق الماديَّة؛ كدينٍ. والحركة الأدبيَّة التي تنبثق عن هذا التصوُّر أكثر إنسانيَّةً من الأدب الوقائعي المادّي الغارق في السرديَّات الصُّغرى. وهي كذلك أعمق وعيًا بالتاريخ، وأكثر قُدرةً على التجاوز، وإن كانت حبيسة المادَّة في نهاية الأمر.

والرومانتيكيّة مُرتبطةٌ بالطوبيا ارتباطًا وثيقًا، فهي في جوهرها محاولةٌ لفرض رؤية يُظنُّ بها التجاوز على الواقع قسرًا؛ رفضًا منها لذلك الواقع. ويُمكن قراءة أكثر الأنساق الفلسفيَّة الغربيَّة باعتبارها أنساقًا رومانتيكيَّةً احتجاجيَّةً علي واقع مُتعيِّن. إما لأنها تستشرف فشله، أولأنها تفرض بديلًا جُزئيًّا لا يقوم إلا على «الأصل» المرفوض. فهي ليست أنساقًا قائمةً بذاتها؛ بل هوامش على «أصلٍ» مرفوض. هكذا يُمكننا فهم الماركسيّة باعتبارها احتجاجًا على الرأسماليّة وخروجًا من عباءتها، وكذا الأناركيّة كاحتجاجٍ على الديمُقراطيَّة العلمانيَّة، والوجوديَّة والعبث إلخ إلخ.

وبين التطبيقاتِ الرومانتيكية في الأدب/ الفكر والسياسة فروقٌ طفيفةٌ. بل إن الأول قد يقود إلى الثاني. فإذا كانت الرومانتيكية في الأدب محاولةً لتجاوز الواقع بآليّاته، فإنها في السياسة محاولةٌ لفرض الآليَّات «الجديدة» على المجتمع كرهًا.

٤٤٥- لماذا يُريد التفكيكيون نصوصًا سائلةً تحتاج لكهنوتٍ وتأويلٍ غنوصي/ باطني «لفك» شفراتها؟ نصوص لا يُمكن تأويلها وفي نفس الوقت تحتمل كُلّ وجهٍ؟! هل هي محاولةٌ غير واعيةٍ لإضفاء قداسة على نصوصٍ بشريَّةٍ بعد إسقاط النصِّ المؤسس المقدَّس؟! هل هي محاولةٌ غير واعيةٍ لخلق نصوصٍ مركزيّةٍ جديدةٍ؟! محاولةٌ يؤدّي اصطدامها بالرفض الواعي للمركز وقداسته لتفكيك النص وذوبانه؟!

٤٤٦- الفراغات والمسافات في النسق التوحيدي المنفتح تُمثّل الكامن العلماني/ الشركي في الإنسان، ومحاولة ملئها في الأنساق المعرفيَّة الحلوليَّة الطوباويَّة هو في

جوهره نقلٌ للشرك/ العلمانيَّة الكامنة من حاشية الاحتمال لبؤرة التحقُّق جوَّانيًّا؛ وهو ما يمثِّل الأيديولوجيا = التبشير بالطوبيا ونهاية التاريخ.

٤٤٧- ورث فلاسفة المسلمين منهجيَّة المعرفة النظريَّة من الإغريق بعد أن تشوَّهت رؤيتهم الكونيّة ذات المصدر المتجاوز. وورث فرانسيس بيكون المنهج التجريبي من المسلمين، لا ليطرُد به التكلُّس النظري للفلسفة من مجال البحث في العلوم الطبيعيَّة فحسب، بل ليتخذه طريقًا ومنهجًا لاستقاء المعارف الكُليَّة وتشكيل الرؤية الكونيّة، لينتقل الفكر الغربي على يديه من السفسطة إلى الإمبريقيَّة/ التجريب الحسّي. وبعد أن كان مصدر المعارف الكُليَّة نظريًّا، مُمثلًا في الديالكتيك المادِّي، فإنه انحدر إلى درك التجربة وسجن الحواس. من عبادة الواقع الافتراضي المتوهَّم إلى عبادة الحواس.

٤٤٨- قلت لها: إن وجودك يملؤني وجدًا، وصحبتنا في هذي الدنيا لا تكفيني لقصرها. فأعينيني على نفسي بنفسك حتى نجتمع في ظل العرش، فإن صُحبةً أبديّةً فقط قد تُشبع بعض حنيني الأزلي بعد فناء الحاضر.

٤٤٩- كثيرٌ من الآباء يجب «حرمانهم» من أبنائهم، فهُم يكبِّلون قُدرات أبنائهم ويلزمونهم بأفق طموحٍ تافهٍ، فلا يجد هؤلاء الشباب الأغرار إلا بيع أنفسهم لأول مُشترٍ يُنقذهم من سجن الأسرة؛ فتقبل الفتاة الزواج بأي بغل، ويلهث الفتى خلف منحةٍ مشبوهةٍ أو وظيفةٍ سخيفةٍ للفكاك من الأسر! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٤٥٠- .... وإن مِلتَ، فلا تهوَ لئلا تهوي، ولا تتعلق بالطين لئلا تسقط معه في هاوية الشرك. وإنما تعلَّق بالنفخة، لتحملك لأصلها سبحانه.

٤٥١- رائحة الخبز الطازج، والملابس المغسولة، والطعام الذي نضج لتوِّه، والوجود المغتسل بالمطر، وتعرُّق الأطفال حديثي الولادة، والكتب الجديدة، والبحر تغسله شمس الشروق ... إنها رائحة البدايات الجديدة التي تتجاوز الحواس لتحمل البُشرى ... رائحة الأمل!

٤٥٢- كان المصريُّون يستخدمون التقويم «القبطيّ» لأنه تقويم الزراعة ومواسمها المناخية. فهو مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بالبيئة والمناخ الذي جُبلوا عليه في وادي النيل، ولا زال بعض الفلاحين (وكبار السن) يتعاملون به لدقته في أمور الزراعة وتحديد الفصول المناخية. وحين دخل أكثر المصريين في الإسلام؛ دخل عليهم التقويم الهجري القمري، وذلك لارتباطه بصومهم وأعيادهم وحجّهم وأشهرهم الحُرُم. فالتقويم وثيق الصلة بعبادتهم وحياتهم التي اختاروها.

لكن التقويم الغريغوري، أو الميلادي كما يُسمَّى زورًا؛ هو تقويمٌ دخيلٌ كُليًّا ودوره الوحيد هو إبقاء الدولة «المستقلة» الجديدة تابعةً حتى في تحديد مواسمها. وذلك كما أمست مزرعة قطن تابعة للإمبراطورية البريطانيَّة التي لا تغرب عنها الشمس. هذا التقويم المقحم على سياقٍ مُختلفٍ كُليًّا في كُل شيءٍ، ولا يمثل لهذا السياق أيّة أهميَّة اجتماعيَّة أو دينيَّة أو اقتصاديَّة حقيقية، ليس أداةً للهيمنة الناعمة فحسب؛ بل هو أداةٌ لمسخ الهويَّة وتشويهها، وأتحدى أن يعرف مصريٌّ مُتعلّمٌ في أي شهر «قبطيٍّ» نحن بله أن يَقدر على إحصاء الشهور الهجريَّة بشكلٍ صحيحٍ، في حين يُمكن لغالبيتهم الساحقة معرفة اليوم والشهر الغريغوري ومواعيد «عيد الحب» و«الهالوين» و«الكريسماس» الغربي!

فإذا كان هذا التقويم هو أحد الخلافات التاريخيَّة بين الكنيستين الشرقية والغربية، فضلًا عن تشويشه على المسلمين وعيهم وإدراكهم، وصولًا لانفصاله التام عن بيئتنا واحتياجاتنا، فلمصلحة من الإبقاء عليه؟!

إلغاء العمل بالتقويم الغريغوري/ الميلادي أحد الخطوات الرئيسة لتقويض الدول القوميَّة الحديثة.

٤٥٣- «البّس البوصة تبقى عروسة»، «البّس الخشبة تبقى عجبة»، «البّس الخنفسة تبقى ست النسا»؛ ميراثٌ عريق في الثقافة الشعبيّة المصريَّة تتجلّى عبقريّته في السخرية من التمركز حول الجمال البرّاني. وهو لا ينقد النموذج فحسب؛ بل يُعريه تمامًا ويفضح زيفه المتأصل!

٤٥٤- أكثر الآباء غافلًا عن أطفاله بدعوى انشغاله بالكدح ليوفر لهم «عيشةً كريمةً» ... واعتبار المعيشة المادية الناعمة أهم أولويات الوالدين وأولى حقوق أطفالهم هو خللٌ شنيعٌ في تصوُّر هؤلاء الآباء، ليس للأبوة والأمومة فحسب، بل هو انتكاسٌ في فطرتهم وتصوُّرهم للإنسان جملةً.

عزيزي الأب/ عزيزتي الأم؛ أطفالكم ليسوا حميرًا تنحصر كل احتياجاتها في العلف الجيد والبراذع الأنيقة والزرائب الفسيحة. أطفالكم بشرٌ آدميين مُكلَّفين أخلاقيًّا، وهذا هو العنصر الأهم في تكوينهم على الإطلاق. ومن ثم فإنهم يحتاجون لقدوةٍ حسنةٍ وتنشئةٍ صالحةٍ، وتوفُّرها مع الكفاف خيرٌ من انعدامها أو قلّتها مع الترف المُفسِد.

عزيزي الأب/ عزيزتي الأم؛ إن كنت عشت كالحمار/ الأتان في بيت أهلك، فإن ذلك لا يسوغ لك تكرار هذه المأساة مع أطفالك. وإن كنت لم تجد من يُعرِّفك على الإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه، فابحث عمَّن يساعدك لتتعرّف عليه؛ عسى الله أن يُصلح بك أهلك وأسرتك.

٤٥٥- أحد أهمِّ الدراسات ذات الطبيعة الفلسفيَّة، والتي يجب أن يضطلع بها بعض دارسي الأدب الإنكليزي النابهين؛ هي المقارنة البنيويَّة (على مستويات الخطاب والرؤية الكونيّة وأفق السرد والمنظومة القيمية وطريقة تطوُّر الحبكة) بين قصص الحُبِّ الكلاسيكيَّة في «روميو وجولييت» لشكسبير و«جين اير» لشارلوت برونتي من ناحية، والسرديَّة ما بعد الحداثيّة في سلسلة «الشفق» (بالإنكليزية توايلايت Twilight) للكاتبة الأميريكيَّة ستفاني ماير من ناحيةٍ أخرى. فما بين الوقوع في حُبِّ إنسانٍ مُركّبٍ (قد ينطوي على ميولٍ ذئبيَّةٍ) إلى حُبِّ مصّاص دماء/ ذئب «حقيقي»؛ أزعُم أن الدراسة ستكشف طبيعة ومسار التحوُّل الأعمق والأهم في الرؤية الغربيَّة للإله والإنسان في حقبة الما بعديَّات: وهي حقبة موت الإنسان (والإله) ... حقبة ما بعد الإنسان!

٤٥٦- أتمنى أن يعقد البعض يومًا موازنةً بين دانتي في «الكوميديا الإلهيَّة» وملتون في «الفردوس المفقود» وجوته في «فاوست»؛ ليكشف أثرهم في تشكيل لغات الغرب الحديثة كما نعرفها، ودور ذلك في بلورة الهويَّات القوميَّة ونشوء الدول القوميَّة الحديثة.

٤٥٧- قرأت سيرة محمد أسد ثماني مرَّاتٍ تقريبًا، نصفها على الأقل في لغته الإنكليزية. وبرغم أني أحفظ أحداث رحلته المبهرة عن ظهر قلبٍ، إلا أن مشاهد انسلاخه من ماضيه الأوروبي وصورة قلبه يتشقق كاشفًا عن فطرة الله هي مشاهد لا أتوقف عن البكاء كلما مررت بها. إنها تتجسد جديدةً في كل مرةٍ. أتمنى الحديث عن محمد أسد كما عرفته يومًا. رحمه الله وأجزل له المثوبة.

٤٥٨- إذا أردت بلوغ اليقين الراسخ، فيجب عليك البدء بشكٍّ ضخمٍ يؤرِّق وجودك. لكنك لن تصل لأي شيءٍ بغير الفطرة، وستظلُّ سجين شكوكك المؤرقة. نعم؛ ثمَّة مفارقةٌ في الأمر. فسوف لن تعثرُ على يقينك إلا في متاهة الشكِّ. وأنا أفرِّق بين اليقين المكتسب والفطرة؛ فإن كان الأوَّل هو إسلام الوجه إراديًّا بالكامل لربِّ العالمين، فإن الأخير هو ميثاق الفطرة الذي ذُكر في القرآن: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾[1].

٤٥٩- أنا مُدرب تواصُل بشري (تسمية جديدة لـ«علوم» الإدارة التي تستند على «علم» النفس السلوكي)، ومهمتي تدريب الشباب الموهوم لصناعة جيل كامل من القادة ليقودوا أي شيءٍ (شركات رأسمالية في الغالب)؛ جيل من العُمَد بغير فلاحين ... كل الناس سيُصبحون عُمدًا، فلا أحد يُريد أن يكون فلاحًا، وحبذا لو كان للقائد لحيةٌ طويلةٌ أيضًا.

---

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٧٢.

أنا مهندس إقناع (تسمية جديدة للبرمجة اللغوية العصبية NLP)، ومهمَّتي إقناع كل الناس «بمشروع النهضة» والتغيير «الحضاري» ... يجب أن يحضن بعضنا بعضًا كل صباح. لن نتغير ما دُمنا لا نعرف قيمة الاحتضان كأساسٍ للتغيير «الحضاري»... والتغيير «الحضاري» يعني تغيير الوجوه وإعادة إنتاج نفس الأنظمة القديمة. يُمكنني إقناعك، فأنا مهندسٌ. سأقنعك وأعيد تخطيط دماغك أيضًا ...

أنا أيضًا مستشار تأثير وتفاوض (لزوم «التلبيس» و«التحسيس» كما يقول العامَّة في مصر)، فنحن لن نستطيع إعادة إنتاج الأنظمة القديمة بدون التفاوض مع من يُسيطرون عليها للتنازُل عن بعض امتيازاتهم للشباب الذين ضيَّعت عمري في تدريبهم. إن شق التأثير يكمل وظيفة الإقناع بطبيعة الحال. ما عليك إلا إغماض عينيك وسأقوم أنا بما يلزم، وما سأقوم به سيؤثر فيك بعمقٍ بعد أن يتحرك في أحشائك.

باختصار يا إخواني ... أنا دجَّالٌ!

لكني دجَّالٌ مشهورٌ تتدلى لحيتي على صدري، ولي برنامج تلفزيوني يُشاهده الآلاف ممن يُصدقونني ... لست أعمق أثرًا من المسيخ الدجال، وإن كنت أستهدف ذات الجمهور!

هل أذنبت باستغلال غباء الناس وحبهم للوهم ورغبتهم فيمن يُسمعهم ما يحبُّون؟

أنا كقارئ الكف النابه، لكني قارئ كفٍّ من نوعٍ جديدٍ ... نوع «علمي» مُقنن و«مطابق» للشريعة الإسلاميَّة!!

٤٦٠- كل عبارةٍ بشريةٍ ميلٌ، ذلك أنها تحوي قدرًا من الحق ولا يتجسد فيها الحق. أما العبارة الإلهية فهي الحق المطلق. وإذا لم يكن لنا بد من إنتاج الكلام البشري، فليكن رائدنا نصيحة العارف بالله النفري؛ أن من عرف الحق لم تمل نفسه مع ميل عبارته، ولزم حده في اليقين بنقصه. صلوا على المعصوم بعصمة الله له.

٤٦١- تصاب بالزكام إن انزلق الغطاء عن جسدك وتعرَّيت في ليلةٍ باردةٍ، فما بال من لم يذق الدفء في ذات الليلة؟ ولم لم يُصَبْ بمثل ما أصبت به؟! ذلك أن الله لا يجمع على عبدٍ ابتلاءين. فإما دفء الليلة أو العافية تُعينه على احتمال بردها. ثم لتُسألن يومئذٍ عن النعيم!

٤٦٢- ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾[1]، ونسبة الملَّة لأبينا إبراهيم -صلى الله عليه وعلى أحمد- الذي سمَّانا «المسلمين» حسبما يُقرر القرآن لا تحمل سوى دلالةٍ واحدةٍ: أنه بلغ من اكتمال التصوُّر وإخلاص الوجه لله مثلًا يُحتذى ويُستشرَفُ كمالُهُ وتُطلَبُ درجته إلى نهاية التاريخ البشري.

فهذا الجامع لصفات الأمة كما وصفه خليله ﷺ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2]، ليس مجرَّد مؤمنٍ ولا مجرد نبيٍّ مؤمنٍ؛ بل هو النبي المؤمن ﷺ. وهو في ذلك أبٌ للمؤمنين كما هو أبٌ للأنبياء جميعًا صلوات الله وسلامه عليهم. صلى الله على دعوة أبي إبراهيم وأشرف ولد آدم. صلى الله على محمدٍ.

٤٦٣- من المفاهيم الملتبسة والمشوَّهة في عقول المسلمين مفهوم «عمارة الأرض». فإنما تتحقق العمارة بمجرد الحركة على مقتضى المنهج الإلهي. وليست العمارة -كما اختزلها البعض- هي اتخاذ العمائر الشاهقة والمصانع الضخمة التي يُشوّه وجودها ومنتجاتها الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وبعبارةٍ أخرى، فإن العمارة -بالمفهوم القرآني- لا تتحقق بحجم ولا بمستوى تطور الأشياء التي يتخذها البشر لتيسير حركتهم في الوجود، بل بمُجرد الحركة ذاتها وفق مراد الله. فالحركة ذاتها هي العمارة التي قصد إليها القرآن.

إنها تعني عدم اعتبار «تحسين» ظروف المعيشة على الأرض هدفًا؛ بما أن الإنسان مجرَّد عابر سبيلٍ وليس ساكنًا أبديًا. وإن كان ذلك لا يمنع من اتخاذ الأشياء والآلات، لكنه يهمش هذه المسألة باعتبارها وسيلةً من الوسائل وليست غايةً وجوديَّةً.

---

(١) سورة البقرة؛ الآية ١٣٠.

(٢) سورة النحل؛ الآية ١٢٠.

وهذا المفهوم تبع لمفهوم الإيمان. فالإيمان عندنا ليس فردوسًا أرضيًّا نهائيًّا نصل إليه ونستقر فيه، بل هو حال الساعي لإدراكه، ووجدان السالك إلى ربِّه ﷻ.

فإذا كان الإيمان يزيد وينقص، فإن العمارة بما أنها حركةٌ؛ تزيد وتنقص أيضًا. وإذا كان الإيمان يزيد وينقص بالعمل، فإن العمارة تزيد وتنقص بالحركة ذاتها؛ أي بمحاولة (أو محاولات) إخراج العمل من فضاء النية (القلب) إلى واقع التحقُّق المادي.

ويثور هنا تساؤلٌ؛ إذا كانت الحركة/ العمارة هي محاولة إخراج العمل من دائرة النية إلى دائرة التحقق المادي، فهل يتعلق الجزاء الإلهيُّ بوقوع العمل أم بمجرد النية؟ وبعبارةٍ أخرى؛ هل النتيجة/ اتخاذ الأشياء/ وقوع العمل هو مناط التكليف، أم أن السعي ذاته هو مناط التكليف الإلهي؟

إجابة هذا التساؤل تحمل في طياتها تعريف مفهوم «عمارة الأرض».

٤٦٤- وقد سألتها ذات غرور: ألستُ هو؟؟
قالت: بل أنت مظهر الرحمة وتجلي اللطف.
فسكت هنيهةً كأني غرتُ!
فبادرتني: قد علَّمتني ألاّ أتعلَّق بالسبب ولو طويت فيه الرحمات، فإنما أرجو السبب بمقدار ما يحملني للمُسبِب. فكن كما أنت ولا تُحمِّل النفخة العلوية ما لا تُطيق.
كُن كما أرادك؛ ستار للطف ولُطف تحمله نفخته العلويّة.
هلُم خذ بيدي لنعرُج على أجنحة العشق الحق.

٤٦٥- لطم الجبابرة من ذوي السلطان بالحق لذَّةٌ لا يعرفها إلا أصحاب القلوب المعلقة برب العزة ﷻ؛ لذة اللياذ بحمى الواحد القهار وحده .. كمال التوحيد. ويُروى عن العز بن عبد السلام أنه وصف شعوره في موقفٍ كهذا، فقال: «استحضرت عظمة الله فكان السلطان أمامي كالقط»!

اللهم أحيي قلوبنا بدوام معيَّتك وثبِّت أقدامنا باللياذ بعزتك.

٤٦٦- الخوف فكرةٌ ... تغلَّب عليها بفكرةٍ أقوى وأجلّ!

٤٦٧- من الخواطر التي تلح عليَّ منذ فترةٍ بخصوص فلسطين؛ أن جزءًا رئيسيًّا من مأساتها يكمُن في كمٍّ التصوُّرات الصهيونيَّة (التي تنتمي للسياق العلماني الغربي) التي استبطنها الفلسطينيون، وأعادوا إنتاجها في سياقهم.

فأكثر التصوُّرات بل والمبادرات الرسمية و«الأهلية» الفلسطينية الآن هي مُجرد مقلوب للتصوّرات والمبادرات بل والمسلك الصهيونيّ. مجرد مقلوب صادر عن ذات النسق العلماني.

ولعلَّ أخطر تلك التصوُّرات قاطبةً هي أسطورة الشعب العضوي (الفولك Volk) الفلسطيني!

٤٦٨- بَكى صَاحِبِي لَمَّا رأى الدَّرْبَ دُونه وأيقنَ أنا لاحقانِ بقيصــــرا.
فَقُلْــتُ لَهُ: لا تَبْـكِ عَيْنُكَ إنّـمَا نحاوِلُ مُلْكًا أوْ نَموتُ فَنُعْذَرَا.

(امرؤ القيس)

٤٦٩- وجودنا نقصٌ فينا، وليس ثمَّة كمالٌ في هذا الوجود سوى في حُسن إدراكنا لهذا النقص ... وصدق الإمام الصادق حين قال: من طلب ما لم يُخلق؛ تعب ولم يُرزق. قيل: وما ذاك يا إمام؟ قال: الراحة في الدنيا.

٤٧٠- *حُبُّ الدنيا وكراهة الموت*[1] سمَّـاه المعصوم ﷺ وَهَنًا؛ لأنه يوهِنُ الدين والنفس، فتفرُّ من كبد التكليف طمعًا بلذّتها الآنية. لكنها مهما فرَّت فلن تلقى إلا ما كُلِّفت به. والفارق الوحيد أنها ستلقاه مُدبرةً، ولأكون أكثر دقَّة فإنه سيُلاحقها، فإذا لحق بها لقيت الله على الخزي. نعوذ بالله من الوهن ومن الخزي.

(١) عن ثوبان قال؛ قال رسول الله ﷺ «يوشك الأمم أن تداعي عليكم كما تداعي الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ، قال ﷺ: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال ﷺ: «حب الدنيا وكراهة الموت». رواه أبو داود في سننه وأحمد في مسنده والبيهقي في دلائل النبوة.

٤٧١- والزمن في تقلُّبه عجيبٌ. فكأن عجلته صُنعت خصيصًا لئلا تدور إلا بدماء خيرة الخلق. لكنا إذا نظرنا للأمر من زاوية الإيمان باليوم الآخر اكتشفنا أن ذلك ليس لهوانهم على الله ... وإنما هو ثمن الاجتباء والاصطفاء.

وإن في دوران العجلة بهذه الدماء الزكيَّة إقامةً للحجة على الغافلين وتذكيرًا لهم بميثاق الفطرة، وتعجيلًا بلقاء المحبين بمحبوبهم الأوحد؛ الذي شهدت حتى دماؤهم المهرقة بوحدانيته ﷻ.

٤٧٢- وإن من انتكاس الفطرة وانطماس البصيرة أن تُقلِّب وجهك في الوجود، فلا تُبصر سوى المخلوق.

إن من ﷺ وعليه وبه؛ هو من لا يرى إلا وجه الله ﷻ أينما تولى. فاللهم لا تحجبنا عنك طرفة عين؛ فنضلَّ ونشقى.

٤٧٣- الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه. الحمد لله على كل قضائه وجميع قدره. الحمد لله الذي ما ابتلى إلا سبقت رحمتُه بلاءه. اللهم إني أحمدك حمد الرضا بحكمك لليقين بحكمتك. وأسألك أن تبسط لساني بشكر النعمة منك، وكفى بالرضا بك من نعمةٍ تُعبِّدني بها.

٤٧٤- وحيدٌ من الخلانِ في كل بلدةٍ إذا عَظُمَ المطلوبُ قل المساعدُ

(المتنبي)

٤٧٥- غاية العقل معرفة الله ﷻ وما ينبغي له، لتمجيده. ومنتهى الفهم ألا نرضى الدنيَّة في ديننا.

٤٧٦- الغُربةُ قدر الإنسان الأزليِّ داخل التاريخ ... وغُربة المكان تلتئم بالوقت؛ حين نألفه. لكن غُربة الروح لا تلتئم إلا بالموت؛ بالعودة إلى حيث جئنا!

وإذا كانت غربة المكان تُقرِّبُنا أكثر من حقيقة الغربة الروحية التي قد نغفل عنها يومًا، فذلك لأن غُربة المكان في أولها تشحذ الروح الوحيدة، فتكشف لها من نفسها ما حجبه عنها المكان المألوف.

٤٧٧- الصبر نصف الإيمان ... والغُربة كُلُّ الإيمان!

٤٧٨- من استظل بعظمة الله انكسرت في قلبه هيبة الخلق.

٤٧٩- ... وسير الخلق وتراجمهم وأخبارهم أعظم فائدةً وأعمق أثرًا من عُصارات الأذهان الباردة. فسيرةُ امرئٍ قد حملت كل ما قد يحتمل إنسان عصره من الأفكار وجسَّدته حيًّا. لذا، فالحرارة التي يُشيعها قلبُ امرئٍ في لحظة صدقٍ هي عندي أقوم وأعظم من آلاف المجلدات التي قد يخطُّها ... فالحياة أسمى من الفكر. رُبّما لهذا السبب، ولهذا السبب بالذات؛ فإن الإسلام لا يتجسَّد في نظريَّةٍ أو متنٍ كتبه من كتبه، بل في أشخاصٍ. وصلى الله على من كان خُلقه القرآن.

٤٨٠- في زمان المراهقة (العمرية والفكرية) كنت أولي أعظم الاهتمام لما يقوله القائلون ويذهب إليه المُتمذهبون، أما اليوم فلم يَعُد يعنيني سوى الإخلاص الذي أشتم رائحته عن بُعدٍ. لا يهُم من قال ماذا، بل الأهم عندي على إطلاقه هو كيف قال ما قاله ولم قاله ... صار القلب يبحث عن قلوبٍ مُخلصةٍ تؤنس وحشته في دار المعبر.

اللهم آنس وحشتنا بمعيَّتك، واكتب لنا صُحبة المُخلَصين (بفتح اللام وكسرها).

٤٨١- إذا كانت مشكلة الأمة الكبرى هي تدهور التعليم وفسادُه، فإنها لن تُحلّ بالحديث عن «إصلاح التعليم». بل بأن يشرع البعض في تعليم الناس ما يتعيّن عليهم تعلُّمه، وبالطريقة «الصحيحة»!

٤٨٢- «مَنِ اسْتَثْقَلَ الحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ»[1]؛

من دُرر ربيب رسول الله ﷺ وصهره؛ أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ٢١٠/١١/١٠١.

٤٨٣- الإنكليز كأمةٍ ليس من يُنكِرُ أنها من أرقى الأمم؛ تعرف معاني العدل وتعمل بها، ولكن في بلادها ومع الإنكليز أنفسهم، فتنُصِفُ المظلوم إذا كان من الإنكليز. تعلم أن للإنسان حقًّا في الحياة؛ لكن هذا الإنسان في عرفهم هو الإنكليزي وغيره من البشر ليس بإنسانٍ ... ! (**جمال الدين الحسيني الأفغاني**)

٤٨٤- والحق لقاء الحق، والوهم في كل حجابٍ ...

٤٨٥- والنفسُ حجابٌ؛ بل شرُّ حجابٍ ... ألم تر إلى قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1]؟!

٤٨٦- الوليُّ ليس من يتولَّى الله فحسب، وليس من لا يُبصر سواه حيثُما تولَّى؛ بل هو من لا يولِّي وجهه عنه ﷻ ...

٤٨٧- إذا أردت أن ترى الشيطان مُجسَّدًا، فخوِّف سُلطانًا على مُلكه، وأدخل في روعه ضياعه ... لكن قبل أن تفعل ذلك تذكر جيِّدًا أنك لن تستطيع صرف شيطان الإنس ذلك إلا بعون الله؛ فقُل: أعوذ بالله من السلطان!

٤٨٨- إذا تأملنا مصطلح «الحركة الإسلامية»، من حيث الاستعمال؛ وجدناهُ مُصطلحًا حديثًا. أما إذا تأملنا مضمونه وجدناه مرتبطًا ببزوغ الدعوة الإسلامية.

وإذا أردنا تعريف الحركة الإسلامية تعريفًا مُبسَّطًا؛ قلنا إنها التيار الاجتماعي الذي يحمل الدعوة الإسلامية، لإقامة هذا الدين. فالدعوة هي رسالة الحركة، والحركة هي تجسُّد الدعوة الاجتماعي (داخل الزمان والمكان). والمحرك هو الدعوة، والمتحرك هو المجتمع/ الحركة الذي يحمل الدعوة.

فإذا تأملنا تاريخ الدعوة الإسلامية وجدنا ما يلي:

تمثلت الدعوة أول الأمر في المصطفى ﷺ وحده. فكان هو الداعية الأول، وهو الدعوة التي تتحرك في الواقع الاجتماعي، والمحرك له هو الوحي الإلهي. ثم لما

---

(١) سورة الجاثية؛ الآية ٢٣.

آمن به وبدعوته من آمن، وكثر عدد من بايعوا على إقامة الدين حتى أصبحوا تيّارًا اجتماعيًّا مُغايرًا للمجتمع الجاهلي؛ أمكن حينئذٍ تسميتهم «حركة».

وبهذا يمكن أن يؤرخ لميلاد «الحركة الإسلامية» الأولى بميلاد الدعوة. لقد كانت الحركة الإسلامية هنا هي المجتمع المسلم كله في مواجهة المجتمع الجاهلي كله.

وفي وقعة «صفين»؛ انشقت الأمة/ الحركة/ المجتمع سياسيًّا ثم مذهبيًّا، حتى غدت كل فئة تدعي أنها الحركة، وحاملة الدعوة، فظهر مفهومان لـ«الحركة الإسلامية»:

الأول: المجتمع المسلم كله مقابل المجتمع الجاهلي.

والثاني: تيار اجتماعي داخل المجتمع المسلم يعتبر نفسه ممثلًا وحيدًا للمنهج الصحيح والفهم الصحيح[1].

وتعليقي هو: وقد ترسخ المفهوم الثاني بتزايُد الانقسامات السياسية والمذهبية، برغم أن المنهج «الصحيح» والفهم «الصحيح» لا يمكن قطعًا أن يوجدا إلا في الأمة بأكملها مجتمعة؛ وليس في تيارٍ أو طائفةٍ واحدةٍ منها. وربما كان الوعي الكامن بهذه المسلمة العقدية وراء انفتاح أبواب التكفير والتبديع والتفسيق لإخراج المخالفين من دائرة الأمة/ المجتمع المسلم.

٤٨٩- ... وأن أعراض المسلمين كُلها كعرضي ... آه يا عرضي المنتهك!

٤٩٠- «الملوك حكامٌ على الناس، والعلماء حُكامٌ على الملوك» ... هذا هو الناموس الذي كان انهياره مؤذِنًا بانحدار الملك الجبري إلى حضيض الطواغيت. فلو وجد الملك عالمًا ربَّانيًّا يأمره بالمعروف وينهاه على المنكر، لما أمسى طاغوتًا.

إن أقصى ما يمكن أن نحلم به هو الملك الجبري، فإن الرُشد في خلافة الله في عباده لا يتحقق إلا بأمة سوادُها «علماء»؛ إن اعوج الحاكم قوّموه بأسيافهم.

---

(١) بتصرُّف يسير عن مقال بعنوان: الخصائص الثابتة اللازمة والخصائص المكتسبة للحركة الإسلامية: توفيق الطيب، العدد الافتتاحي لمجلة المسلم المعاصر، والصادر عام ١٩٧٤م. وبرغم مخالفتي للأستاذ في بعض ما ذهب إليه؛ إلا أن ما اقتبسته أعلاه يستحق التأمل والدراسة.

٤٩١- مخافة الله ... كل الحكمة!

٤٩٢- صحيح أن الولايات المتحدة كانت تدعم الإخوان المسلمين والسلفيين بسبب شعبيتهم في الشارع، لكنها بذات الوقت لا تُريد تيَّارًا جارف الشعبيّة قد يظن بنفسه حريَّة الإرادة، لئلا يتكرر خطؤها القديم مع عبد الناصر. وهذا يتجلى بوضوحٍ في فشل أي اندماجٍ سياسيٍّ حقيقيٍّ للتيارين؛ ناهيك عن التأصيل لتنافر المصالح!

أيضًا تدعم أميركا جيوبًا من العلمانيين والجهاديين بذات الوقت، مع تصعيدٍ لرموز علمية من متصوِّفي الأشاعرة، وبعض المثقفين العلمانيين «الجزئيين»؛ حتى تحقق التوازُن ليس على المستوى السياسي فحسب، بل على مستوى الطرح الأيديولوجي «الإسلامي».

إن الإسلام الأميريكي الذي تجري بلورته على الساحة لن يكون خطيئة الإخوان فحسب؛ بل سيجري توظيف كل التيارات لخدمته، من أقصى اليمين الجهادي إلى أقصى اليسار الأناركي.

وصعود هذا الإسلام الأميريكي من خلال تشظِّي الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي هو مجرد اطراد للنسق المادي للدولة الحديثة؛ اطراد يُراعي تغير الزمان والمكان. وعلى من يريدون الخروج من سجن المفعول به إلى فضاء الفعل؛ كسر النسق المادِّي واستبدال أرضيَّة الاجتماع السياسي الإلحادية.

لن يكون ذلك بـ«نظريَّةٍ» سياسيَّةٍ جديدةٍ؛ لكن بتمثل حقيقة التوحيد والحركة بها في الفضاء الاجتماعي والثقافي (الدعوي) لتُعيد هذه الحركة الإنسانية تشكيل أرضية الاجتماع السياسي (القيم والعلاقات والروابط الاجتماعية التي لها تجلياتٌ سياسيةٌ) على أسس «توحيدية»، وليس لتكون «الأرضية التوحيدية» ... والفارق كبيرٌ. ساعتها، وساعتها فقط؛ ستُجهض المحاولة الأميريكية، وسيكون النظام السياسي الذي تتمخض عنه الحركة «إسلاميًّا» وليس هو «النظام الإسلامي» بعينه... أي سيكون اجتهادًا بشريًّا في إطارٍ إسلاميٍّ، ليس له مطلقيَّةٌ ولا قداسةٌ؛ اجتهادٌ يُثاب فيه المخطئ والمصيب بإذن الله.

أما محاولة البحث عن حلٍّ من خلال الحركة الأفقية التوافقية على السطح الأملس للدولة الحديثة واجتماعها الإلحادي، فلا يُمكن بلوغ الإسلام من خلاله، ولا حتى بعضه (بما أن الإسلام يتبعَّض أصلًا). فلا أعرف سُلَّمًا إلحاديًّا قد يقود إلى الإسلام!!

٤٩٣- الوجل لا يؤخِّر الأجل ...

٤٩٤- مما يزهدني في أرضِ أندلسٍ أسماء معتصم فيها ومعتضدِ
ألقاب مملكة في غيرِ موضعها كالهرِّ يحكي انتفاخًا صولة الأسدِ
(ابن رشيق القيرواني)

٤٩٥- لا زالت أفغانستان والقاعدة وطالبان كتابًا مغلقًا برغم كل اللغو الذي يقيئه المرتزقة. تمامًا كما هو حال الحركات الإسلامية المصرية (خصوصًا المسلحة) في عقدي السبعينيات والثمانينيات.

لا زال الكتاب مُغلقًا وتاريخ تلك الحقبة الخطيرة لم يكتب بعد؛ ذلك أن الفاعلين الرئيسيين إما قُتِلوا أو دُجّنوا ودُمجوا في شبكات مصالح جديدةٍ، أو أنهكتهم الحياة فآثروا قضاء شيخوختهم يتعبَّدون في هدوءٍ.

٤٩٦- والحركة، كأحد لوازم التوحيد، حركتان. حركتك على الأرض كحركة الكوكب حول محوره لتتعاقب عليه أحوال الرزق، وحركتك صعودًا وهبوطًا على طريق العروج إلى ربك كحركة الكوكب في مدارٍ ثابتٍ تتعاقب فيه فصول الروح وتقلبات القلب. فإذا توقفت إحدى الحركتين كان ذلك سكونًا، ولو دامت الأخرى. وكل سكونٍ فسادٌ. فتوقُّف العروج تجمُّد على اعتقاد نهائي/ أيديولوجيا، وتوقف الحركة على الأرض انسحاب رهبنةٍ. واحذر كل الحذر من كل حركةٍ على الأرض تزيد عن حاجتك في العروج، فإنها فتنةٌ.

٤٩٧- بعض مظاهر الشرك (الحلول) التي يعتقد فيها أكثر المسلمين؛ بل ويعتبرونها قُربى لله:

أولًا: كتابٌ واحد (من تأليف بشر) قد يكون جامعًا مانعًا يُحيط الإحاطة التامَّة بموضوعٍ ما، ويكون فيه القول الفصل والحكم النهائي، ومنتهى الحكمة وذروتها في أية قضيةٍ.

ثانيًا: عالم/ مفكر/ شيخ (من سوى الأنبياء) يكون في شخصه وعلمه وخلُقه نهاية الأرب لكل مريد/ طالب/ متلقٍّ. فيُقتصر عليه دون سواه، لأنه هو وحده الناطق بالحق/ المحيط بالشرع/ المتضلِّع بعلم الأولين والآخرين. ومجدد القرون الأولى وقرون الآخرين.

ثالثًا: علمٌ يقينيٌّ لا يُداخله شكٌّ بفرقة/ طائفة/ جماعة واحدةٍ مُتفردةٍ بأعيانها وشخوصها (الذين لم يُجددهم وحيٌ إلهيٌّ)؛ لتكون هي «الفرقة الناجية» والأمة الهادية والجماعة الإيمانية «الوحيدة».

إنه إذا كان اليقين لازمًا في المنظومة التوحيدية بقدر، وإذا كان الافتقاد إليه يؤدي إلى العبثيَّة. فإن الإفراط في اليقين كما في الأمثلة السابقة يؤدّي إلى:

أولًا: تحوُّل الحياة الدنيا إلى فردوسٍ أرضي/ طوبيا يُغني عن اليوم الآخر أو يجعله «مضمونًا» في حس المؤمن. ومن ثَمَّ لا يحتاج للكبد.

ثانيًا: يُمسي العالم/ المفكر/ الداعية مُخلِّصًا مشيحانيًّا لا ضلال بعده.

ثالثًا: يتحوّل الكتاب/ الفكرة/ المذهب إلى لاهوت مُقدَّس لا يمكن نقده ولا نقضه، ومن آمن به شعبٌ عضويٌّ مختارٌ تحلُّ فيه الرحمات، وتحل على غيره اللعنات.

لكن الأخطر من ذلك كله هو تحول الإله في ذلك التصوُّر (وبشكلٍ غير واعٍ) إلى إله قومي/ طائفي/ عرقي.

٤٩٨- يقول القطب الصوفي ابن عطاء الله السكندري: إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاطٌ عن الهمَّة العليَّة.

وتعليقي: أن الاستقامة دليل الإقامة؛ أي أن استقامة أمرك على ما أُقِمتَ فيه دليل التوفيق، وما إرادتك سوى شهوةٍ للمخالفة أو انحطاط في الهمة ... إنه ليس تكبيلًا للإرادة الإنسانية، وإنما حُسن توظيفٍ لها.

٤٩٩- نشقى في سبيل المعرفة، ونكابد في سبيل الإدراك، لنسلُك طريق الذائقين عروجًا إلى ربِّ العالمين.

وللطريق لذّةٌ تحجب ما عداها، وليس بين السالك الحقِّ وبين تلك اللذة التي وصفها أهل الله وخاصّته إلا أن يحجب العبد نفسه عن الأعراض والسوى؛ فتُحجب هي عنه بلذّة السلوك إلى المحبوب. فلولا نصاعة فطرة نبيِّ الله يوسف التي تأبّت على الانحراف وقاومته، لما استخلصه ربّه ابتداءً واصطفاه نبيًّا. فهي منه وإليه ﷻ.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[1]

٥٠٠- ومصر واسطة العقد، وحجر الزاوية، ومنبر المسجد الجامع، ومعقد اللواء، ومنارة العلم، ودار الندوة، وطليعة الأمة، وكنانة الله.

إن هذه الرؤية لا تصدُر عن أي نوع من الشوفينية أو تعبِّر عن أي دنسٍ من أرجاس القوميَّة الجاهليَّة. فهي ليست خيريةً موروثةً وغير مشروطةٍ كما تُخبرنا عبرة التاريخ الممتدة ... إنها خيريةٌ مقيَّدةٌ بكل ما سبق:

توسُّطها بين إخوة الدين وبُعدها عن الانحياز لمسلمٍ على مسلم؛ إلا لتأخذ الحق له.

حجر الزاوية الذي لا يقوم البناء إلا به، فله مواصفاتٌ لا تدركُ إلا بشق الأنفس.

منبر المسجد الجامع، فهي صوت الدعوة التي تجمع أمةً وحَّدتها وحدةُ الوجهة.

معقد اللواء؛ ففيها ينعقد اللواء على الجهاد في سبيله سبحانه.

منارة العلم؛ فأهلها أحفظ للعلم وأوعى بإذن الله.

دار الندوة؛ فهي دار الشورى وموئل أهل الحل والعقد.

طليعة الأمة؛ وهي مكانةٌ لا تنال إلا بتقوى أهل العلم ورجاحة أهل الحل والعقد.

---

(١) سورة آل عمران؛ الآية ٨ .

وكنانة الله بتحقُّق كل ما سبق بعون الله لأهلها في كدهم وجهادهم.

ربما لهذا ترقبها بإكبارٍ أنظار إخوة الدين واللسان ...

وربما لهذا تتعلق بها آمال إخوة الدين واللسان ...

إنها مسئوليةٌ جسيمةٌ لا يعيها أكثر أهل مصر ...

فاللهم اجعلها أهلًا لما أُنيط بها ... يَسِّر وأعن ... إنك على كل شيءٍ قديرٌ. آمين.

٥٠١- الله يؤتينا رشدًا عند صادمة لأنفس الخلق كم جاءت بهادمةٍ.

(البيضاوى)

٥٠٢- كان هشام بن عبدالملك يحجُّ ولا يستطيع الوصول إلى الحجر الأسود، فلا أحد يُفسح له وهو الملكُ المتوَّج. وإذا بالناس يُفسحون للإمام السجَّاد وهو يتقدّم حييًا في إخباتٍ إلى البيت. فما كان من هشامٍ إلا أن تساءل مُستخفًّا، على عادة الطواغيت؛ عمن يكونه ذلك الذي يُفسح له الناس بكل أريحيةٍ، وهم ما جاءوا إلا ليتسابقوا لبلوغ البيت!!

كان التساؤل سافلًا غرضه الإهانة، على عادة الملوك في الانتقاص ممن يشعرون بأنه خيرٌ منهم. وكان ينتظر من حاشيته الانتقاص من شأن ذلك الحيي الوحيد الذي لا حاشية له ولا أتباع يُصفقون لتُرهَاته.

فأخرج الله الفرزدق من بين حاشية هشام ليُردّ عليه بقصيدته المشهورة، ومطلعها:

هَذا الّذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْـأتَهُ وَالبَيْتُ يعْرِفُهُ وَالحِـلُّ وَالحَـرَمُ
هذا ابنُ خَيرِ عِبادِ الله كُلّهِـمُ هذا التّقيُّ النّقيُّ الطّـاهِرُ العَلَـمُ
هذا ابنُ فاطمَةٍ، إنْ كُنْتَ جاهِـلَهُ بِجَدّهِ أنْبِيَاءُ اللّـهِ قَدْ خُتِمُـوا
وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَن هـذا؟ بضَائرِه العُرْبُ تَعرِفُ من أنكَرْتَ وَالعَجَمُ

٥٠٣- ورُبَّما شفع للفرزدق -بعد أن أفنى عمره في الإفحاش لجريرٍ- حُبّهُ وإخلاصه للسادة من آل بيت رسول الله ﷺ.

فمن لقائه بأبي عبد الله الحسين وهو في طريقه إلى العراق ونصحه له مخلصًا إلى مدحه لسيدي الإمام زين العابدين بحضرة هشام بن عبد الملك، وتعرُّضه لغضب الملك الأموي.

إن الفرزدق، كالكثيرين من بني آدم؛ يُثبت أن الإنسان قد يتبنَّى نموذجين متناقضين: صلاتي خلف عليٍّ أقوم، وطعامي عند معاوية أدسَم! إنه يمدح الأمويين للارتزاق، لكنه يمدح الإمام السجَّاد حُبًّا وولاءً. وحين يغضب عليه هشام وينكل به ويحرمه العطايا، فإنه يرفض هدية الإمام زين العابدين بإباءٍ، لأنه لم يمدحه طلبًا لماله، بل حُبًّا وولاء للرسول وآل بيته الكرام، صلى الله عليهم وسلم.

وكما يثبت الفرزدق أن الإنسان قد ينحدر لدرك النفاق والكذب طلبًا للزرق، فإنه يُثبت أيضًا أن ذات الكائن العجيب المسمى إنسانًا قادرٌ على السمو فوق طينه في أحيانٍ كثيرةٍ. لا لشيءٍ؛ إلا وفاءً لله ورسوله. ولو كان الثمن حرمانه من ذات الرزق الذي ارتكب في سبيله المعصية! إن الإنسان قادرٌ على التوبة، وعلى التكفير عن ذنبه... في أكثر الأحيان.

رحم الله الفرزدق، وغفر له وتجاوز عنه، وجعلنا ممن يقتدي به في العودة إلى الحق.

٥٠٤- وددت لو تحررت مني ...!

٥٠٥- يرى الماديُّون العالم مُحايدًا تجاه الأفعال التشريعية والاتجاهات العملية للبشر. أي أن السنن الكونية لا تتحيَّز لأنصار الحق أو لأنصار الباطل، لأن مفاهيم الحق والباطل، والصحيح والخطأ، والعدل والجور؛ لها في المنظار الكوني حسابٌ واحدٌ.

لكن المدرسة الربَّانيَّة لا تنظر إلى العالم نظرة المحايد في موقفه تجاه أهل الحق والباطل. فالعالم، عند هذه المدرسة، مناصرٌ لسالكي طريق الحق والعدل، لأهل الصراط المستقيم، وذوي الأهداف الربّانيّة السامية. (**المدد الغيبي في حياة البشرية: مرتضى مطهري**)

وتعليقي على ذلك: ثَمّة فارقٌ شفيفٌ بين الاعتقاد في مناصرة الكون لسالكي طريق الحق والعدل بما هو انصياعٌ للإرادة الإلهية وانضباطٌ على مقتضى الوحي، وبين تطويع الإله لخدمة الأهواء البشرية وتوظيف الكون توظيفًا إمبرياليًّا بدعوى مناصرته للحق والعدل!

إن الانحدار من الأولى للثانية يتم في خفاءٍ، ومداره العُجب. العُجب بالطاعة، وبتسخير الكون للإنسان حتى يُسانده في سلوك طريقه. هذا العُجب الذي أخرج إبليس من رحمة الله هو ذاته الذي يُخرِج الإنسان -لا شعوريًّا في الغالب- من رحابة العبوديَّة للواحد الأحد إلى ضيق التألّه البشري، ومن فردوس التوحيد إلى جحيم الأيديولوجيا. نسأل الله العافية.

٥٠٦- روى لنا أحد أساتذتنا الأجلاء أنه كان بصحبة المفكر المغربي الدكتور «طه عبد الرحمن» -متعه الله بالصحة والعافية- في أحد المؤتمرات. وإذا بهما يلتقيان «محمد أركون» وجهًا لوجهٍ وهما خارجان. وبغض النظر عن الحوار الذي دار بينهما، فقد أبدى «أركون» عدم معرفته بـ«طه عبد الرحمن»، وسأله بغير اكتراث: ألست الدكتور «طه عبد الرحمن»؟

فأجاب الرجل: بلى!

فسأله أركون: ألا زلت مُعلَّقًا بالسماء؟

فرد عليه طه عافاه الله: أما زلت أنت مُلتصقًا بالأرض؟!

جملتان قصيرتان تبادلهما مفكران ينتميان لعالمين مختلفين كُليًّا؛ لكن كل جملةٍ منهما تطوي عالمًا بأكمله. سبحان الله.

٥٠٧- مما حيرني ولا زال يُحيرني؛ تخذيل الإمام الصادق عليه السلام الناس من الخروج مع عمه الإمام زيد عليه السلام رغم عرفانه بقدره. إذ لم أفكر مُطلقًا من قبل أن التنظير لقبول إمارة المتغلّب قد يكون فيه أدنى وجاهةٍ! فالخروج كان -في رأيي- مصدرًا من مصادر تجديد الفكر السياسي الإسلامي، ولو على المدى الطويل.

وفي حوارٍ دار بيني وبين صديقٍ أكاديمي؛ قال إن ما يحدث في مصر بعد «الثورة» جعله يرى حكمةً ووجاهةً في آراء مُنظري إمارة التغلُّب! فكأنني كنت أنتظر عبارته لأفتح في باب عقلي فرجةً بعد أن كنت قد أطبقته عامدًا على رقاب «فقهاء السلطان»!

إن سؤال الحُريّة في هذا السياق يُمسي سؤالًا مؤرّقًا؛ بما أنها ليست طوبيا (فردوس أرضي) تتحقق كُليًّا داخل التاريخ، وبالنظر للسياق التاريخي المركَّب لواقع ما يُسمى بـ«الربيع العربي»، وما تمخَّض عنه؛ يثور السؤال التالي: هل نالت هذه الشعوب فعلًا قدرًا من الحريّة كانت تفتقده في ظل الطواغيت المخلوعين؟! وهل الثمن الذي دفعته وتدفعه يستحق ما حصلت وستحصل عليه؟ وإذا كانت هذه الأنظمة أصلًا قد اهترأت منذ زمنٍ ويمكن تفكيكها اجتماعيا من الداخل؛ فمن هو المستفيد الأكبر من «الربيع العربي»؟!

ويستتبع هذا السؤال سؤال آخر؛ في ظل هذه الأعداد الهائلة من الشهداء، ألم تكن رؤية التنظيمات الجهادية -برغم اختلافي العميق معهم- في اغتيال رموز كل نظام أيسر وأكثر جدوى وأقل كُلفة؛ بما أن «الربيع العربي» في المحصلة النهائية ليس سوى عملية سياسية باهظة التكاليف الإنسانية؟!

وأخيرًا هل يُمسي ثمن صعود الإسلاميين المنبطحين للحكم أفدح بما لا يُقاس من ثمن صعود الراديكاليين؟ وهل هذا الثمن مقصودٌ للحفاظ على هؤلاء المنبطحين في سُدّة الحكم؟؟![1]

٥٠٨- في كل جاهليةٍ شيءٌ من الإسلام قد اندرست معالمه. فالإسلام هو الأصل والفطرة. لكن المهزومين يُضخّمون هذه البقايا المطموسة، ليصنعوا من انتكاس الفطرة مثلًا أعلى ...

٥٠٩- **ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكل نعيمٍ لا محالة زائلُ!**

(لبيد بن ربيعة)

(١) كتبتها قبل الانتخابات الرئاسية التي فاز بها محمد مرسي.

٥١٠- عَرَضَتْ عليَّ نفسي العلم والحكمة في مفترق الطرق، فاخترتُ العلم كأي غرّ ... أريد تحصيل كل العلم الممكن وغير الممكن!
فنظَرَت إليَّ نفسي باستهزاءٍ، والتزمَت الصمت حتى اكتمل تحصيل الشبر الأول الذي وصفه الشعبي رحمه الله ثم أعادت سؤالي؛ فإذا أنا لا زلت غرًّا قد ملأني الغرور ...
فغادرتني وعادت إليَّ في تيه الشبر الثالث وقالت: هَلُم. قد اكتفينا، فقد حان الموعد.
فتعجبت من فعلها، وسألتها: أتُكرِهينني؟! قالت: لا؛ بل أعيدك لما اختاره الله لك.
قلت: وما هو؟ قالت: أن تلطم الناس ويلطموك. أن تكون أمثولةً؛ لا أن تقيء لهم الأمثال مما حفظه صدرك!
فحدَّقت مذهولًا، فبادرتني: العلم يُتقنه كل حافظ، لكنك مكلومٌ، ومثلك خلق ليكون صارخًا في البرية؛ لا مُعلّمًا نظاميًّا ... إن طريق العلم شاق لكنها جُعبة العقل تمتلئ ولا تهترئ ... أما طريق الحكمة، فهو الحماقة ... أن تمتلئ روحك لتهترئ!
مثلك خُلق ليتعلم الناس من صراخه وعويله؛ لا من درسه وتأويله ... ولله في خلقه شئون!
ولا زلنا في نزاعٍ إلى الآن ... وإن كان ما اختارته أحب إليّ، فبِهِ أعرجُ إليه!

٥١١- ... في رحلتي الطويلة التقيتُ أُناسًا مخلصين؛ قابلتهم في الطريق وفقدتهم مع الزمن ... أحببتهم، ولم يبق منهم إلا مرارة الذكرى ولوعتها. منهم من مات، ومنهم من فرَّقت بيننا وبينه الأحداث. لكننا نرضى بما يمر بنا، فالدنيا ليست بدار قرارٍ. (أحمد رائف مُستنطقًا السيّد جمال الدين الأفغاني)

٥١٢- إن الله تعبَّد هذه الأمَّة بفعل نبيّه ﷺ، ولم يتعبَّدها بمحاولات صحابته الذين يُخطئون ويصيبون كالبشر. ويعرف من له أقل اطلاع على علم أصول الفقه أن حجيَّة فعل الصحابي وقوله موضع خلافٍ عند الأصوليين. بل إن من يقبلون به يجعلونه في مرتبةٍ ثانويَّةٍ وتابعًا للسُّنة النبوية في سياق الدرس الأصوليّ، والعملية الاجتهادية التشريعية.

إن صحابة محمدٍ ﷺ نماذج للدراسة. فهم يألمون كما تألمون، ويطمعون ويشتهون وتغلب بعضهم الأثرة وحب السلطة والإخلاد للدنيا. لكن الفارق الوحيد بيننا وبينهم؛ أنهم بشرف صُحبتهم يرجون من الله ما لا ترجون. فلا تحملوهم ما لا يطيقون، فإنه خسرانٌ في الدنيا والآخرة.

٥١٣- إذا نقل البعض عن سيد قطب نقدًا لبعض الصحابة رضوان الله عليهم (وهو ضرب لازب في بعض الأحيان خصوصًا مع تفشي الإرجاء وعبادة التاريخ عند الغالبية) مع التزام الأدب؛ انبرى البعض بأنه كلام «قبل» تحوله لـ«الاتجاه الإسلامي»، وأشاروا إلى أن الكلام لا وجود له في المعالم أو الظلال! فإن كان النقل من المعالم في مسألة الجاهلية (وهي جزءٌ لا يتجزأ من الوجود الإنساني للمؤمن؛ جزء كامن) قالوا: هذا كتب في ظروف معينة وهو تطرُّفٌ ... إلخ إلخ!
﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1]!

٥١٤- أجد امتناع الفلاسفة الشفاهيين الفُرس (وبعض كبار الصوفية) عن التدوين جديرًا بالنظر. فهو يُعبِّرُ عن روح التوحيد. فكم كبَّل التدوين من نصوصٍ وكم أجهض من أفكارٍ ورؤى. بل وكم حجب من البشر عن الوحي!
إنما الخير كل الخير في حركة المجتهد برؤيته؛ حتى إذا تتابعت الأجيال اضطرت للاجتهاد بسبب اندراس المذاهب وانطماس معالمها بموت المقلدين وانعدام المدونات، فلا يبقى إلا الوحي تعود إليه.
إنها حالةٌ نظريَّةٌ لا يُمكن فرضها على الإنسانية ... لكنه حُلمٌ محببٌ إلى نفسي.

٥١٥- وعجائز القرى أقوم تصوُّرًا وأنقى عقيدةً -في الغالب الأعم- من المعممين المحترفين وباعة الدين وحملة شهادات الماجستير والدكتوراه في العقيدة. والفارق بينهم كالفارق بين أساتذة اللاهوت المسيحي وبين حواريي المسيح عليه السلام! أحدهما دين الفطرة؛ والثاني تديُّن الصنعة!

---

(١) سورة الزخرف؛ الآية ٢٤.

٥١٦- هل نحن أمة «اقرأ»؟!

كلا ... نحن أمة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[1].

هذا الارتباط والتلازُم يقتضي منا التفرقة بين الثقافة والحضارة على منهج بيغوفيتش.

فإذا كان تدوين الفقه والعلوم أحد أركان صناعة الحضارة الماديَّة البرَّانية؛ بما أنها أصلًا تستلزم تراكمًا علميًّا، فإن هذا التدوين ذاته يؤثر سلبًا على ثقافة المجتمع؛ فهو يحصره في المجال المادي البرَّاني بمرور الوقت، ويستلزم ظهور مجددٍ كل مائة عامٍ لكسر النسق.

إن هذه المدونات لا تصنع الإنسان، ولا تساهم في صنعه، وإن كانت تساهم في ضبط واقعه البراني. إن الثقافة وحدها هي التي تصنع الإنسان، لأنها تنمي الفضاء الجواني وترقيه. لذا فإن الفنون والآداب تحل محل الدين في المنظومات الحلولية. لأنها تمارس نفس الدور في بناء الذات الإنسانية.

ولأن الدين والثقافة معينهما واحدٌ؛ وهو شوق الإنسان إلى عالمٍ مجهولٍ جاء منه. شوق الفرع إلى أصله. فإن الوحي الإلهي هو «المنهج» الذي ارتضاه الله ﷻ لتشكيل الإنسان وبناء شخصيته. صحيحٌ أن المنظومات الوثنية والحلولية التي ارتكست في حمأة الشرك تُحل الثقافة محله؛ لكنها مع ذلك تظل أقرب لطبيعته من طبيعة المدونات العلمية والفقهية البرانية. بما أنها تُعنى أصلًا ببناء جُوَّانيه.

والوحي ذاته قد يتحول لثقافةٍ مُجرّدةٍ لا أثر لها في الوجود الإنساني. وهذا من الشرك الذي يرتكس فيه ذراري المسلمين. لكنه يظل شركًا أكثر إنسانية من تمركزه حول المتون البشرية التي تنشغل بضبط الواقع البراني.

أمرٌ أخيرٌ في غاية الخطورة؛ وهو ربط الوحي والثقافة والعلم الشفاهي بالأمية، وربط التدوين والحضارة بـ«التقدُّم». وهي معايير الحداثة الغربية الملحدة، والتي بدأت ترتد في حقبة «الما بعديات» إلى الشفاهة والثقافة وإن ظلت بعيدةً عن الوحي.

---

(١) الآية الأولى من سورة العلق.

إن الله تعبَّد الخلق بالوحي، ولم يتعبَّدهم بتدوين شروحهم عليه. صحيحٌ أن الأخيرة قد تُفيد في بناء الحضارة؛ لكن من قال إن بناء الحضارة هدفُ المسلم؟؟! إنه وسيلةٌ قد يلجأ إليها وقد لا يفعل، فإن الله استخرج هذه الأمة للبلاغ، ولم يستخرجها لتتخذ مصانع شاهقةً بظن الخلود. فإن اتخذت المصانع لتحقيق هدف البلاغ، فلا جُناح عليها. لكن الوحي الذي أكد أننا لن نستطيع العدل بين النساء ولو حرصنا؛ ربط اتخاذ المصانع بتوهُّم الخلود، والله أعلم بعباده منهم بأنفسهم!

٥١٧- في المرحلة الثانوية؛ عملت في مطعم كانت تمتلكه عائلتي بالجيزة. هي من الخبرات الممتعة والمهمة في حياتي، وكل خبرات الإنسان مهمة لتكوينه.

لكن هذه الخبرة بالذات ربطتني بوقت السَّحَر والفجر باعتباره وقت الإنجاز الشخصي بالنسبة لي. فقد كان أجمل أوقات اليوم هي الساعة التي تسبق الفجر؛ حيث يكون الفول قد نضج خلال الليل، وتدور رحى طحن الفلافل وقت التواشيح كأنها تُسبّح مع نصر الدين طوبار!

صحيحٌ أني كنت أستدبر وقت الفجر بما أني أعمل في الليل، إلا أن جهوزيَّة الطعام للزبائن مع الأذان؛ كانت بالنسبة لي إنجازًا يوميًّا مُحببًا. إذ بعد الصلاة يتوافد الناس لشراء الإفطار؛ الذي يجب أن يكون مُعدًّا للبيع. فنخرج من المسجد هرولةً حتى نصل قبل الناس.

علمتني هذه الخبرة أيضًا أن الحياة دوراتٌ وأدوار يُكمل فيها بعضنا البعض، وأن الإنسان لا يجب أن ينشغل سوى بدوره. فإذا كان دوري آنذاك ينتهي بإعداد الإفطار للناس، فإن ذات الطعام هو بداية يومهم، ودورهم.

غفر الله لأبوي ورحمهما أحياءً وأمواتًا ورضي عنهما. فأكثر تجاربي المبكرة لهم فيها الفضل الأكبر، ولو بشكلٍ غير مباشرٍ.

٥١٨- من أبغض الأشياء إليَّ امرأةٌ عالية الصوت، كالنسوة اللاتي يستَعِنَّ بالصراخ لإرهاب أطفالهن ظنًّا بأن ذلك «تربيةٌ»، والحقيقة أن هاتيك النسوة لم يحصُلن على أي قسطٍ من التربية، ناهيك عن أن يضطلعن بتربية جيلٍ جديدٍ. وعلى

السيدة جارتنا الكف عن الصراخ والعويل، وإلا ألقيتها من النافذة هي وزوجها البليد!

٥١٩- من نكد الدنيا على الموحِّد تحوُّل «الإقبال الجماهيري» إلى قيمةٍ عُليا؛ برغم أن القرآن يُحذر نبيه من طاعة أكثر أهل الأرض، لأن ذلك هو الضلال عينه!

وقد ينحدر الأمر ببعض ذراري المسلمين للترويج للسفه المحض طمعًا بـ«الإقبال الجماهيري». وهذا يتجلى في إعلان صحيفةٍ عربيةٍ على الفيسبوك عن «نضال» ممثلة أميريكية لـ«الحفاظ على صدرها في مكانه» ... وشر البلية ما يُضحك!

٥٢٠- كنت في معرض الكتاب ذات يوم ضيفًا على صديق ناشر لبناني. فجاءنا شابٌ خفيف اللحية يسأل: هل أجد لديكم كُتبًا للمستشرقين فيها من شبهاتهم عن الإسلام؟

فأجبته: هناك الكثير جدًّا، وهذا سؤالٌ عامٌ. فهلا حددت اسم المستشرق أو موضوع «الشبهة» التي تبحث عنها؟

فقال: لا أعرف أسماءً لهذا أو ذاك ... لكني مُتخصصٌ في الرد على «الشبهات»!

فلما رأى التعجُّب في أعيُننا انصرف مُسرعًا ...

وهذا الشاب الساذج الذي «تخصص» في الرد على «شُبهات» المستشرقين التي لا يعرفها، مثله مثل الأحمق الذي طالت لحيته عن قبضته و«تخصص» في الرد على «الرافضة» وهو لا يعرف عنهم إلا آراء شيوخه!

كلاهما نموذجٌ لهيمنة الأيديولوجيا المقرز على طوائفٍ عريضة، يظن حاملها أن ما لُقن من «حُججٍ» مسبقةٍ هو الإسلام. فهو يحتج على ما لا يعرف بما لا يفهم مما لُقنه من لوازم مذهبه ...

إن الذين يدّعون عدم اشتغالهم بالكلام هم أحط أنواع المتكلمين؛ الذين يجهلون كل شيءٍ عمن يُريدون رد «شبهاته» حاشا ما لقنوه من سخافات مذهبهم. فهم لا يعرفون شيئًا لا عن الواقع الذي أفرز «الشبهات» ولا عن الواقع الذي تجاوزها. ولو ناظروا مُراهقًا جادًّا محبًّا للعلم يدرُس في أحد أقسام الدراسات الإسلامية بالغرب،

أو آخر لا زال يشُق طريقه في أي حوزةٍ، أو حتى في الأزهر المسكين؛ للقنهم درسًا لا يُنسى!

رحم الله أبا حامدٍ، فلو رآهم لكتب عن إلجام «حشرات» العوام ...

٥٢١- حين قال ذو النورين ﷺ: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، لم يكُن يتخيَّل أن يأتي على أُمة محمدٍ زمانٌ يكون فيه وازع السلطان هو الوازع العملي الحقيقي والوحيد، بعد أن اختفى القرآن أو كاد، إلا من التغنّي به بغير تدبُّرٍ!

٥٢٢- كان علي شريعتي يوصَف في إيران بأنه «وهَّابي»؛ ولا زال أكثر كُتبه ممنوعًا من النشر حاليًا في بلده! وحين ذهب للحج قبل الثورة الإيرانية بعامين تقريبًا؛ أخضعه آل سعود لرقابة مشددة لأنه «رافضي» مُهيِّجٌ للجماهير!

تذكرت ذلك حين بلغني من أحد شيوخي الأجلاء أن «الإخوان» يُصنِّفونني باعتباري «شيعي»! جدير بالذكر أن المخابرات الإيرانية حذرت بعض أصدقائي الإيرانيين، مؤخرًا؛ من الاتصال بي لأني «إخواني» متعصِّبٌ ووهَّابيٌّ معادٍ للشيعة!!

وبرغم انزعاجي أول الأمر من التصنيف الذي كنت أتوقعه في الحالتين، إلا أني ضحكت ملء شدقي بعدها. ذلك أن المنظومات الحلولية وأيديولوجياتها لا تستطيع إدراك الآخر إلا من خلال ثُنائيةٍ صلبةٍ تدمجه في الوعي. فمن ليس معنا هو علينا، كما كان يقول جورج بوش الابن لعنهما الله.

إن هذا التناقُض في الرؤية والتصنيف يعني أن الفقير إلى ربِّه قد أمسى أكثر تركيبيَّة من كلا المعسكرين المهزولين، بجمع خيرهما ونبذ شرّهما؛ حتى أن كلاً منهما لا يرى فيه إلا جانبًا واحدًا هو نقيض ما يراه الآخر. وهذا من فضل الله الذي يتعيَّن عليَّ شكره، ورجاء دوامه. وإن كان لا بُدَّ من الاستشهاد ببيت شعرٍ هاهُنا؛ فليكن بيت أبي الطيب المتنبِّي طيب الله ثراه وغفر له:

إذا أَتَتْكَ مَذَمّتي من نَاقِصٍ   فَهِيَ الشّهادَةُ لي بأنّي كامِلُ!

وسبحان من له الكمال وحده.

٥٢٣- حسب العقيدة الكاثوليكيَّة، فإن البابا يُوحَى إليه؛ فارتباط الكنيسة بالإله الذي حل فيها يكون من خلال البابا «المعصوم» الذي لا ينقطع الوحي عنه. ويبدو أن انتخاب البابا من كرادلة مساوين له في الدرجة يجعل «استقالته» من تلقي الوحي أمرًا مُستساغًا -نظريًّا- وعلى المستوى الإجرائي.

لكن السؤال العقدي ذي الطبيعة الميتافيزيقية، وبغض النظر عن قبول ذلك الإله بأن يُفرض عليه نبيُّه بالانتخاب؛ هو كيف يستقيل هذا «النبيُّ» من وظيفته المقدّسة التي يُفترض أنه ظل طوال عُمره يُعدُّ لها؟!

هذا شذوذٌ لا مجال له في النسق ...

ويبدو أن مُعدَّلات علمنة العقيدة الكاثوليكية قد بلغت حدًّا جعل البابا يتصرَّف باعتباره موظَّفًا منتخبًا (رفيع الدرجة) يُمكنه الاستقالة متى رغب في ذلك، فالإله/ رئيس العمل المعطَّل بالحلول لا يُمكنه الاعتراض على تقاعُد رسوله! ولا يتبقى إلا أن يُعدَّ له مرءوسيه حفل وداعٍ يليق به؛ كأي رئيسٍ لشركةٍ «عابرةٍ للقارات» تحترم نفسها!!

وفي هذه المناسبة اللطيفة؛ أتمنى أن يُقنع بعض عقلاء الإخوان المدعو عصام العريان، بالاستقالة على غرار البابا. فإن كان الشذوذ ممكنًا في الكنيسة الكاثوليكية، قمة الأنساق الحلولية، ويسري على رأسها. فقد أمسى ضرورةً في كنيسة الإخوان، والعريان ليس برأسٍ ولا حتى ذيلٍ!

ارحمونا من هذا الهزل ... فعدد الذين يُلحدون بسبب العريان أوشك أن يفوق من ألحدوا بسبب تألُّه البابا!!

٥٢٤- اللهم جنّبنا الغضب للنفس، وعافنا من الرغبة في الانتصار لها ولو بالباطل. اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه.

٥٢٥- من عرف شهيدًا عن قُربٍ؛ يعرف أنهم يُصنعون على عين الله. ولعل النقطة الفاصلة والنقلة البعيدة في حياة كل شهيدٍ هي سقوط الدنيا في عينيه وهوانها عليه. ليُمسي قلبًا قد استخلصه الله لنفسه وصفَّاه لحبِّه.

٥٢٦- المرض الذي تُعانيه السلفية المعاصرة هو ذاته الذي تعانيه كل الفرق الأخرى، في كل زمانٍ ومكانٍ. اعتبار افتراقها افتراقًا للإسلام عما عداه، وأن الحق هو ما تظنُّه فحسب، وأنها هي عينها الإسلام مُجسدًا. هذا التصور الحزبي المنغلق هو مآل كل الأنساق المعرفية الإنسانية، حتى لو استمدت بادئ أمرها من الوحي فحسب!

٥٢٧- يجب أن نُديم ذكر الشهداء ونُكثِرُ الحديث بمناقبهم، ونروي حكايانا معهم ونعلمها لأطفالنا ... إن حبهم قُربى لله؛ قُربى يتشكل بها الوعي ويُبني الضمير، وتجد القيم العليا مُتنفسها على الأرض في رجال قد تمثلوها وماتوا في سبيلها. إن كل شهيدٍ من هذه الأمة زادٌ للوعي التاريخي، وجزءٌ حميمٌ غالٍ من مسيرتها للعروج إلى الله.

إن الناس لن يدركوا قيمة الجهاد من كتب الفقه، وإنما من سير المجاهدين وأخبار الشهداء ...

٥٢٨- وُجِدَ في المجتمع النبوي ذاته كل أنواع البشر: القاعدون والمخلفون والمنافقون والضعفاء ومَن في قلوبهم مرضٌ ... فلا يمكن أن يُوجَد مجتمعٌ بشريٌّ على درجةٍ واحدةٍ من الاستنفار والجسارة والصلابة؛ لذا فقد عرفنا صناديد الإسلام الأفذاذ بالاسم، ولم نعرف مُجتمعًا من الصناديد، وإنما عرفنا مُجتمعًا مُنتجًا للصناديد... وشتان!

إن المجاهدين دائمًا طليعةٌ اجتماعيةٌ ذات صفاتٍ نفسيّةٍ تؤهلها لذلك، والشهداء هم صفوتهم التي اختارها الله خيارًا من خيار ... ولا وجود لحالة متوهَّمةٍ يكون فيها المجتمع المجاهد مُكونًا من شهداء ومجاهدين أبديين فحسب!

كذا تذكُّر الناس للشهداء، وحبهم للمجاهدين وغبطتهم إياهم، ورغبتهم فيما نالوا من الشرف، كل ذلك بطبعه قصيرٌ في النفس مؤقتٌ في التأجج؛ فالإخلاد إلى الأرض ألذ وأيسر الآن وهنا في مقابل الغيب «المجهول»، ولهذا كان التكليف.

لكن الومضات القصيرة التي يعود فيها الإنسان لأصله، ويسمو فوق طينه، ويغتسل كُليًّا في الغيب المخبوء بصحبة من تواروا خلف ستاره من المؤمنين؛ هي ومضاتٌ جديرةٌ بالاحتفاء والاستثمار والتكثير تمهيدًا لما هو أسمى. أما تبديدها على قِصَرها في التباكي على ضياعها المحتوم، وعلى إخلاد الناس إلى الأرض حين لا يكونون كذلك؛ فهو عين الحماقة وقصر نظرٍ قرين البُعد عن حقيقة التوحيد.

إن قلائل هم من يستطيعون نسيان الدنيا وهم مغمورون فيها، وأقل من هؤلاء من ينبذونها وهي بين أيديهم طمعًا بما أراهم الله من الشرف في لقائه. فتشبثوا بومضات الذكرى ولو قَصُرت، فإنها قبسٌ من الشرف الذي يناله الشهداء، وغيضٌ من الرؤيا التي أراهم الله إياها.

٥٢٩- ما كذب المؤذن في دعواه: حي على الصلاة، حي على الفلاح ... لكن من يعقل؟ ومن يُلبي؟!

٥٣٠- كان يبدو عابرًا؛ كمن كُتِبَ عليه الهبوط هنا اضطراريًّا لينتقل من عالم إلى عالمٍ آخر، غير عابئٍ بالمعبر ...

كانت عيناه مُعلقتان بما وراء الحجاب. تظنهما حين يحدثك زائغتان لا تستقران، لكنهما كانتا تبحثان عن شيءٍ مُحدد ...

ولولا أنه أعد العدة لما بدا له ما أراد من وراء الحجاب ...

فلما غشيه النور؛ انطلق نحوه في خفةٍ مُخلِّفًا طينهُ على الأرض.

عرج عائدًا من حيث جاء ...

فطوبى له وحُسن مئاب.

٥٣١- المعرفة معرفتان؛ معرفة العروج ومعرفة الخروج. معرفة العروج هي التي تَعرُجُ بها إلى مولاك ﷻ، ومصدر هذه المعرفة من خارج هذا العالم. هذه المعرفة تصدر إليك، فتصوغ وجدانك؛ لترقى بك في مراتب العبوديَّة. أما معرفة الخروج، فهي معرفة خروجك من نفسك إلى العالم، أو معرفة خروج الأمة من البداوة إلى المدنية ومن الثقافة إلى الحضارة ومن الدين إلى العمارة. وهي معرفة حركتك في

الوجود. والمعرفتان تتحركان في اتجاهين مختلفين تمامًا. إحداهما رأسية (العروج) والأخرى أفقيَّة (الخروج). وقد شقيت الكنيسة الكاثوليكيَّة بهذا «التعارُض»، في محاولتها دمجهما قسرًا في مجالٍ واحدٍ. ولا مجال للتوفيق بينهما سوى تبعيّة معرفة الخروج لمعرفة العروج، وتوظيفها لصالحها. إن عروجك يحتاج لوقود، فلتكن معرفة خروجك موظفةً على قدر حاجتك في عملية العروج، فإن زادت عن حدها نُسي العروج وتَمركَزتَ حول الخروج. وذلك كما يؤدي نسيان الخروج، على ندرته؛ للتمركُز حول العروج والرهبنة. والتمركز حول أحدهما شرٌّ. إذ لا بد من الموازنة بينهما في الحياة الدنيا، وهو جوهر التكليف. فلا تخرج من نفسك للعالم إلا للتزود بوقودٍ يُعينك على العروج، وما عدا ذلك فسرفٌ، والله أعلم.

٥٣٢- اقرأ القرآن كأنه أُنزِل عليك ...

نصيحة لا يُمكن أن تتحقق إلا بالعيش في ظلال القرآن ... أن تعيش أجواءه وظروف تنزُّله؛ بناء العقيدة وبناء الأمة.

وبدون العيش والمكابدة في أجواءٍ نفسيَّة واجتماعيَّةٍ مُشابهةٍ، فإن القرآن سيغدو باردًا في نفسك، ولن يؤثر فيك أو يُحركك؛ كأنما أنزل لغيرك!

٥٣٣- ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾[1]!

هذا قول المخلَّفين على عهد رسول الله ... أقعدهم شيءٌ من الترف. وهم كذلك في كل زمانٍ ومكانٍ.

﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾[2]! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٥٣٤- الشك/ الحيرة/ التيه/ الضياع؛ نوعان: شك الباحث عن الحقيقة، وتمحُّك من يرفُضها!

(١) سورة التوبة؛ الآية ٨١.

(٢) سورة التوبة؛ الآية ٨١ .

الأول غالبًا ما يؤدي للحقيقة بإذن الله، أما الثاني فهو مطلوبٌ لذاته؛ فهو ستار الهارب من الحقيقة المتفلِّت من تبعات معرفتها.

٥٣٥- الباقة التي تعرضها سورة الشعراء جدُّ مُخيفةٍ:
﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[1]؟!
كأنها متلازمةٌ ... عمارة الترف العابثة المنفصلة عن القيمة، وتوهُّم الخلود -ولو ضمنًا- الذي لولاه لما اتخذوا هذه المصانع، وجبروت البطش الذي يستبطن التألُّه على الخلق. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥٣٦- الفارق بين الحب قبل الزواج وبعده:
قبل الزواج تدعوها لعشاءٍ باذخ وتُطعِمها بيديك، ولا تُبالي كم أنفقت في سبيل رضاها.
بعد الزواج تبتاع عشاءً وأنت عائدٌ للمنزل في المساء وتتركها تلتهمه وحدها لأنك لا تتناول العشاء حفاظًا على وزنك، بينما هي تأكل لتنسى ... ثم تخصم ثمن العشاء من مصروف البيت! سبحان الله ... ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[2].

٥٣٧- أظل أراكم الجزئيات والتفاصيل حتى يتكون النموذج/ النسق، وبمجرد ظهور هيكله العظمي تتوه مني التفاصيل التي كنت أحفظها عن ظهر قلبٍ، ولا يبقى إلا الجسد الذي يُكسى باللحم شيئًا فشيئًا ويكتسب حياةً بحركته، وتزداد مقدرته التفسيرية باستمراره على قيد الحياة ...

٥٣٨- حين بدأت دعوة جمعية العلماء الإحيائية في الجزائر على يد الإمام ابن باديس؛ سمّاهُم الكارهين والمعارضين والجهّال: «عبدويُّون» نسبةً إلى الأستاذ الإمام محمد عبده.

(١) سورة الشعراء؛ الآيات من ١٢٨ إلى ١٣٠.

(٢) سورة عبس؛ الآية ١٧ .

وحين نتكلم اليوم في نفس الموضوعات التي تكلم فيها أستاذنا المسيري رحمه الله؛ يسمينا بعض الجهّال: «مسيريون»، ويعتبرونه مجرد اجترار لمقولاته!

والتسمية في كلتا الحالتين لا يُقصد بها الفهم؛ بل يُقصد بها الطعن. فغالبًا ما يُضفي مُطلق التسمية أسوأ الصفات على من يَنسِبُ إليه ما لا يوافق هواه. فالتسمية لم يرتضها المسمى لنفسه كما في حال من يتسمَّون بالسلفية أو من يتسمَّون بالعلمانية... إلخ. بل أطلقها عليهم «الإعلام» المضاد بُغية التحذير منهم، وتهميشهم. ولعل أبرز مثالٍ على ذلك هو تعامل العلمانيين وبعض الأزهريين مع كل ما لا يوافق هواهم من تصوّرات الإسلاميين المسيَّسين باعتباره «وهَّابيةً»؛ ليلصقوا ما يعن لهم من السخافات بالإمام ابن عبد الوهاب!

هذه السخافة لا قيمة لها بالنسبة لي على الأقل، ولا يُضيرني أن أسمى «قطبيًّا» أو «مسيريًّا»، أو أي تسمية أخرى تتفتق عنها قرائح السخفاء. إن مطلق التسمية هو من يناله الضرر الأكبر؛ فهو لا يستطيع أن يُدرك كيف تطورت أفكار هؤلاء وأمثالهم حين تبناها جيلٌ جديدٌ، وماذا قبلوا منها وماذا رفضوا، وكيف تجاوزوا الكبار بالاستفادة من أطروحاتهم لتكوين منهجٍ خاصٍّ للنظر، وبناء منظومةٍ فكرية مستقلةٍ.

إنهم أصلًا لا يفهمون أن تكوين منهجٍ خاصٍّ للنظر يعني تجاوز كل من تتلمذت عليهم. وهم لا يدركون ذلك لسببٍ بسيطٍ جدًّا، ليس لكونهم لا يعرفون ماذا يعني «منهج النظر» فحسب؛ بل لأنهم أسرى مناهج وأيديولوجيات غيرهم ... إنهم عبيدٌ لبعض أرذل العباد!

ومثل هؤلاء يجب التعاملُ معهم وفقًا لنصيحة الأفغاني: على العالم ألا يُناظِرَ جهولًا، فإنه يجعله ذريعةً للتعلُّم بغير شكرٍ.

٥٣٩- في السياق الجاهلي للدولة الحديثة كانت صور التجانس «الثقافي» مادية بحتة: إما تنظيماتٌ مغلقةٌ، أو شِلل مؤتلفة من أصحاب المصالح.

نحن الآن على أعتاب عصر المدارس الفكرية الحرة والتيارات المفتوحة ... إن لم نكن قد ولجناه بالفعل منذ ظهور شبكات التواصُل الاجتماعي. نسأل الله الإخلاص.

٥٤٠- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفةٌ اجتماعيةٌ وليست وظيفة السلطة. هي وظيفة كل المسلمين وليس وظيفة الحكام؛ فبها فقط تكون الأمة خير أمة. ونزع السلطة السياسية لهذه الوظيفة من المجتمع وحصرها في هيئةٍ مخصوصةٍ أو سُلطةٍ مُعينةٍ يعني تقويض جزءٍ من دين الأمة ونزع فعالية الإيمان!

٥٤١- «كارينا» ... صعود «الحشمة» الإباحيَّة؛ «حشمة» الرأسمالية!
أن ترتدي المرأة ما يجسِّم كل تفاصيل جسدها، وهي تظنّ نفسها مُحجَّبة!
التمركز حول الظاهر المكذوب وتكريسه بعد تقويض محتواه. مسجد ضرار، وحجاب ضرار ... لا فارق بينهما في الصد عن سبيل الله.

٥٤٢- يقول الأستاذ الإمام مُحمَّد عبده واصفًا أثر الأستاذ الأفغاني فيه، ومُعبِّرًا بعمق عن معنى الوعي التاريخي (الأمة): «لقد أعطاني والدي حياة يُشاركني فيها علي ومحروس(أخواه)، أما السيّد جمال الدين؛ فقد أعطاني حياةً أشارك بها مُحمّدًا وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».
إن جوهر الوعي التاريخي (مفهوم الأمة) القرآني هو تحوُّل إبراهيم وموسى وعيسى ومُحمد وحوارييهم وصحابتهم وأنصارهم وتابعيهم، تحوُّلهم إلى شخصيَّاتٍ حيَّةٍ تتحرَّك في عالم الواقع؛ حركة حيَّة يُمكن احتذاؤها واقتفاؤها. أن يتحوَّلوا الحُداةِ لقافلة الإيمان من لدُن آم، وإلى قيام الساعة، وليس محض شخصيَّاتٍ تاريخيَّةٍ «ميِّتة» تُقرأ قصصها على سبيل التثاقُف وتزجية الفراغ.
إن القُرآن ما ذكر هذا الرهط المبارك إلا وأردف بتأكيد ارتباط المسلم به؛ نرى ذلك في سورة المؤمنون: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[1]، وفي سورة

(١) سورة المؤمنون؛ الآية ٥٢.

الأنبياء: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]. وليت الأمر اقتصر على هذا فحسب، بل إن السياق في سورة المؤمنون يجعل مفهوم التحزُّب نقيضًا للمفهوم القرآني للأمَّة وتقويضًا له، فترى المولى سُبحانه يُردف مباشرةً بقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2]. إنّهُ وإن كان التحزُّب لا يُخْرِج من الملّة كما يبدو من ظاهر الآيات؛ إلا أنه يجعل هذا التصوّر الجاهلي البغيض مُبطلًا ومعطلًا للتصوّر القُرآني عن وحدة الأمَّة واستمرارها التاريخي.

٥٤٣- لا قداسة للأرض في الإسلام، فهي ليست وجهة المسلم ولا مُراده. ولا قداسة للتاريخ في الإسلام، فإن من يصنعونه ويتحركون فيه بشرٌ يخلطون الصالح بالسيئ والحق بالباطل.

ولا قداسة للطائفة المسلمة التي تنفر للبلاغ، فإنهم لا يمثلون الإسلام، وإنما يجسدون فهمهم له وسعيهم للتحقُّق به.

باختصار ... القداسة للوجهة؛ وجهة أمة البلاغ عن رسول الله ﷺ، ووجهة صُنّاع التاريخ كبدًا وتحقيقًا لمراد الله من خلقه، ووجهة من يحرث الأرض ليطعمهم ويكسوهم بنية خدمة الدعوة إلى الله.

... وجه الله تعالى.

٥٤٤- صحيحٌ أن الدولة القوميَّة (الناصريَّة) قد صادرت فضاء الهويَّة كاملًا وفرضت إجابةً واحدةً عن سؤالها؛ إلا أن سقوط مشروعها مع هزيمة (١٩٦٧م) قد فتح المجال مرَّةً ثانيةً، فأصبح سؤال الهوية سؤالًا مركزيًّا لا يُمكن إجابة أي تساؤل من التساؤلات الكُبرى بغير المرور به.

ولعل المحاولات العديدة «المخلصة» فنيًا تكون الحسنة الوحيدة لجيل النكبة. عن أغنية تِتْر المقدمة لمسلسل ليالي الحلمية، أتحدَّث.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٩٢ .

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٥٣.

٥٤٥- أحد تجليات الوهم الإلحادي بإمكان السيطرة على الواقع، هي برامج «الكاميرا الخفيَّة». فبعد أن أصبحت الكاميرا مركزًا و«الشهرة» من القيم العلمانيَّة والعبادات الجديدة؛ يتوهَّم مُعدُّو هذه البرامج إمكان التنبؤ برد فعل «الضحيّة» والسيطرة عليه، باعتباره خاضعًا لهذه القيم؛ بل وعكس ناتجه ليصُب في مصلحة البرنامج المبتذل. وإذا جاز ذلك في بيئة مدينيَّةٍ زادت فيها معدلات العلمنة وتشيؤ الإنسان حتى صار أحادي البُعد يستجيب لأول إشارةٍ من القائم بترشيد الواقع، فإن هذه البرامج لا يُمكنها -مثلًا- التصوير في بعض مناطق الصعيد أو الريف الأقلَّ تحديثًا، لأن التنبؤ بسلوك «الضحيَّة» في هذه الحال سيكون شبه مستحيلٍ على فريق البرنامج، ومن ثم فقد يؤدي لكوارث حقيقيَّةٍ لا يُمكن التنبؤ بمداها!

٥٤٦- هذا وقتٌ أترحم فيه على الإسفاف اللغوي لـ«الفنان المبدع» و«الشاعر الفحل» شعبان عبد الرحيم؛ بعد أن انحدر «الغناء» إلى أصوات معدنيَّة وصرخات لا تُبين، تُذكّرك بالنسوة اللاتي يُفرغن طاقتهن في «زار» ... ولأكون أدق؛ فهو أشبه بصلاة المشركين عند البيت: مُكاءً وتَصديةً!

وكل هذا يتحمل وزره دُعاة الإسلاميين، بإذن الله؛ بغير أن يُنقص من أوزار من اقترفوه! أربعة عقود يُفترض أنهم كانوا متفرغين لـ«تربية» الناس، وهم لم يُربَّوا حتى خنفساء عوراء. لا يخلو شارع في مصر من كوم قمامة علامة ودليل للتائهين، وجهاز تسجيل أو مذياع يقيء هذا الدنس اللافني، وبين ظهرانيهم من يدعون إلى دين ألف بائه: النظافة من الإيمان!!!

٥٤٧- المفكر المعاصر هو المعادِل الموضوعي للمتكلم في التراث الإسلامي. وهو لا يخترع أفكارًا؛ بل يكتشِف صلات وعلاقات جديدة بين الأفكار المحدودة التي تتداولها الإنسانية في أثواب مختلفة منذ أقدم العصور. وهو غير منوطٍ بالحِل والحرمة كأحكام فقهيَّة، بل بمصادِر الفعل ومصادِر المعرفة التي تؤدي للفعل؛ من حيث هو حلالٌ أو حرامٌ. لذا؛ فعمله يفترض به أن يُمَهّد لعمل الأصولي، بما أنه يقدِّم له رؤيةً مركَّبة للواقع تتوازن فيها الجزئيات والكليات، لتُعينه على الاجتهاد.

وقد يكون المتكلم صاحب نزوعٍ أصوليٍّ؛ ومن ثم يُصبح قادرًا لا على تفكيك الواقع فحسب، بل على إعادة الاجتهادِ لتركيب واقعٍ يوافق الرؤية التي ينطلق منها. وأزمة المتكلمين أصحاب النزوع الأصولي ذات بُعدين: أولًا المناهج الجدليَّة الماديّة التي تُهيمن على رؤيتهم الأصولية، أو تأخر الاجتهاد الأصولي في عصرهم عن مواكبة ما يُثرون به رؤى المسلمين؛ فتطرد اجتهاداتهم الكلامية بعد تخريجها أصوليًّا لتسد فراغ الواقع، وفي هذا خللٌ منهجيٌّ قد لا يظهر أثره إلا بعد أجيالٍ.

٥٤٨- نظريًا؛ كنت أعتبر تصنيف «إسلامي» تصنيفًا أيديولوجيًّا فرقيًّا لا علاقة له بالإسلام، بقدر ما هو تصوُّرٌ حزبي مقيتٌ للتفلُّت من تعاليم الإسلام. والآن؛ فالواقع البغيض الذي نصطليه يَشي بأن مدلول المصطلح سوف لن يُشير -قريبًا جدًّا- إلا لمحتوًى مُماثِل لما تُشير إليه المصطلحات التالية في السياق التوحيدي: ليبرالي، علماني، أناركي، اشتراكي، رأسمالي، ديمقراطي، شيوعي ... إلخ. أي شرك أُقحِم على التوحيد؛ نعوذ بالله منه!

٥٤٩- في أكثر مسلسلات أسامة أنور عكاشة وجيله؛ المكان هو البطل وهو الهويَّة، وهو مصدر المعرفة ومصدر القيمة. فالإنسان يفقدُ ذاته «المتفرّدة» بانفصالها عن المكان الذي تستمد منه الحياة.

وهي تنويعاتٌ على الفكرة القوميَّة ومفهوم الشعب العضوي، وعبادة الأرض.

٥٥٠- تجاهُل أسامة أنور عكاشة وأكثر جيله للوجود الإخواني دعويًّا وسياسيًا وثقافيًّا واقتصاديًّا قبل السبعينيات؛ تجاهلٌ مُتعمّدٌ لتكريس الانقطاع التاريخي، وتثبيت السردية المكذوبة التي تبناها الناصريون وحثالات القوميين واللادينيين؛ من أن ظهور الحركات الإسلامية أحد «منتجات» عصر الانفتاح و«سوآت» السادات!

مسلسل ليالي الحلمية الذي يدور جزؤه الأول في حي الحلميَّة في أربعينيَّات القرن العشرين؛ على بُعد مرمى حجر من المركز العام للإخوان في ذروة نشاطهم على كل المستويات، هو أحد الأمثلة الفجَّة على حالة الغلّ الثقافي والسياسي لجيل

من عبيد الأيديولوجيات الوثنية؛ جيل تواطأ على طمس الذاكرة التاريخيَّة، وساعده على ذلك من ورثوا عرض هذا الأدنى وقالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[1]!

٥٥١- الجبر والإرجاء أول خطوةٍ في انغلاق أكثر الأنساق المعرفيَّة، وتحول المدارس الفكرية إلى مذاهب، والطوائف إلى فرقٍ، وانجرافها للشرك. سواءٌ كان ذلك بوعي أو بغير وعيٍ. بل إن مركزيَّة الإنسان التي توهَّم البعض فيها كسرًا لقيد الجبر «الديني» هي في حقيقة الأمر جبرٌ من نوعٍ آخر؛ نوعٍ يُخضع الإنسان المتأله لحتميات ماديَّةٍ بيولوجيّةٍ ويرجئ «ثوابه» لقيام الطوبيا وتحقق الفردوس الأرضي. إنه نسقٌ ديني في جوهره لكنه دينٌ وضعيٌّ: الإله هو المادة، والفردوس فيه أرضيٌّ... إنه دينُ شركٍ!

٥٥٢- التدريب ليس نقيضًا للتربية من حيث المآل فحسب؛ بل هو ينتمي لرؤيةٍ مُناقِضةٍ أصلًا! فإذا كان الهدف من التدريب هو تحسين كفاءة الترس البشري بتحسين استجاباته المجرَّدة والآلية للمؤثرات الخارجيَّة، وهو ما يجعل منه «مادَّةً» جيدة التوصيل لأوامر القائم بترشيد الواقع؛ مجرَّد كائنٍ برَّانيٍّ أُحادي البُعد. فإن التربية، على النقيض من ذلك؛ تجعل استجابته للمؤثرات الخارجيّة أمرًا ثانويًّا بل ومرهونًا بمنظومةٍ قيميَّة ما قبليّة. لتُصبح الاستجابة هنا عملًا يأتيه الإنسان عن وعي وإدراكٍ وإرادةٍ تامَّةٍ ورغبةٍ واختيارٍ حقيقيين. إنه يتصرَّف بوازعٍ ذاتيٍّ لا تؤثر فيه التغيُّرات البرَّانيَّة كثيرًا. ولذا يصعُب التنبؤ بتصرُّفه الناشئ عن رؤيةٍ مركَّبةٍ؛ على عكس التصرُّف الآلي الذي يُنشئه التدريب الحيواني/ الغريزي.

وربَّما كان هذا منسجمًا مع ما رواه الترمذي في سننه عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ***لا تكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا***[2].

---

(١) سورة الأعراف؛ الآية ١٦٩ .

(٢) ضعَّف الألباني إسناده في ضعيف الجامع الصغير، وكذا في تعليقه على مشكاة المصابيح، ويصح وقفه على ابن مسعود.

٥٥٣- المثل المحوري -ولعله الوحيد- لارتباط الملك بالنبوة هو مثال أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام. إن الملك في هذا النسق منسجمٌ ليس مع الطبيعة الاجتماعية لبني إسرائيل وحقيقة اصطفائهم لفترةٍ من الزمن فحسب؛ بل هو وثيق الصلة بكون أكثر هؤلاء الأنبياء/ الملوك أصحاب رسالةٍ محدودة الزمان والمكان. رسالة جُزئيَّة مُكملة لغيرها.

ولعل عدم ارتباط الملك بأيِّ من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليهم، وهُم مَن هُم؛ دليلٌ على أن اقتران الملك والنبوة خصوصيّةٌ لا يُقاس عليها. إن موسى وعيسى -أولي العزم- صلوات الله عليهم لم يكونا من الملوك، برغم إرسالهم لبني إسرائيل، وكذا أبونا إبراهيم؛ جدُّ العرب المستعربة وبني إسرائيل وأنبيائهما.

ويبدو لي أن ملك الأنبياء ارتبط بتطوُّر البشريَّة الاجتماعي والنفسي، وقد يكون من التدرُّج الذي أخذ الله به خلقه حتى ختم أنبياءه بالمحمود ﷺ. وقد استنبطت مما ذكره القرآن عن داود وسليمان -عليهما السلام- غلبة صفات المُلك على النبوَّة، برغم عدلهما وصلاحهما الذي شهد به الوحي؛ وأجد ذلك جليًّا في دعوة سليمان المشتهرة: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾[1]. ولا نعرف دعوةً واحدةً تُماثلها أو حتى تُشبهها لأيٍ من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليهم.

فإذا كان القرآن يقصر تعريفه للأمَّة من جهة التصوُّر والاعتقاد (الجوَّاني) على من اقتفى الأنبياء والرسل، فإن أولي العزم منهم يحتلون بلا شكٍّ صدارة القافلة وموقع القيادة فيها. وهم مَن يصحُّ اعتبارهم أصلًا يُقاس عليه في كُلّ زمانٍ ومكانٍ.

٥٥٤- من اللغوصة الأزهريَّة التي ابتُلينا بها؛ تأويل أحد المتعالمين السخفاء الذين يقيئون سُخفهم من إذاعة القرآن الكريم، تأويله للإيثار في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2]؛ بأنه إعلاءُ مصلحة الوطن! ولا عزاء للباطنية!

(١) سورة ص؛ الآية ٣٥.

(٢) سورة الحشر؛ الآية ٩.

٥٥٥- يقول البروفيسور «وو جيان مين»؛ الأستاذ في جامعة الصين للشئون الخارجيّة: إن كثيرًا من الصينيين قدَّموا مساهماتٍ عظيمةً، ودفعوا ثمنًا باهظًا من صحتهم وجهودهم وحياتهم في سعيهم وراء أحلامهم، بعد انتهاج بلادهم سياسة الإصلاح والانفتاح. ويعترف السيّد «وو» بأن ثقافة السعي إلى الثروة قد تسرَّبت إلى كل أركان المجتمع الصيني؛ مُحددًا ثلاث أزماتٍ يواجهها المجتمع الصيني حاليًا: أزمة الإيمان، وأزمة الصدق، وأزمة المصداقيّة. ويرى أن ظهور هذه الأزمات مُرتبطٌ بافتقاد البعض للحلم والأهداف العظيمة. إن الاعتقاد بأن التحقُّق المادّي يحلُّ كل شيء أمرٌ جدٌّ مخيفٍ.

مقتطف من افتتاحيَّة مجلة الصين اليوم (الطبعة العربيّة)، فبراير ٢٠١٣؛ بعنوان: الحلم الصيني للجميع!!

٥٥٦- ولا تَغُرَّنك لذة الذوق فتُغويك بالبَوْح، فإن العبارة البشرية ميل واللغة عوراء. وما ذقت فاكتمه، فمَن باح حُرِم؛ فقد فتن من لم يذق.

٥٥٧- والعروج إلى الله غاية الإنسان، وطريقه المكابدة في كل أمرٍ. فإن كانت حركة المجتمع ترفد هذا العروج وتُسهِمُ فيه، فهو مجتمعٌ مسلمٌ. وإن كانت حركة المجتمع تجذبك للدوران حول نفسك على الأرض، فهو مجتمعٌ جاهليٌّ.

٥٥٨- المتأمل في سيرة ابن الراوندي، أحد أشهر «الملحدين» في التاريخ الإسلامي؛ يجد أنه شخصٌ تافهٌ يعبُد ذاته بعد أن تمركز حولها تمامًا. فقد تنقّل بين الديانات والمذاهب طلبًا للشُهرة وعلو الذكر: من اليهوديَّة إلى الإسلام، ومن التسنُّن إلى الاعتزال إلى التشيُّع، ومن اليهوديَّة إلى الإلحاد! بل وكتب في الانتصار لكل مذهب ودين في مقابل دنانير معدودةٍ، كما كان يكتُب في طعن ذات المذهب أو الدين بعد نفاذ الدنانير!

ونمط ابن الراوندي هو ذاته نمط شعراء البلاط في أكثر حقب التاريخ الإسلامي، بل إنه يقترب من أبي الطيب المتنبي ويتشابه معه في كثيرٍ من الصفات النفسيّة، وإن كانت حركيَّتُه أعلى وأكثر راديكاليَّةً بسبب رفضه التام -ربما عن غير وعيٍ- لفكرة المركز البرَّاني أو المتجاوز لذاته.

وبرغم انتشار وصفه بالملحد، إلا أني أجد وصف «المرتزق الخسيس» أقرب لمسلكه. فهو غير عابئ بالدين أصلًا إلا إن كان سيوفِّر له لذَّةً، وذلك على عكس الملحد الباحث عن الحق. وشتان!

ولعلَّه من أكثر الأمثلة التي تدخل تحت قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1] .... حتى لتظن أنه أنزل فيه!

٥٥٩- «عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: *إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ*».[2]

ويبدو أن في هذه الباقة مروق من الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥٦٠- الحركة ناموس الكون. وإن كان الماء يفسد بوقوفه، فكذا الدين في النفوس الراكدة. لا حياة للتوحيد في النفوس بغير كبدٍ حقيقيٍّ ودائمٍ على مقتضاه.

٥٦١- الداعي نوعان؛ إما يدعوك إلى الله سبحانه أو إلى نفسه/ حزبه/ مذهبه/ صنمه؛ فاحذر أن يُضلك بزعم أن ما يدعوك إليه معبر أو أداة؛ فقد نزل القرآن من أربعة عشر قرنًا مُبطلًا حجة الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[3]؛ فما جعل الله الولوغ في الشرك طريقًا للتوحيد!

٥٦٢- والنفس بطبعها لاهيةٌ. لكن من كابد نفسه على درب الإخلاص، رزقه الله نفسًا لا يُلهيها السوى، ولا يركبها الهوى. تكون سلواها المكابدة وقُرة عينها الشغل به ﷻ.

---

(١) سورة الجاثية؛ الآية ٢٣ .

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) سورة الزمر؛ الآية ٣ .

٥٦٣- ومن تمام استقامة نفسك على طريق الإخلاص ألا ترى إلاه. ومن لم يتعلق بسواه؛ أحبه وأغناه.

٥٦٤- ومعرفة الحق تعني معرفة مُراده من خلقه، والسير على طريق التحقُّق بالعبودية له وحده كُفرًا بالطواغيت، ومكابدةٌ مخلصة لالتزام منهجه ﷺ. ومن الكفر بالطواغيت، تمامًا لاستقامة النفس على الطريق؛ الكفر بطاغوت طينك والحذر من حجابه، وليس ذلك رهبنةً، بل هو دوام مُكابدة تقويم نفسك على مُراد الحق، والحذر من عُجبها بما يفتح الله لها.

٥٦٥- يرى توفيق الحكيم أن ضعف الدور الفكري والاجتماعي وهيمنة المكوّن السياسي على التجربة الحزبية بعد (١٩١٩م)، مرجعه تسابُق الأحزاب لضم أصحاب الأموال وكبار الملاك، وهيمنة هؤلاء على قيادها! وبفرض صحة كلام الرجل؛ أليست هذه مأساةَ الحزبية في كل عصرٍ ومصر؛ إنها رابطة مصالح شخصية؟!

٥٦٦- في باطن كل نعمةٍ طُويَ بلاء تغلفه رحمةٌ، ذلك أن الإنسان خُلِق في كبدٍ أبديٍّ. والبلاء صنو النعمة التي ينالها كل أحد، لكن الرحمة المطوية فيه لا يتفيأ ظلالها سوى المؤمن. لذا كان الفرح والحزن المعلقان بالنعمة من الحمق؛ لأن النعمة عطاءً ومنعًا فتنةٌ لا تدوم. كذا الطمع في نعمةٍ بغير ابتلاءٍ في دار البلاء؛ جهلٌ شنيعٌ.

٥٦٧- أنا لست حيًّا لأن قلبي يَنبِضُ، بل إن قلبي ينبض لأني حيٌّ. فالحياة ليست دورةً ميكانيكيةً أو بيولوجيةً، بل هي سرٌّ كامنٌ في النفخة الإلهية. إن الآلة التي سخَّرها الله في صدري ينحصر دورها في الدلالة، أما المدلول فتتوه فيه العقول. سُبُّوحٌ قدوسٌ رب الملائكة والروح.

٥٦٨- ولأن الحياة هبةٌ إلهيةٌ وسرٌّ فوق العقل، فإنها لا تُسلَبُ بيد بشرٍ وإن أتلف وعاءها، الجسد؛ بل يكون تلف الوعاء أو تدميره ستارًا لقضاء الله في استرداد وديعته. لذا، فتحريم القتل لا يرجع لكونه إزهاق روحٍ على الحقيقة، بل لكونه تألٌّ بشري على الله، بظن إمكان إزهاق الروح وسلب الحياة.

وتشريع قتل النفس قصاصًا وحدًا وجهادًا في الحالات المعينة حصرًا لا ينقل قُدرة سلب الحياة من المشرِّع سُبحانه إلى المستخلَف، بل جُعِلَ ذلك عبرة للخلق، بالإذعان للأمر الإلهي في إتلاف الوعاء المُفسِد لئلا يطغى، فيكون في إتلافه بيد المستخلَف تطبيقًا للسُنن وشفاءً للصدور وستارًا لقدر الله. ليُرد الإنسان إلى ربه ليلقى جزاء ما اقترف، إن لم يكن قد تاب.

٥٦٩- وتوهُّم إمكان الأخذ بقواعدِ جاهليةٍ لتغذية مجتمع «إسلامي»؛ يعني الظن بإمكان الوصول إلى الله بعبادة الشيطان! وهي حماقةٌ لا تُقبل عقلًا إلا ممن تملكه الهوى واستعبده الكسب الدنيوي الآني.

لقد جعل الله للوصول إليه سبيلًا واضحًا، فارتبطت الحقيقة بمنهج الوصول إليها. لذا، فإننا نقول: شرف الغاية من شرف الوسيلة. فالفصل بين الحق ومنهجه نقضٌ في الدين، وهدمٌ لأركانه، ولو صلينا وصُمنا وتسميًّنا بالمسلمين. وأخطر ما في هذا النقض لعُرى الإسلام ليس شرك العمل الذي يقع فيه المبتلون به؛ بل الكارثة الأكبر أنه صدٌّ عن سبيل الله من حيث يظُن هؤلاء أنها نُصرةٌ لشرعه. نعوذ بالله من حال من ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[1].

٥٧٠- لأذان الفجر لذةٌ خاصةٌ، فهو صوتٌ وحيدٌ يشق سكون الليل مؤذنا بيومٍ جديدٍ. يومٍ أوله دعوةٌ من الله للقائه، فأنْعِمْ بيومٍ تُقبِلُ فيه على اللقاء. اللهم اهدنا ولا تحرمنا.

٥٧١- تعريفاتٌ عصريّةٌ:

اليسار الإسلامي: استقبال قبلة بين البيت الحرام والكرملين!

الاعتدال الإسلامي: استقبال المصلِّي للبيت الأبيض؛ مباشرةً.

الرأسمالية الإسلامية: أن تستقبل في صلاتك إله «السوق» الذي لا يتجسد.

الوسطية الإسلامية: أن تؤمن ألا إله رئيسي إلا الله!

---

(١) سورة فاطر، الآية ٨.

الاشتراكية الإسلامية: الإيمان بألاَّ فارق بين الإسلام والكفر، فالمشترك الإنساني يجُبُّ ما قبله.

المنهج الوسطي: الإسلام دين أم التسامح ودين أبوه!

التنمية البشرية من منظورٍ إسلاميٍّ: إمبرياليَّة «إسلاميَّة»!

الأدب الإسلامي: الواقعيَّة الاشتراكيَّة وفوق رأسها عمامة.

الفرقة الناجية: أي حفنةٍ تسمي نفسها أهل السنة والجماعة!

٥٧٢- الحركة هدف الحياة والسكون فسادٌ، والتوحيد منهج خالق هذه الحياة لاستقامتها على مراده. والتصاق الحركة بالتوحيد يعني أن كل سكونٍ ينطوي على مفارقةٍ للتوحيد بمقداره. وأن كل حركةٍ بغير التوحيد تنطوي على شركٍ بمقدارها. فلزوم الحركة للتوحيد حياةٌ. وحياةُ التوحيد في الحركة. والتوحيد هو حركة الحياة على مُراد خالقها.

لذا، فإن الحركة الإسلامية ليست تنظيمًا أو تنظيماتٍ حزبيةً كما اصطلح الدارسون المتواطئون على ذلك، بافتراض أن الإسلام نحلةٌ سكونيةٌ كالنِّحل المحرَّفة أو الأيديولوجيات والأنساق الأخلاقية الوضعية. إن الحركة الإسلامية هي حركة المجتمع المسلم في حياته على الأرض؛ تلك الحركة التي لا تنفصل فيها الدعوة إلى الله عن طلب الرزق منه ﷻ. إذ انفصال واجب الدعوة إلى الله عن طلب الرزق منه هو فصمٌ لبعض عُرَى التوحيد. بل هو مدعاةٌ لهيمنة الهوى على أحدهما وعلمنته. فإما ساق الهوى الدعوة لتصبح دعوة لحزب/ تنظيم/ مذهب/ فرقة تدعي تجسُّد الإسلام فيها، وإما هيمن الهوى على صيرورة طلب الرزق ليُمسي هدفًا بذاته وليس وقودًا للدعوة، وفي ذلك انجرافٌ لمظان الحرام. وكليهما فصمٌ لعرى التوحيد وتقارُبٌ للشرك.

٥٧٣- تختلف الرؤية الحزبية عن الأنساق الاجتهادية المنفتحة؛ في أن الأولى سكونيةٌ نهائيةٌ والثانية في حركةٍ جدليةٍ دائمةٍ مع الوحي. الأولى ألزم صاحبها نفسه بها، ومن ثم أمكن محاكمةُ تصوره الحيِّ للوازم ثابتةٍ/ ميّتةٍ، أما في الثانية؛ فإن اللازم الوحيد هو هيمنة الوحي الذي لن نعرف له تأويلًا نهائيًّا داخل التاريخ.

لهذا، فإن فعل تقنين «الشريعة» هو في جوهره فعلٌ علمانيٌ يوقف الاجتهاد في ظل الوحي، ويجعله اجتهادًا في فهم النص البشري أو المنتج «الاجتهادي» التاريخاني. وهو تصوُّرٌ لا ينتمي لمنظومة القضاء الحديث بقدر ما يُعبر عن رغبةٍ إنسانيَّةٍ تسلُّطيةٍ في تنميط الواقع والسيطرة عليه. وهو ما تجلى مثلًا في رغبة المنصور العباسي فرض موطأ الإمام مالك على الأمة، لولا رفض صاحبه ﷺ التضييق على أمة محمد ﷺ.

إن توهم اكتمال تحقُّق الإسلام في الأرض بتقنين «الشريعة» تصورٌ طوباوي ذو طبيعةٍ إلحاديةٍ، يُهمِّشُ فعل التزكية الجواني، ويضَخِّم فعل الضبط القانوني البراني. إن التقنين لا يكبل القاضي/ المجتهد فحسب، بل يُعَرقِلُ العدالة ويجعلها حُلمًا بعيد المنال. فالقاضي المعاصر يتعامل مع بنودٍ قانونيةٍ مُصمتةٍ، وأوراقٍ ميتةٍ، أكثر مما يتعامل مع وقائع حياتيةٍ جاريةٍ. وهذا التغيُّر في طبيعة عمل القاضي وتضييق مجال اجتهاده، بل وتحويله إلى مجرد مُطَبِّق للقانون الوضعي الجامِد؛ يؤدي لتحوّل عملية التقاضي إلى واقعٍ افتراضي يطول ليخلق واقعًا موازيًا لا علاقة له بالحياة، ومن ثم تغيب العدالة التي كان القاضي/ المجتهد قادرًا على تحقيق بعضها في يُسر وسلامة بصرٍ، بمستنداتٍ معدودةٍ، ومعايشةٍ حقيقيةٍ لواقع المجتمع.

٥٧٤- الابتذال والخفة والتسطيح التي يتعامل بها الإعلام المصري مع ما يُسمَّى بـ«الفتنة الطائفية»؛ أمرٌ مثيرٌ للغثيان. وقد تحكي مذيعة عن زميلة عاشرتها عشر سنوات ولم تعرف أنها مسيحية إلا في عُرسِ زميلةٍ أخرى بالكنيسة. لتعتبر عدم تديُّن زميلتها المسيحية «فضيلة» قد أذابت الحواجز الطائفيَّة! مكمن الخطورة في هذا اللغو هو اعتبار العلمنة التي تفرضها الدولة الحديثة، المتألهة قسرًا؛ على المجال العام، اعتبارُه «أصلًا» سابقًا على الأديان! هذه الوثنية «اللا عقلانية» لا تتبنى حتى السرديات الغربية لتطور الدين عند إنغلز ودوركايم مثلًا، بل تلوكُ سرديَّةً محليَّةً ساذجةً مُنقطعةً لا تصمُد للنقد؛ السرديَّة الناصريَّة السخيفة!

٥٧٥- لا يمكن لطالبٍ يدرُس رائعة شكسبير «تاجر البندقية» مُقتطعة من خلفياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويستمتع بها وبعُمقها. لا قيمة لدراسة النصوص الكلاسيكية بغير إلمامٍ عميقٍ بتاريخ الآداب والفنون.

٥٧٦- دراسة كلاسيكيات الآداب العالمية أحد الأبواب الحداثيَّة للعودة إلى الفطرة! خصوصا أدب الحقبة الرومانتيكية. وإذا كانت الرومانتيكية الغربية قد انتهت لدينٍ غنوصيٍ انكفأ على الطبيعة، فإن رحلتها المخلصة للبحث عن إلهٍ كانت معبر سيد قطب وجلال آل أحمد وعبد الوهاب المسيري، وغيرهم في العودة إلى الإسلام.

٥٧٧- ولا أُريد صرفك عن صنم لأشغلك بآخرٍ ولو كان معممًا ... بل أريد صرفك إلى السجود للواحد ﷻ، فهو باب الفلاح؛ فإن أثمر قولي وفعلي غير ذلك، فاضرب بهما عرض الحائط واسأل الله لي هُدًى من لدنه.

٥٧٨- كلُّ طعامٍ يطعمه المؤمن يربطه باليوم الآخر. فإن كان حسنًا ذَكَّره بالنعيم، وأوجب عليه حمده ورجاء دوامه. وإن كان غير ذلك ذَكَّره -والعياذ بالله- بالجحيم، وأوجب عليه الاستعاذة مع الحمد، ورجاء انقطاعه.

٥٧٩- إن الله حين تَعبَّدنا بالدعوة إليه وجعل منهج حركتنا في ذلك اقتداءً بالمصطفى، لتكون دعوتنا إليه تمثلًا لأمره يُقتدى به؛ إنه حين تعبدنا بذلك ﷻ لم يُفوضنا بتمثيله ولا تمثيل شرعه؛ بل بضرب المثل الحي على إمكان تحققه، وشتان! فالحذر الحذر، فإن الصد عن سبيل الله أوله تلك الدعوى، وإن لم يكن آخره فتنة الذين كفروا بمن تأله بتلك الدعوى الباطلة.

٥٨٠- في مصر بالذات؛ ارتبط الفقر بفرط القذارة اللاإنسانية. وإذا كان لارتباط المصريين بالزراعة اعتمادًا على النيل - حسب تفسير جمال حمدان- دورٌ في ذلك، فإن الاستذلال والاستعباد يلعب الدور الأكبر في ظني. إحساس ساكن هذه الأرض أنه قنٌّ وضيع لا قيمة له إلا خدمة الملأ. ومثل هذا يَصعُبُ جدًّا استعادة مركزية مفهوم الاستخلاف في وجدانه. لكنه ليس مستحيلًا!

٥٨١- حين يكشف القرآن للنبي ﷺ مسجد الضرار، وينبهنا أن حتى المسجد قد يُتخذ أحيانًا للصد عن سبيل الله، بل وفي حياة المعصوم الموحَى إليه، فلا ينتبه إليه إلا بقرآن يتنزل من فوق سبع سماواتٍ؛ فإن ذلك درسٌ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ. إن التلبيس قد يكون من مسجد ضرار أو شيخ ضرار أو منهج ضرار أو دعوة ضرار أو فرقة ضرار. نسأل الله العافية.

٥٨٢- كان جوبلز -وزير الدعاية النازي- يتحسس مسدسه إذا ذُكرت الثقافة والمثقفين، وكان ستالين يتحسس حذاءه في ذات الموطن. أما الفقير إلى ربه فيتحسس أعضاءه، ليتأكد أن شيئا منها لم يُسلب؛ إذا أعلنت الدولة رعايتها/ تبنيها لأي مشروعٍ أو فكرةٍ. فالدولة عندي مُتهمةٌ إلى أن يثبت العكس!

٥٨٣- من النصائح الجليلة التي أسدانيها أحد شيوخي الفضلاء، قبل عقدٍ كاملٍ؛ الحرص ما حييت على الاستقلال أدبيًا وماليًا، وعدم الارتباط بأي صورةٍ بأي نظامٍ سياسي خصوصًا من يدّعي تمثيل الإسلام. ذلك أن العلاقة مع النظم السياسية/ الحُكّام، كعلاقة القواد بالمومس؛ قد يُفني عمره في إيجاد أفضل الزبائن لها وهي مُتقلبة المزاج بطبعها، ولا تكف عن الحط من شأنه برغم ما له من أيادٍ!

٥٨٤- والعصمة لا تكون إلا للوحي والموحى إليه ﷺ؛ بعصمة الله إياه. ولا تنسحب هذه العصمة على ما فهمته أنت وأنا عن الله ورسوله، ففهْمُنا أصله النقص وآفته الهوى. فإن أردت النجاة فاعتصم بالوحي أبدًا، ولا يخدعنك إبليس فتظن للحظةٍ أنك بلغت من هذا الوحي مبلغ النُطقَ به بغير ميل. نعوذ بالله من الشرك ظاهره وباطنه.

٥٨٥- التبديع والاتهام بمُخالفة السُنَّة والرمي بالتشيُّع والباطنية والزندقة؛ وسيلةُ المتديّن الأحمق الذي يظُن نفسه الإسلام، بمُجرَّد أن نبتت في وجهه شُعيراتٌ! وأكثر هؤلاء المقلدين إما كانوا جُهّالًا بالإسلام حتى «التزامهم»؛ فلما «هداهم» الله انتكست فطرتهم باستعلائهم بنفوسهم على أهل الضلال والجهل الذين جاءوا

من بينهم! أو كانوا على النقيض؛ فُسَّاقًا موغلين في الفسق، فلما «هداهم» الله جاء «التزامهم»، كالحركة البندولية؛ مقلوبًا «عنيفًا» لفسادهم. وقليلٌ من هؤلاء وأولئك من يُرِد الله به خيرًا، فيُعلمه معنى الإسلام؛ فيتجرد في الدعوة إليه بغير علوٍّ في الأرض، ولا استعلاءٍ على الخلق.

٥٨٦- ليس المهم هو كمْ كتابًا قرأت؛ الأهم هو بكم كتابٍ انتفعت!

٥٨٧- الحب مراتب؛ أعلاها تمام الخضوع للمحبوب، وهو ما لا يكون إلا لله ﷻ. أما حب البشر، فأعلى مراتبه أن يكون المحبوب استكمالًا لنقصك وسدًّا لثغرات نفسك. أن تكونا معًا نفسًا واحدةً كما كُنتما في البرزخ الأول. وهي وحدةٌ لا تتحقق بالصراع ومحاولة الإخضاع -ذات الطبيعة الشركية- بل بالتكامُل الذي يجعل كلاً منكما سكنًا للآخر.

٥٨٨- والتكامُل بين المحبين من البشر، وانتفاء الصراع؛ لا يكون إلا بتصحيح تصوُّر الطرفين ومفهومهما للحب. وأنه ليس امتلاكًا أو إعادة تشكيل للطرف الآخر وفق مقاييس الأقوى، فهذا كله يطوي جهل أحد الطرفين أو كلاهما بالإسلام. فإن من الشرك بالله أن تسعى لاستعباد إنسانٍ باسم عاطفةٍ ربَّانيةٍ. إن جوهر التحقُّق بالعبودية هو وحدةُ وجهتكما، ومن ثم ترافُقكما كالنفس الواحدة في العروج إلى الله. إنها أحد التنويعات على الوحدة ثنائية القطب التي تُميزُ التوحيد عما عداه.

٥٨٩- هناك نوعان من الوجود؛ وجودٌ حقيقيٌّ نصطليه كل ساعةٍ، ووجودٌ متوهَّمٌ. يتعامل الدين -حتى الوثني منه- مع الوجود الحقيقي بثقله، أما الفلسفة فتتعامل مع الوجود الافتراضي ... مع الوهم!

٥٩٠- أحسبُ أن طوائف الجهاديين أكثر طوائف الأمة إخلاصًا واتساقًا مع ما تعتقده، ولا أزكيهم على الله. لكن مع هذا الإخلاص في أكثر الأحيان رعونةٌ وجهالةٌ؛ قلبٌ مخلصٌ وعقلٌ أجوف. نسأل الله الهدى والسلامة.

٥٩١- إذا كانت لك حاجةٌ، واضطُررت للمفاضلة بين فاسقٍ لا مثيل له في كفاءته وصاحب دين أقل كفاءةً؛ فاختر الأخير. ذلك أن الفاسق قد يبيعك، حرفيًّا؛ ولأول مشترٍ، وبثمنٍ بخسٍ!

٥٩٢- لم يُخرج آدم من الجنة عصيانه لله ﷻ فحسب، بل طاعته لحواء!

٥٩٣- رحم الله نجيب محفوظ؛ القائل: «ما إن ننتهي من إعداد المنزل، حتى يحين أوان الرحيل». لذا، فالعاقل من لم يُسرف في إعداد منزلٍ سيُفارقه، وصرف نفسه لإعداد المنزل الذي سيخلد فيه. كلنا يعرف ذلك، وكلنا يتناساه! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥٩٤- اللهم أغنني بالافتِقارِ لك، ولا تُفقِرني بالاستغناءِ عنك.

٥٩٥- لقد عرف عبد الوهاب المسيري رحمه الله الإسلام بحبّه لزوجه وأطفاله. لقد عجزت المادية عن تفسير شعور بسيط كهذا. سبحان الله!

٥٩٦- كلما اتسعت الرؤية؛ ضاقت العبارة. خصوصًا عند إدراك الجمال، فغالبًا ما ينحبس المعنى في صدري؛ تحبسه اللغة الإنسانية بعجزها وقصورها. ثم بعد ذلك تجد من يدور حول حرفيَّة الكلام ويضع نصوصًا بشريةً في المركز!

٥٩٧- شرط الإسلام إسلام الوجه لله وحده، ويعني ألا تول وجهك إلا قاصدًا إياه سُبحانه. وأيما نفسٍ تردَّد في صدرك وأنت على غير هذه النية، فهو ارتكاسٌ في الجاهلية يقع فيه كل البشر بغلبة طينهم أحيانًا. والمؤمن الحق هو من لا يستسلم أبدًا لهذا الإخلاد، ويسعى جاهدًا للعودة إلى الله كلما انتبه لنفسه وغلبة شهواتها. أما الإحسانُ فهو حياة أولئك الأبرار الأخيار؛ الذين أمسى هواهم تبعًا لما أُنزِل على المعصوم ﷺ، فحتى إخلادهم إلى الأرض لا يكون بكبيرةٍ ولا شركٍ، وإنما بضعفٍ بشريٍّ يحفظهم في درجةٍ دون العصمة التي اختُصَّ بها الأنبياء.

٥٩٨- ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[1]. ويأله من مشهد ...

٥٩٩- ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾[2]؟! وياله من جهالةٍ!

٦٠٠- مما يُنسب للإمام جعفر الصادق عليه السلام في كيفيّة الحج والتهيؤ له:

إذا أردتَ الحجَّ فجرّدْ قلبَك لله من قَبل عزمك من كلّ شاغلٍ، وحجابِ كلّ حاجبٍ. وفوِّضْ أمورك كلَّها إلى خالقك، وتوكّلْ عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلِّمْ لقضائه وحُكمه وقدَره، وودّع الدنيا والراحة والخَلق، واخرُجْ من حقوقٍ تلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك، وقوّتك وشبابك ومالك؛ مخافة أن يصير ذلك عدوًّا ووبالًا...

واستعِدَّ استعدادَ مَن لا يرجو الرجوع، وأحسِن الصُحبة، وراعِ أوقات فرائض الله وسُننَ نبيّه ﷺ، وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر، والشكر والشفقة والسخاء، وإيثار الزاد على دوام الأوقات.

ثمَّ اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبَك، والبسْ كِسوةَ الصِّدق والصفاء والخضوع والخشوع.

وأحرِمْ عن كلّ شيءٍ يمنعك من ذِكر الله، ويحجبك عن طاعته.

ولبِّ بمعنى إجابةٍ صافية خالصة زاكية لله ﷻ في دعوتك، مُستمسِكًا بالعروة الوثقى.

وطُفْ بقلبك مع الملائكة حول العرش، كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت.

وهَروِلْ هربًا من هواك، وتبريًا من جميع حولِك وقوّتك.

واخرُجْ عن غفلتك وزَّلاتك بخروجك إلى «مِنى»، ولا تتمنَّ ما لا يحلُّ لك ولا تستحقّه.

---

(١) سورة الزمر، الآية ٦٩ .

(٢) سورة الزمر، الآية ٦٤ .

واعترِفْ بالخطايا بـ «عرفات»، وجدِّدْ عهدك عند الله بوحدانيَّته، وتقرَّب إلى الله واتّقِه بـ «مُزدَلَفة».

واصعدْ بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك إلى الجبل.

واذبَحْ حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة.

وارمِ الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات.

واحلِقِ العيوبَ الظاهرة والباطنة بحَلْق شَعرك.

وادخلْ في أمان الله وكنَفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخولك الحرم.

وزُرِ البيتَ متحققًا لتعظيم صاحبه، ومعرفة جلاله وسلطانه.

واستلم الحجر رضاءً بقسمته، وخضوعًا لعزّته.

وودّع ما سواه بطواف الوداع.

وأصفِ روحَك وسرَّك للقاء الله يوم تلقاه بوقوفك على «الصفا».

وكنْ ذا مروةٍ من الله، نقيًّا أوصافُك عند «المَرْوة».

واستقم على شرط حجّتك، ووفاء عهدك الذي عاهدت به مع ربّك وأوجبت له إلى يوم القيامة.

فهنيئًا لمن عاد من حجّه وهو من التوّابين المتطهّرين، تيقَّظ شعوره برقابة الله على أعماله وأقواله، ونما في قلبه شعور الخشية من الله ﷻ وحبُّ الخير للناس، والترفُّع عن الدنايا، والتنزُّه عن الرذائل والخطايا.

دعاء

فلا تدعنا لزلاتٍ مُلازمةٍ وهب لنا يا إلهي حسن خاتمةٍ

والحمد لله في الأولى والآخرة،
والصلاة والسلام على عبده ونبيّه وخاتم رسله؛ محمد بن عبد الله،
وعلى آله وصحبه ومن والاه.

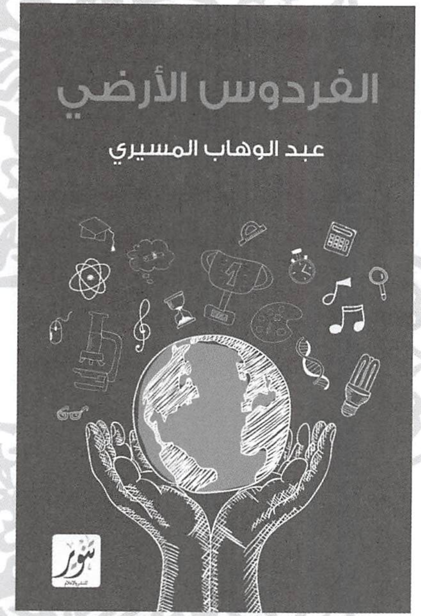
الفردوس الأرضي

صدر حديثاً

دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية

نُشر هذا الكتاب مرّة واحدة عام ١٩٧٨م في بيروت، ولم يُنشر ثانية، برغم أهميته الفائقة في إلقاء الضوء على مرحلة فارقة في حياة مؤلّفه العلاّمة، وتطوّره الفكري. فهذا الكتيّب عظيم القيمة، برغم صغر حجمه؛ يطوي كُلّ مقولاته الرئيسة التي بُني عليها مشروعه الفكري العملاق، الذي تتلمذ عليه جيلٌ كاملٌ من الشباب العربي.

في هذا الكتاب يستخدم الأستاذ كل أدواته لتحقيق خلاصه الروحي: النقد الأدبي، والتحليل الماركسي، وبقايا تعاليم التديُّن السوسيولوجي الذي خرج به من دمنهور، وفطرته الإنسانيّة؛ يستخدمها جميعًا بإخلاصٍ وحرارةٍ بارعين. فلا يرفُض الماديّة فقط، بل يرفض كُلَّ تجلياتها، وأخطرها: الطوبيا؛ أو الفردوس الأرضي كما يُسميها. يرفُض أي خلاصٍ دنيويٍ نهائي يُقوّض الإنسان. يرفض أي فردوس برّاني في هذا العالم؛ فالفردوس الأرضي الحقيقيُّ ليس برّانيًا أبدًا، بل هو فردوس جوّاني: "الفردوس القلبي"، الذي اكتشفه المسيري مع مالكوم إكس؛ فردوس الإيمان.



لقد عَبَرَ عبد الوهّاب بهذا الكتاب من الماديّةِ إلى الإنسانيّةِ والإسلام. فمِمّا ذكره رحمه الله في سيرته؛ أن مالكوم إكس كان دليله للإسلام، ومن يقرأ الفصل الذي عقده الأستاذ عن الحاج مالك الشباز (مالكوم إكس)؛ فسيُدرك كيف كان مالكوم الأمريكي هو مدخل عبد الوهاب العربي إلى الإسلام!

وإذا كانت سيرة المسيري الفكريّة تتبع ولادة أفكاره ومنهجه، وكانت سيرته الشعريّة ترسُم تحوّلات وجدانه، فإن هذا الكتاب -ربّما بغير قصد- يجمع بين السيرة الفكريّة والشعريّة. إنه لوحةٌ امتزج فيها الفكر والشعور في لحظة تحوّلٍ إنسانيّ فذّة. إنه كتابٌ كُتب بنور القلب ومداد العقل معًا.



الإسلاميّون والعَسكَر

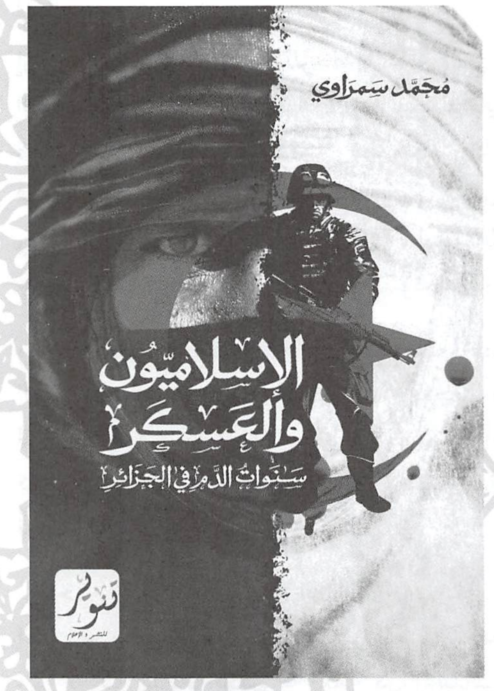
قريباً

شهادة ضابط مخابرات جزائري

هذا الكتاب وثيقة غاية في الخطورة؛ فمؤلِّفُه ليس مُجرَّد شاهد عيان، بل هو فاعل أصيل وجُزء لا يتجزأ من روايتِهِ، ورُبَّما كان هذا -بنظر البعض- دافعًا لردِّ شهادته التاريخيَّة، إمَّا باعتباره موتورًا، أو باعتباره جُزءًا من الواقع التاريخي المعاصر؛ ومن ثمَّ فهو ما زال محجوبًا بحجاب المعاصرة، وغير قادر على تجاوز التجربة للحُكم عليها.

وهذا كُلُّه مردود عليه بأن أهميَّة الشهادة التي يَضُمُّها هذا الكتاب تتجاوز قيمتُها السرديَّة المباشرة إلى ما وراء ذلك بكثير؛ إلى الأنماط التي يُمكن تجريدها منها، فهذه الشهادة تصلُح كنواة لنموذج تفسيري لعلاقات العسكر والإسلاميين، فيما بين المحيطين، وذلك مُنذ بدء حقبة الانقلابات العسكريَّة أواخر الأربعينيَّات.

وإذا كان تاريخ الحركات الإسلاميَّة ما بين السبعينيَّات والتسعينيات لم يُكتب بشكل جاد بعدُ، فإن هذا الكتاب يُمكن اعتبارُه توثيقًا لنمط مُتكرر وبارز، لا يُمكن بدونه فهم علاقات الإسلاميين والعسكر في الثُّلث الأخير من القرن العشرين.



وبهذا المنظور، فالكتاب ليس فقط تأريخًا لما سُمِّي بالعشريَّة الحمراء في الجزائر، ولا هو عن جبهة الإنقاذ التي انقلب عليها "جنرالات فرنسا" فحسب، ولا هو مُخصص لأزمة الإسلاميين مع الممارسة الديمُقراطيَّة، بل هو فوق كُلِّ ذلك، وقبله وبعده؛ عن علاقة الإسلاميين بالعسكر.



ضابط مُخابرات جزائري سابق، شغل وظائف عدَّة بأجهزة أمنيَّة مُختلفة في الفترة ما بين عام ١٩٧٨ وحتَّى استقالتِهِ من منصبه عام ١٩٩٦ احتجاجًا على جرائم النظام الحاكم التي ارتُكبت بعد انقلاب العسكر على الديمقراطيَّة (عام ١٩٩٢). وهو لاجئ سياسي في ألمانيا منذ استقالته، وقد أسس حركة "رشاد" المعارضة للنظام الجزائري في عام ٢٠٠٧.

بناء شبكات الاعتدال الإسلامي

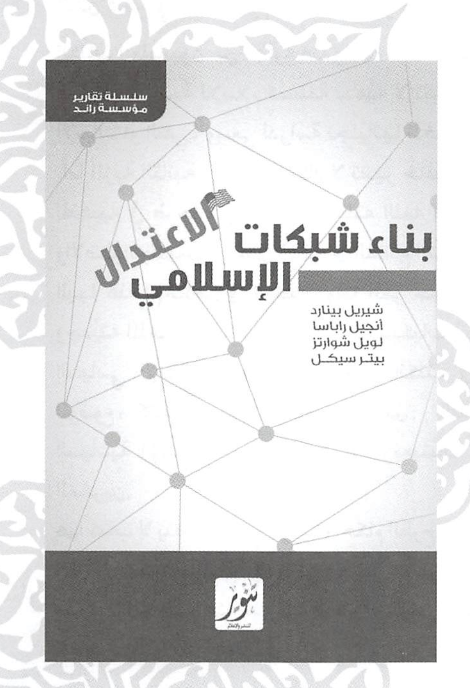
قريباً

سلسلة تقارير مؤسسة راند

تُعتبر مؤسسة راند أحد أهم مراكز الدراسات الاستراتيجيّة الأمريكيّة، ويعدُها البعض العقل الاستراتيجي الأميركي. وهي الذراع البحثي شبه الرسمي للإدارة الأمريكيّة، والبنتاغون بوجهٍ خاص. وفي إطار الجهود الأمريكيّة لإعادة رسم الخريطة السياسيّة والاقتصاديّة للعالم الإسلامي بعد 11 سبتمبر 2001؛ صدرت هذه الدراسة، استكمالًا لسابقتها التي صدرت ترجمتها العربيّة عن نفس الناشر؛ بعنوان: الإسلام الديمقراطي المدني.

يرى المؤلفون أن التأويلات الدوغمائيّة والراديكاليّة للإسلام قد اكتسبت شعبيّة في العديد من المجتمعات المسلمة، وذلك من خلال شبكات الإسلاميين التي تُغطي بلدان المسلمين وتجمُّعاتهم المهاجرة إلى أميركا الشمالية وأوروبا. وبرغم أن المعتدلين أغلبيّة في العالم الإسلامي؛ إلا أنهُم لم إلا أنهُم لم يُطوِّروا شبكات مماثلة أو منابر لتحمل رسائلهم، وتكفُل لهم الحماية عند استهدافهم.

وبخبرتها المعتبرة في بناء ودعم وتمويل شبكات من الأفراد المؤمنين بالأفكار الحرة والديقراطية خلال الحرب الباردة، فإن الولايات المتحدة ترى من واجبها الاضطلاع بدورٍ محوريٍّ في تقديم الدعم للمسلمين "المعتدلين". ومؤلفو الكتاب يقبسون الدروس من تجربة بناء الولايات المتحدة للشبكات الحليفة إبّان الحرب الباردة، ويسعون لتقييم مدى موافقتها للوضع الحالي في العالم الإسلامي، ومن ثمّ تقييم فعالية خطط وبرامج الحكومة الأمريكية في التعامُل مع العالم الإسلامي، وتطوير "خارطة طريق" تؤدي لإنشاء شبكات اعتدال إسلامي.



وهذه الدراسة موجّهة بالأصل لصانع القرار الأميركي؛ لاستكمال البُعد المعرفي للسياسات الأمريكية في مواجهة التطرُّف الإسلامي. فهي تؤصِّل لواقع سياسي، ولا تستبقه بالتنظير. فيجب قراءتها في هذا السياق، والانتباه إلى أن المصطلح المستخدم ليس مُطلقًا؛ بل هو يُعبِّرُ عن رؤيةٍ مُتحيّزةٍ بطبيعتها لإمبرياليّة معرفيّة، تسعى لتشكيل الآخر المسلم وفقًا لتصوّراتها الخاصة، والتي تُسبغ عليها مُطلقيّةً معرفيّةً وإنسانيّةً.

الفكر السياسي الإسلامي المعاصر حميد عنايت

أهم ما كُتِب في موضوعه
في النصف الثاني من القرن العشرين

قريباً

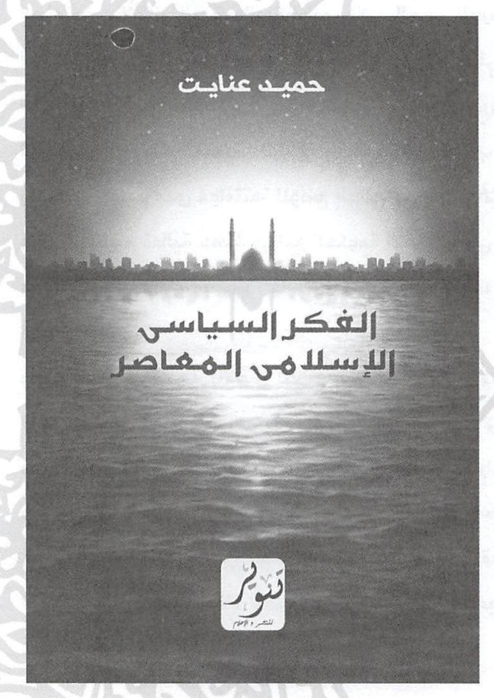
تُمثِّل الصحوة الإسلاميَّة، والثورة الإيرانية كأحد محطاتها الرئيسيَّة؛ حالة مُركَّبة ومعقدة غيَّرت مَعالم المشهد السياسي في العالم الإسلامي بشكل جذري.

وفي هذا الكتاب؛ يتتبع حميد عنايت الأفكار الرئيسيَّة التي غذَّت المشهد الجديد وساهمت في تشكيله، فيوصِّف ويُفسِّر ويُحلل الإنتاج الفكري الذي طوره الإيرانيون والمصريون بشكل رئيسيٍّ؛ جنبًا إلى جنبٍ مع أفكار بعض مُنَظِّري الباكستان والهند ولبنان وسوريا والعراق.

كما يتناول الفروق السياسية الرئيسيَّة بين السنة والشيعة بالدرس، ويرصد مراحل تطور أفكارهما التي نقلت المدرستين، رُبَّما بغير وعي؛ من مرحلة المواجهة إلى التلاقي على الأرضيَّة النظريَّة.

ثم يختبر مفهوم الدولة الإسلامية في سياقاته، ورد فعل المسلمين على التحدي الذي مثلته الأيديولوجيات المستوردة مثل القومية والديمقراطية والاشتراكية، ويختتم بتجريد الإطار النظري الذي تمخَّض عن تجديد الفكر السياسي الشيعي، وهو الجانب الذي يتم تجاهله في الأدبيات الغربية والعربية على حدٍّ سواء.

ولهذا الكتاب مزيتين رئيسيَّتين قَلَّ نظيرهما في غيره، ورُبَّما كانا أحد حسنات رؤية المؤلف العلمانيَّة. فهو لم يُبدد جهده في إثبات أن السلطة السياسيَّة جزء لا يتجزَّأ ومكوِّن أصيل من مكونات الإسلام؛ على غرار ما فعل أكثر الإسلاميين الذين كتبوا في هذا الموضوع. كما كان في طرحه أكثر نُضجًا من أن يؤصل لفصل الإسلام عن المجال السياسي؛ كما يفعل الكُتَّاب العلمانيون. بل تجاوز هذا وذاك؛ فتعامل مع لزوم السلطة السياسية للإسلام كمُسَلَّمة بدهيَّة لا تستحق عناء الإثبات أو النفي، وسعى لدراسة تجلِّيَّاتها المختلفة.



أما المزية الثانية، فهي أنه تكاد لا تظهر خلفيَّة الكاتب المذهبيَّة في طرحه، والذي غلبت عليه اللغة الأكاديميَّة والاضطراد المنهجي، بغض النظر عن النتائج التي قد يصل إليها هذا الإخلاص في البحث. ولذا أثمر جهد عنايت وجديَّته الملحوظة عملًا يعتبر أبرز الكلاسيكيات في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر بعد عُمدة الكتب في هذا الموضوع؛ كتاب محمد ضياء الدين الريس: "النظريات السياسية الإسلامية"، والذي نُشر في أربعينيَّات القرن العشرين.

هذا كتاب لا ينقصه وضوح الرؤية وإحكام الطرح ولا جديَّة القراءة للفكر السياسي الإسلامي المعاصر، وهو ما يجعل منه سِفرًا لا غنى عنه لدارسي الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، وللمثقفين الجادِّين.